التَّفْسِيرُ التَّحْلِيلِيّ



كلية الشريعة

السنة الثانية

الفصل الثاني

منشورات جامعة حلب
كليَّة الشريعة

التَّفْسِيْرُ التَّحْلِيْلِيّ

الدكتورة
انشراح أنس سويد

لطلاب السَّنة الثانية

مديريَّة الكتب والمطبوعات الجامعيَّة

١٤٤٣هـ – ٢٠٢١م

جامعة
حلب
١٩٥٨
UNIVERSITY
OF
ALEPPO

فهرس الموضوعات

الموضوع	صفحة
مقدمة	٥
تفسير الاستعاذة	٩
تفسير البسملة	٢١
تفسير سورة الفاتحة	٣١
تفسير آية الكرسي	٦٣
تفسير سورة الحجرات	٨٣
آداب التعامل مع النبي صلى الله عليه وسلَّم.	٨٥
(تفسير الآيات: ١ – ٥)	
خطورة الشائعات، وأثرها في تفتيت المجتمعات.	١٠٠
(تفسير الآيات: ٦ _ ٨)	
الإصلاح بين الفئات المتخاصمة.	١١٣
(تفسير الآيات: ٩ – ١٠)	
الآداب والأخلاق الاجتماعيَّة.	١٢٥
(تفسير الآيات: ١١ – ١٣)	
دلائل الإيمان الصادق.	١٤٧
(تفسير الآيات: ١٤ _ ١٨)	
تفسير سورة الحشر	١٥٩
إجلاء يهود بني النضير.	١٦٢
(تفسير الآيات: ١ – ٥)	
حكم الفيء، وبيان فضيلة المهاجرين والأنصار.	١٨٤

جامعة حلب ١٩٥٨ UNIVERSITY OF ALEPPO

(تفسير الآيات: ٦ _ ١٠)

أخلاق المنافقين واليهود. ٢٠٩

(تفسير الآيات: ١١ – ١٧)

دعوة المؤمنين إلى تقوى الله وخشيته. ٢٢٧

(تفسير الآيات: ١٨ – ٢١)

من أسماء الله الحُسنى وصفاته العُظمى. ٢٣٨

(تفسير الآيات: ٢٢ _ ٢٤)

تفسير سورة الملك ٢٥١

من مظاهر قدرة الله تعالى. ٢٥٦

(تفسير الآيات: ١ _ ٥)

بيان أسباب الهلاك والنجاة. ٢٧٥

(تفسير الآيات: ٦ _ ١٢)

إثبات حقيقة البعث والجزاء استدلالاً بآيات الخلق والتسخير. ٢٨٨

(١٣ _ ١٩)

دلائل التوحيد، وأثرها في إثبات عقيدة البعث والجزاء. ٣٠٨

(٢٠ _ ٢٧)

هلاك الدُّعاة إلى الحقِّ لا يدفعُ العذابَ المُحقَّقَ عن أنصارِ الباطل ٣٢٨

(٢٨ – ٣٠)

خاتمة الكتاب ٣٣٥

فهرس المصادر والمراجع ٣٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة:

الحمد لله الذي أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، وأكرَمنا بنعمة الإسلام وهداية القرآن، وجعلنا من أمَّة خير الرُسُل النبيِّ المصطفى العدنان، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وآل بيته عدد ما يكون وما قد كان، أما بعد:

فقد أنزل الله ﷻ كتابه الكريم، وجعله آخر رسالاته إلى أرضه، وجعل فيه النور المبين والهداية إلى الطريق المستقيم، وشرَّفه وأعلى قدره بالخلود إلى يوم الدين، وبهذا الخلودِ تميَّزت معجزة النبي ﷺ من معجزات سائر النبيِّين.

فالقرآن هو المعجزة الكبرى، ودستور العقيدة والشريعة والأخلاق للناس كافَّةً، وهو المصدر الأول للعقيدة والشريعة الإسلامية؛ ولذلك اعتنى علماءُ المسلمين بتدبُّره ودراسته من جميع نواحيه: البيانية، والبلاغيَّة، والتشريعيَّة الفقهيَّة، والأخلاقية، والاجتماعيَّة، والعقديَّة، والعلميَّة.

وليس ذلك إلا أثراً من آثارِ العناية الإلهيَّة بحفظ القرآن وبيانه، منذ عهد النبيِّ ﷺ الذي كان يبيِّنُ لأصحابه ما يشكل عليهم من معاني القرآن الكريم؛ امتثالاً لأمر الله الذي قال: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [سورة النحل: ٤٤].

وقد كان الصحابة ﷺ يعتمدون في تفسير القرآن على القرآن الكريم نفسهِ، وعلى بيان النبيِّ ﷺ، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله تعالى. ولم يكن التفسير في تلك العصور يتناول جميع آيات القرآن، وإنما كان يقتصر على ما غمض فهمه من الآيات والكلمات، ثم ازداد الاشتغال بالتفسير بقدر ما زاد من الغموض؛ بسبب الابتعاد عن عصر التنزيل، فاجتهد العلماء في العصور التالية، وأتمُّوا تفسير القرآن الكريم، معتمدين على ما عرفوه

من لغة العرب، وقرائن النزول، وغير هذا من أدوات الفهم والاجتهاد.

وقد كان التفسير قبل عصور التدوين يُنقل بالرواية، ثمَّ دُوِّن في أوائل عصور التدوين مع الحديث النبويِّ الشريف على أنَّه بابٌ من أبوابه، ثمَّ اشتدت عناية العلماء به فأُفرِدَ بالتأليف، وأصبح علماً قائماً بنفسه منفصلًا عن الحديث. وكان الإمام ابن جرير الطبري (٣١٠هـ) من أوائل العلماء الذين دوَّنوا المأثور في تفسير جميع آيات القرآن على حسب ترتيب المصحف. ثم اتسعت العلوم، وتشعبت فروعها، وكثر الاختلاف، واختلطت العلوم العقليَّة بالعلوم النقليَّة، وطغى التفسير بالرأي على التفسير بالأثر، وظهرت بعد ذلك مناهج جديدة في التفسير، وانقسم التفسير بحسب تنوع مناهجه إلى:

١ _ **التفسير التحليلي:** وهو التفسير الذي يتتبع آيات القرآن الكريم آية آية، بالبيان التفصيلي من أول القرآن إلى آخره على حسب ترتيب المصحف، بإيراد كل ما يتعلَّق بالآية من وجوه المناسبات، وأسباب النزول، وشرح غريب المفردات، وإعراب الكلمات، وذكر القراءات، وبيان المعاني، والوجوه البلاغيَّة، ودراسة أساليب النظم والتركيب، واستنباط الأحكام الفقهيَّة.

وهذه الطريقة في التفسير هي أقدم طرق التفسير، وهي الطريقة الغالبة في الموسوعات التفسيريَّة، وهي الطريقة المعتمدة في عرض منهاج هذا المقرَّر.

٢ _ **التفسير العام:** وهو التفسير الذي يعرض المعاني الإجماليَّة للآيات، ومقاصدها الأساسيَّة، وأهدافها العامَّة، من غير التفصيل في شرح مفرداتها، وأساليب تركيبها، ومن غير الغوص في المسائل النحويَّة والبلاغيَّة، والفقهيَّة.

٣ _ **التفسير الموضوعي:** وهو التفسير الذي يدرس قضايا متنوعة بحسب دلالات الآيات في القرآن كلِّه، أو بحسب مقصد سورة منه. ويعتمد على جمع الآيات التي تتحدَّث عن موضوع واحد، وتفسيرها من غير الالتزام بترتيب المصحف، في سبيل استنباط الحكم المشترك بينها، والمعاني الجامعة لها، واستخراج المقاصد القرآنية في موضوع ما عن طريق الآيات التي تتعلق به.

ويعدُّ مقرَّر التفسير التحليلي من أهم المقرَّرات الدراسيَّة التي تهتمُّ وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في الجمهورية العربيَّة السوريَّة بتدريسه في الكليَّات والمعاهد الشرعيَّة التابعة لها؛ لما له من أثر كبيرٍ في معرفة المنهج العلميِّ الذي ينبغي اتباعه في تفسير الآيات، وتعميق الصلة العلميَّة بالقرآن، ومصادر تفسيره.

وقد اشتمل المقرَّر على دراسة بعض السُّور والآيات القرآنيَّة ذات الصلة بموضوعات العقائد، والأخلاق، والآداب الاجتماعيَّة، وتضمَّن المفردات الآتية:

١ _ تفسير الاستعاذة.

٢ _ تفسير البسملة.

٣ _ تفسير سورة الفاتحة.

٤ _ تفسير آية الكرسي.

٥ _ تفسير سورة الحجرات.

٦ _ تفسير سورة الحشر.

٧ _ تفسير سورة الملك.

وتمَّ اختيار هذه السور لما ورد من الأحاديث في فضلها والندب إلى قراءتها، ولاشتمالها على الموضوعات التي ينبغي العناية بتدريسها للطلبة في هذه المرحلة من الحياة الجامعيَّة، لما لها من أثر في معرفة صفات الله تعالى، ودلائل ربوبيته، ومعرفة الآداب الاجتماعية الواجب التمسُّك بها في الحياة العمليَّة.

وقد آثرتُ تفسير السور المختارة كاملةً، لما في دراسة السورة كلِّها من خصوصيَّة ربَّما لا تظهر في دراسة أجزاء متفرقة منها، كالكشف عن عمود السور المختارة ومقاصدها، ومعرفة أوجه التناسب بين موضوعاتها.

وتمَّ تقسيم السور - موضع الدراسة - إلى مقاطع متعدِّدة بحسب الترابط الموضوعي بين آياتها، واتَّبعت في تفسير النصوص القرآنيَّة خطوات التفسير

التحليليّ، فبدأتُ بالتعريف بالسورة وبيان نوعها، وعمودها وموضوعاتها، ومقاصدها، وأوجه مناسبتها لما قبلها. ثم بيَّنت أسباب نزول الآيات موضع الدراسة، إن كان لها سبب نزول، ثم شرعت بتحليل الجمل القرآنية، ودراستها دراسة لغويَّة تحليليَّة، تبرز خصوصية التركيب القرآنيّ، وجمال نظمه، وتُسلِّط الضوء على ما فيه من الأساليب البلاغيَّة. وحرصت على تذييل المباحث اللغويَّة ببيان المعنى الإجمالي للآيات؛ لتدارك ما يقتضيه تحليل الأساليب اللغويَّة من انصراف الذهن عن المعنى العام للنصّ. وختمت بذكر الفوائد العمليَّة والأحكام الفقهيَّة وما ترشد إليه الآيات من المواعظ والعبَر والحِكَم والفوائد، من غير تكرار لما ذُكِر في الفقرات السابقة. وقد حرصت - لتحقيق أهداف المقرَّر ومقاصده – على جمع المعلومات من مصادر متنوعة وشاملة، كما حرصت على توثيق المعلومات ونسبتها إلى مواضعها من كتب التفسير، مع المقارنة والترجيح عندما يقتضي الأمر.

ومضمون الكتاب يتوافق مع مفردات مقرَّر التفسير التحليلي المعتمدة في قسم علوم القرآن والحديث في كليَّة الشريعة. وتمَّ تدريسه لطلاب السنة الثانية في كليَّة الشريعة بدءاً من عام ٢٠١٩ – ٢٠٢٠م، منذ اعتماد اللائحة الداخلية الجديدة بموجب القرار الوزاريّ رقم (١٧)و تاريخ ٢٠١٩/٢/٢٦م. وقد اهتمَّت الصياغة النهائية لهذا الكتاب بالإجابة على أسئلة الطلبة، وشرح ما أشكل فهمه بعبارة سهلة مبسَّطة تناسب طلبة المرحلة الجامعيَّة الأولى.

أحمد الله ﷻ الذي وفَّقني إلى الاشتغال بهذا العلم، وجعل أوقاتي به عامرة، وأسأل الله ﷻ أن يتجاوز عني فيما نسيت أو أخطأت، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعلني ممن تعلَّم القرآن وعلَّمه، إنه سميع مجيب. والحمد لله رب العالمين.

حلب ١٢/ ربيع الأول/ ١٤٤٣هـ — **وكتبه**

الموافق ١٩/ تشرين الأول/ ٢٠٢١م — **د. انشراح أنس سويد**

تفسير الاستعاذة

أمر اللّه سبحانه بالاستعاذة عند الشروع بتلاوة القرآن، طلباً للخشوع والتدبُّر واستحضار الفكر في أثناء القراءة. قال تعالى: (فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ) [سورة النحل: ٩٨].

وأرشد إلى الاستعاذة من وساوس الشيطان، وشرَّه فقال: (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [سورة فصلت: ٣٦].

وقال: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ، وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ) [المؤمنون: ٩٦ – ٩٨] وهو إرشاد قرآني إلى أنَّ دفع السيئة بالحسنة علاجٌ لشيطان الإنس، والاستعاذة بالله علاجٌ لشيطان الجنّ.

وقد ورد في السنة عن أبي سعيد الخدري ﷺ قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ كَبَّرَ ثُمَّ يَقُولُ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ». ثُمَّ يَقُولُ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ». ثَلاَثًا، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا». ثَلاَثًا «أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ». ثُمَّ يَقْرَأُ."(١)

معنى الاستعاذة:

الاستعاذة اصطلاح لغوي، يطلق اختصاراً لعبارة (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) وهي عبارة شرع الله قولها قبل البدء بقراءة القرآن، والإقبال على العبادة، وفي كل موطن يُخشَى فيه من وسوسة الشيطان.

---

(١) سنن الترمذي، للإمام الحافظ محمد بن عيسى أبي عيسى الترمذي السلمي، (٢٧٩ هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط.، د.ت، كتاب أبواب الصلاة، باب ما يقول عند افتتاح الصلاة، رقم (٢٤٢)، ج٢/ ٩. قال أبو عيسى: وحديث أبي سعيد أشهر حديث في هذا الباب.

أعوذ بالله: أعوذ فعل من العوذ، والعوذ في اللغة يطلق على معنيين:

الأول: الالتجاء والاستجارة، والاحتماء بالشيء من المكروه. يقال: عذت بفلان واستعذت به؛ أي لجأت إليه، وهوعياذي؛ أي ملجئي.

ومعنى أعوذُ بالله: أستجير، وألتجئُ إلى رحمة الله تعالى وعصمته.

والثاني: الالتصاق، يقال: أطيب اللحم عوذه، وهو ما التصق منه بالعظم، ويقولون للأنثى إذا وضعت: عائذ؛ لشدة ملازمة ولِدها إيّاها، أو ملازمتها إيّاه. ومعنى أعوذ بالله: ألتصق بنفسي بفضل الله وبرحمته.(١)

وقد جاءت صيغة الاستعاذة بصيغة الفعل المضارع، على سبيل الإخبار، وفي حمل الاستعاذة على الخبريَّة وجهان:

الأول: أنَّها خبر يخبر به المرء عن نفسه أنَّه مستعيذ بالله.

والثاني: أنَّ لفظه خبر ومعناه الدعاء، والتقدير: اللهم أعذني، كقولك: "أستغفر الله" أي: اللهم أغفر لي. وهذا القول هو الأرجح، (٢) لأنَّ جملة (أعوذ بالله) إخبار عن فعل العبد، وهذا القدر لا فائدة فيه، إنَّما الفائدة في أن يعيذه الله.

وأوثِرت صيغة: "أعوذ بالله" ولم يقل أعذني؟ لإظهار كمال العبوديَّة في مقابل كمال الربوبيَّة، وكأنَّ العبد يقول: أنا مع نقص بشريتي أقر بعبوديتي وفقري إليك، وأنت المتفضِّل الذي لا يردُّ العبد الضعيف، المقبل على باب رحمتك وكرمك بكامل الانكسار يرتجي منك القول: إني أعيذك من الشيطان الرجيم.

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير، للإمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي (٦٠٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ج١/٦١.

(٢) انظر: النكت والعيون، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط.، د.ت.، ج١/٤٢.

وجاءت الصيغة بلفظ (أعوذ) بالمضارع، ولم تأتِ بصيغة الماضي (عُذتُ)؛ لأنَّ معنى الاستعاذة لا يتعلق إلا بالمستقبل؛ لأنها كالدعاء.

وإنما جاء بهمزة المتكلم المفرد (أعوذ)، ولم يأتِ بالجمع (نعوذ)؛ مشاكلة للأمر به في قوله تعالى: (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [سورة الأعراف:٢٠٠] بصيغة الأمر المخاطب به المفرد (فاستعذ).[١]

بالله: الله علم على ذات المعبود بحقٍّ، المتصف بجميع صفات الكمال، المنزه عن جميع صفات النقصٍ، وهو الاسم الأعظم الجامع لجميع صفات الله، وهذا الاسم اختص به الله جل جلاله ولم يسمَّ به غيره.

وإنما خصُّ اسم الجلالة (الله) للاستعاذة به من بين سائر الأسماء؛ لأنَّ هذا الاسم يجمع جميع الأسماء الإلهيَّة، فكان هذا الاسم أبلغ في الزجر عن المعاصي من سائر الأسماء والصفات، لأنَّ الإله المستحق للعبادة لا يكون كذلك إلا إذا كان قادراً عليماً حكيماً.

فقولك: (أعوذ بالله) جار مجرى أن تقول أعوذ بالقادر العليم الحكيم، وهذه الصفات هي النهاية في الزجر، ولأنَّ العدو كلما كان أشد احتيج إلى عدة أكثر، و(الله) هو الاسم الجامع لجميع الصفات الكمالية فكأنَّ العبد قال: أعوذ بالله الذي لا يرضى بشيء من المنكرات من الشيطان الرجيم.[٢]

مِنَ الشَّيْطَانِ: يحتمل وجهين:

<u>الأول</u>: أنه مشتقٌ من **شَطَنَ**، بمعنى (بَعُدَ) يقال: بئر شطون: أي: بعيدة القعر، ويقال: شَطَنَتْ دَاري من دارك: بَعُدت. ومنه قول النَّابغة الذُّبياني:

---

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبي (٧٤١هـ)، تحقيق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١٥هـ-١٩٩٥م، ج١/٣٠.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج١/٨٤.

نأتْ بِسُعَادَ عَنْك نَوًى شَطُونُ ... فبانَت، والفؤادُ بها رَهِينُ.[1]

وسمي به الشيطان؛ لأنه بعيد عن الرشاد، وبَعِيدٌ بِطَبْعِهِ عَنْ طِبَاع الْبَشَر، وَبَعِيد بِفِسْقِهِ عَنْ كُلّ خَيْر. فالنون أصلية والياء زائدة، ووزنه (فَيعَال)

وعلى هذا الوجه الشيطان هو كل متمرّد من الجن والإنس والدوابّ. قال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ) [سورة الأنعام: ١١٢]، فجعل من الإنس شياطينَ، كما جعل من الجنّ.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ، وركب بِرذَوْنًا فجعل يتبختر به، فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبخترًا، فنزل عنه، وقال: ما حملتموني إلا على شيطانٍ! ما نزلت عنهُ حتى أنكرت نَفسي.

وإنما سُمي المتمرّد من كل شيء شيطانًا، لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاقَ سائر جنسه وأفعاله، وبُعدِه من الخير.

وقولك: "أعوذ بالله من الشيطان" أي: من كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس، يصرفني عن طاعة ربي.[2]

الثاني: أنه مشتقٌّ من شاط، بمعنى هلك واحترق، وسمي به الشيطان؛ لأنه مَخْلُوق مِنْ نَار، ولأنه عرَّض نفسه للهلاك بسبب عصيانه. وعلى هذا الوجه تكون النون زائدة والياء أصلية وزنه (فعلان).[3]

والشيطان يحتمل أن يراد الجنس فتكون الاستعاذة من جميع الشياطين، أو العهد فتكون الاستعاذة من إبليس. أي من شرّه ووسوسته.[4]

---

(١) النوى: الوجهة التي نَوَاها وقصَدها. والشَّطونُ: البعيدة.

(٢) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الآملي الطبري (٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١/١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م، ج١/١١١ -١١٢.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (٦٧١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١/١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، ج١/ ٩٠.

(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ج١/ ٣٠

الرَّجِيمِ: الملعون المشتوم. وكل مشتوم بقولٍ رديء أو سبٍّ فهو مَرْجُوم. وأصل الرجم الرَّميُ، بقول كان أو بفعل.

ومن الرجم بالقول قول آزر لإبراهيم عليه السلام: (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ) [سورة مريم: ٤٦].

ومن الرجم بالفعل قول قوم نوح في قوله تعالى: (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) [سورة الشعراء: ١١٦]

ووُصِفَ الشيطان بأنه رجيمٌ، لأنَّ الله طرَده من سَماواته، ورجمه بالشُّهب الثَّواقِب. قَالَ تَعَالَى: (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ) [سورة الملك: ٥]

وبذلك تكون صيغة الرجيم: فَعيل بمعنى مفعول، كقول القائل: كفٌّ خضيبٌ، ورجل لَعينٌ، بمعنى: مخضوبة وملعون.(١) فيكون رجيم بمعنى المرجوم بالنجوم، أو المشئوم، أو الملعون المطرود.

المعنى الإجمالي للاستعاذة: أستجيرُ بالله طالباً أن يحميني من شرِّ الشيطان الملعون المذموم الذي يريد أن يضرَّني في ديني، أو يصدَّني عمَّا يلزَمُني لرَبي.

والمقصود من الاستعاذة لا ينحصر في دفع وسوسة الشيطان إلا أنَّ ذلك أعظم المقاصد، ولهذا خصَّ بالذكر في القرآن، ولو نوى المستعيذ دفع جميع المضار الدنيوية والأخروية فلا ضير. وقد أَمَر اللهُ نبينا - والأمر لنا أيضاً - بالاستعاذة فقال: (قل أعوذ برب الفلق) [سورة الفلق: ١]، (قل أعوذ برب الناس) [سورة الناس: ١] للوقاية من شر النفاثات في العقد، ومن شر الوسواس الخناس.

---

(١) انظر: تفسير الطبري، ج١/١١٢.

أهمية الاستعاذة، وفضلها:

١- الاستعاذة تُطهّر القلب عن كل ما يشغله عن الله تعالى، وهي إعلان بتوجّه العبد إلى الله بمشاعره الخالصة عن هواجس الشر التي يدعو إليها الشيطان.

٢- والاستعاذة: إقرار بعجز العبد وضعفه وافتقاره إلى الله ذو الغنى التام، والقدرة الكاملة، القادر على دفع جميع المضرّات والآفات.

٣- والاستعاذة إقرارٌ بأنَّ الشيطان عدو مبين، يجدر الحذر من وساوسه، لأن عداوته ظاهرة أخبر بها القرآن، بقوله سبحانه: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) [سورة فاطر: ٦]

٤- والاستعاذة دأب النبيين والمرسلين، فقد ثبت في السنَّة قول النبيِّ ﷺ: "اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك."(١)

وثبت أنَّ امرأة عمران عوذَّت السيدة مريم وذريتها من الشيطان الرجيم، بقولها: (وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) [سورة آل عمران: ٣٦].

وقال نوح عليه السلام فيما أخبر الله عنه: (رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم) [سورة هود : ٤٧]. وقال يوسف عليه السلام: (معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي) [سورة يوسف: ٢٣]، وقال موسى عليه السلام: (إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) [سورة غافر: ٢٧].

صيغ الاستعاذة:

ذكر القرَّاء والمفسِّرون صيغاً كثيرة للاستعاذة،(٢) منها:

---

(١) صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج أبي الحسين القشيري النيسابوري (٢٦١ هـ)، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط.، د.ت، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٦)، ج١/ ٣٥٢.

(٢) انظر: النشر في القراءات العشر، للإمام محمد بن محمد بن محمد بن الجزري (٨٣٣هـ)، تحقيق: الشيخ علي محمد الضباع المصري، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط.، د.ت.، ج١/ ٢٨٢ – ٢٨٧. وانظر: مفاتيح الغيب، ج١/ ٥٩، واللباب =

١ _ (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، وهذه الصيغة هي أرجح الصيغ عند جمهور القرَّاء (أبي عمرو وعاصم وابن كثير)، وهي المختار من لفظ الاستعاذة عند الشافعي وأبي حنيفة؛ لموافقة قوله تعالى: (فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) [سورة النحل: ٩٨]، ولحديث جبير بن مطعم: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول قبل القراءة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم."[١]

٢_ (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) وقرأ بها حفص، واختارها الإمام أحمد في رواية عنه، ودليلهم الجمع بين الصيغة الواردة في سورة النحل وسورة فصلت: (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [سورة فصلت: ٣٦]، ولحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "وكان النبي ﷺ إذا قام من الليل كبَّر... ثم يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم"[٢]

٣_ (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم) وهي رواية أيضاً عن أحمد، واختارها نافع وابن عامر والكسائي، لقوله تعالى: (فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) [سورة فصلت: ٣٦]

٤_ (أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم)، وهذه الصيغة هي اختيار حمزة الزيات ومحمد بن سيرين، لظاهر قوله تعالى: (فاستعذ بالله) [سورة النحل: ٩٨]

مواطن الاستعاذة:

١ _ تستحبُّ الاستعاذة قبل قراءة القرآن داخل الصلاة وخارجها؛ لقول الله تعالى: (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) [سورة

في علوم الكتاب، لأبي حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي (٨٨٠هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ج١/ ٧٩ –٨١.

(١) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لأبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي (٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢/١٤١٤هـ-١٩٩٣م، كتاب الصلاة، باب صفة الصلاة، رقم (١٧٨٠)، ج٥/ ٨٠.

(٢) سنن الترمذي، كتاب أبواب الصلاة، باب ما يقول عند افتتاح الصلاة، رقم (٢٤٢)، ج٢/ ٩. قال أبو عيسى: وحديث أبي سعيد أشهر حديث في هذا الباب.

النحل:٩٨] والْآيَةَ تَدُلُّ على مشروعية الاستعاذة قبل الشروع بقراءة الْقُرْآنِ، وَهِيَ أَعَمُّ من أن يكون القارئ في الصلاة، أو خارجها.

٢ _ وتستحبُّ الاستعاذة في كل موطن يُخشى فيه من وسوسة الشيطان، أو تسلُّطه على الإنسان، ويغلب ذلك عند الإقبال على العبادات كالصلاة ودخول المسجد، أو عند وجود دوافع تحمل الإنسان على ارتكاب المعاصي، كالغضب ودخول الأسواق، لذا تستحسن الاستعاذة بالله من الشيطان أن يفسد على الإنسان عبادته، أو يحفِّزه على فعل ما يغضب ربَّه، قال تعالى: (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [سورة فصلت: ٣٦].

أحكام فقهيَّة تتعلق بالاستعاذة

أولاً: حكم الاستعاذة قبل القراءة:

اختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة مذاهب: (١)

الأول: أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ وغيرها سُنَّةٌ، ولَيْسَتْ بِفَرْضٍ، وهو ما ذَهَبَ إليه جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ. وهو الراجح. ودليلهم: أنَّ النبي ﷺ لم يعلم الأعرابي الاستعاذة حِينَ عَلَّمَهُ أعمال الصَّلَاةَ، وتأخير البيان عن وقته غير جائز، ولو كانت فرضاً لم يُخْلِهِ مِنْ تَعْلِيمِهَا، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ ترك التَّعَوُّذَ لا يُفْسِدُ الصَّلَاة.(٢)

الثاني: أَنَّ الِاسْتِعَاذَةُ تَجِبُ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا. وهو قول

---

(١) انظر: حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء، للعلامة سيف الدين أبي بكر بن محمد بن أحمد الشاشي القفَّال (٥٠٧ هـ)، تحقيق: د. ياسين أحمد إبراهيم درادكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج٢/ ٨٢.

(٢) انظر: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، للعلَّامة علاء الدين الكاساني (٥٨٧ هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط، ١٩٨٢م، ج١/ ٢٠٢ ، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين ابن نجيم الحنفي (٩٧٠ هـ)، دار المعرفة، بيروت، د.ط.، د.ت.، ج١/ ٣٢٨، والمجموع شرح المهذب، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ)، دار الفكر، بيروت، د.ط.، د.ت، ج٣/ ٣٢٥، والمغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (٢٤١ هـ)، لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (٦٢٠هـ)، دارالفكر، بيروت، ط١/١٤٠٥هـ، ج١/ ٥٥٤.

ابن حزم الظاهري. ودليله: الأخذ بِظَاهِرِ الأمر في قَوْله: (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) [سورة النحل: ٩٨]، وصيغة الأمر للوجوب. كما استدل بمواظبة النبيّ ﷺ وأصحابه على الاستعاذة في الصلاة بعد الاستفتاح.(١)

وردَّ الجمهور أنَّ الأمر دليل مشروعيتها، والمأمور به قد يكون مستحباً وليس واجباً، والاستدلال به على الوجوب مُخَالِفٌ للإجماع. وأجيب عن مواظبة النبي ﷺ بأنه ﷺ واظب على أشياء كثيرة من أفعال الصلاة ليست بواجبة، كتكبيرات الانتقالات، والتسبيحات فكان التعوذ مثلها.

الثالث: وهو قول الإمام مالك رضي الله عنه لا يتعوذ في المكتوبة، ويتعوذ في النوافل وقيام شهر رمضان. وهو بذلك يجمع بين القولين.(٢)

ثانياً: محل الاستعاذة من القراءة:

ذهب الجمهور إلى أنَّ الاستعاذة تكون قبل القراءة واستدلوا على ذلك:(٣)

أ_ بما روي عن جبير بن مطعم: أنَّه ﷺ كان يقول قبل القراءة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم."(٤) فقد ثبت عن النبي ﷺ الاستعاذة قبل القراءة، والذين نقلوا صلاة رسول الله ﷺ ذكروا تعوُّذه بعد الافتتاح قبل القراءة

ب . أنَّ الاستعاذة قبل القراءة لنفي وساوس الشيطان عند القراءة، قال الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي

---

(١) المحلى، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (٤٥٦هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الفكر، دمشق، د.ط.، د.ت.، ج٣/ ٢٥٠.

(٢) انظر: التهذيب في اختصار المدوَّنة، لأبي سعيد خلف بن أبي القاسم القيرواني البراذعي، تحقيق: أبو الحسن أحمد فريد المزيد، ج١/ ٨٨.

(٣) انظر: المبسوط، للإمام محمد بن الحسن الشيباني (١٨٩هـ)، تحقيق: أبو الوفا الأفغاني، نشر إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي، د.ط.، د.ت.، ج١/ ١٠، والمجموع، ج٣/ ٣٢٥.

(٤) تقدَّم تخريجه في صحيح ابن حبان في كتاب الصلاة، رقم (١٧٨٠)، ج٥/ ٨٠.

أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ) [سورة الحج:٥٢] فإنما أمر الله بتقديم الاستعاذة قبل القراءة لهذه العلة.

ج ـ ما روى عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: "وكان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة بالليل كبَّر ثم يقول: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك، ثم يقول: الله أكبر كبيراً، ثم يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزة ونفخه ونفثه"[١] والحديث صريح بأنَّ التعوذ بعد دعاء الاستفتاح.

ونُقِلَ عن أبي هريرة وابن سيرين والنخعي أنَّ التعوذ يكون بعد الفراغ من القراءة، واستدلُّوا بظاهر الآية (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ) [سورة النحل:٩٨] إذ قالوا: إنَّ الفاء للتعقيب، كقوله تعالى: (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا) [سورة النساء:١٠٣]

وقد ردَّ العلماء هذا القول، وقالوا: إنَّ الفاء ليست للتعقيب، بل لبيان الحال، كما يقال: إذا دخلت على السلطان فتأهب، وإذا أكلت فسم الله، أي: إذا أردت الدخول، وإذا أردت الأكل. ومنه قوله تعالى: (إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ) [سورة المائدة:٦] أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة، وكذلك قوله: (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ) معناه: إذا قرأت فقدم الاستعاذة قبل القراءة، أي: إذا أردت القراءة فاستعذ.

ثالثاً: الجهر والإسرار بالتعوذ:

ذهب جمهور الفقهاء إلى أنَّ المصلّي - إماماً كان أو منفرداً - يتعوذ في الصلاة سرَّاً وإن كانت الصلاة جهرية؛ إلحاقاً للتعوذ بما قبله من دعاء الاستفتاح للمشابهة بينهما في كون كل منهما نافلة.[٢]

---

(١) تقدَّم تخريجه في سنن الترمذي في كتاب أبواب الصلاة، رقم (٢٤٢)، ج٢/ ٩.

(٢) انظر: بدائع الصنائع، ج٢٠٣/١، والمجموع، ج٣/ ٣٢٦، والروض المربع شرح زاد المستقنع، لمنصور بن يونس بن إدريس =

وذهب الشافعي إلى تخيير المصلي، فقال: "وأيهما فعل الرجل أجزأه إن جهر أو أخفى"[1]؛ لما روي من فعل الصحابة، إذ روي الجهر بالتعوُّذ في صفة صلاة أبي هريرة ﷺ، وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّه كان يسرُّ بالتعوذ.

رابعاً: التعوّذ في الركعة الأولى، وفي جميع الركعات.

في هذه المسألة خلاف بين الفقهاء، على مذهبين:

الأول: أنَّ التعوذ عند افتتاح الصلاة خاصة، وأنَّها تختص بالركعة الأولى فقط، وإليه ذهب الجمهور، ودليلهم: ما رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ إذا نهض من الركعة الثانية استفتح القراءة بالحمد لله رب العالمين."[2] وهذا يدل على عدم مشروعية التعوذ في الركعة الثانية؛ لأنَّ النبي ﷺ لم يكن يستفتح ولا يستعيذ، ولأنَّ الصلاة جملة واحدة فالقراءة فيها كلها كالقراءة الواحدة. فتكون الاستعاذة قبل القراءة مختصة بالركعة الأول.[3]

الثاني: يستعيذ في كل ركعة، وإليه ذهب الشافعيَّة ودليلهم: قول الله سبحانه: (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) [سورة النحل:٩٨] فيقتضي ذلك تكرير الاستعاذة عند تكرير القراءة، ولأنَّ الاستعاذة مشروعة للقراءة، فتكرر بتكررها، ولأنَّ عزيمة الإنسان قد تفتر بسبب وسوسة الشيطان في أثنائها، فتستحسن إعادة الاستعاذة في كل ركعة.[4]

البهوتي (١٠٥١هـ)، مكتبة الرياض، ط/ ١٣٩٠هـ، ج١/ ١٧١.

(١) الأم، للإمام أبي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي (٢٠٤هـ) مع مختصر المزني، دار الفكر، دمشق، ط٢/١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ج١/ ١٢٩.

(٢) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، رقم (٥٩٩)، ج١/ ٤١٩.

(٣) انظر: الاختيار لتعليل المختار، لأبي الفضل عبد الله بن محمود بن مودود الموصلي الحنفي (٦٨٣هـ)، تحقيق: عبد اللطيف محمد عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣/١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.، ج١/ ٥٧، والمبدع في شرح المقنع، لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن مفلح الحنبلي (٨٨٤هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت، د.ط./١٤٠٠هـ، ج١/ ٤٦١.

(٤) انظر: الحاوي الكبير، للعلَّامة أبي الحسن الماوردي (٤٥٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١٤هـ-١٩٩٤م، ج٢/ ١٠٣.

خامساً: إعادة التعوُّذ إذا قطع القراءة: إن قطعها قطع ترك، ونيته ألا يعود إليها، أعاد التعوذ إذا رجع إليها، وإن قطعها لعذر من سؤال أو كلام يتعلق بالقراءة لم يعد التعوذ لأنها قراءة واحدة، ولأنه قطع القراءة بعذر عازما على إتمامها إذا زال عذره، لذا يكفيه التعوذ الأول. أما إذا كان الكلام أجنبياً أو طويلاً فإنه يعيد التعوذ. وإن تركها قبل القراءة فيأتي بها ثم يقرأ؛ لأنَّ وقتها قبل القراءة للاستحباب فلا يسقط بتركه؛ ولأنَّ المعنى يقتضي ذلك.[1]

جامعة حلب ١٩٥٨ UNIVERSITY OF ALEPPO

(١) انظر: المجموع، ج٢/ ١٩٠.

تفسير البسملة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة اصطلاح يطلق اختصاراً لجملة (باسم الله) على طريقة النحت،[1] يقال: بسمل، إذا قال: بسم الله، ثم شاع في قول: "بسم الله الرحمن الرحيم"

وقد أطبق العلماء والمسلمون جميعاً على أنَّ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) جملة قرآنية، وهي جزء آية من قوله تعالى: (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ، إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [سورة النمل:٢٩ - ٣٠]

وحصل الإجماع على كتابة البسملة في المصحف عند افتتاح كل سورة إلا سورة براءة، مع الاتفاق على تجريد المصحف عن كل ما ليس بقرآن.

لكن العلماء اختلفوا في كون البسملة آية من أوائل جميع السور غير سورة التوبة، أو كونها آية من بعض السور، وهذه المسألة سيأتي بيانها لاحقاً.

المفردات والمعاني:

بسم: الباء حرف جر، وحرف الجرّ يتعلق بفعل محذوف يدلُّ عليه الشيء الذي وقعت عند التسمية، فإذا كان قراءةً فالتقدير (باسم الله أقرأ)، وإذا كان قياماً فالتقدير (باسم الله أقوم) ..إلخ.

وحُذِفَ متعلق المجرور في (بِسْمِ اللَّهِ)؛ للإيجاز، والاستغناء عن ذكره بدلالة الحال عليه، وليشمل كل ما يصلح أن يقصد شرعاً من الأفعال، وتقديره هنا

---

(١) النحت: أن يُختصَر من كلمتين فأكثر كلمةٌ واحدة؛ اختصاراً عن ذكر الجملة كلها، نحو: سبحل، وهلل، وحوقل. انظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ)، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٩٩٨م، ج١/ ٣٧٢.

أقرأ؛ لدلالة الحال على أنَّ الفعل المشروع فيه المبدوء بالبسملة هنا، هو القراءة.

وتقدير الفعل (أقرأ) أولى من تقدير (أبدأ)؛ لاقتضائه اقتصار التبرك على البداية فقط، وهذا خلاف المقصود؛ إذ إنَّ المقصود هو شمول البركة للكل.

والأولى تقدير الفعل المحذوف بعد الجار والمجرور، بأن يكون التقدير: (باسم الله أقرأ)، وليس (أقرأ باسم الله)؛ للاعتناء بالمقدَّم وهو اسم الله، وإفادة التعظيم، والقصد إلى التخصيص، أي: لا أتبرك إلا باسم الله.(١)

معاني الباء: ذكر المفسِّرون للباء معانٍ متعددة، منها: المصاحبة، والاستعانة، والإلصاق والقسم والسبب والحال والنقل والتعدية،(٢) وأرجحها معنيان:

الأول: المصاحبة أو الملابسة: والمقصود هو التبرُّك، والمعنى: أقدِّم العمل المنوي القيام به ملابساً ومصاحباً ومباركاً باسم الله. كما في قوله تعالى: (تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ) [سورة المؤمنون: ٢٠]، أي مصاحباً له.

وهذا المعنى هو أشهر معاني الباء، وهو اختيار الزمخشري، لأنَّ التبرك باسم الله تعالى تعظيم لله سبحانه، وردٌّ على الذين يعظمون الآلهة بذكر اسمها قبل الشروع بعملٍ ما، ولأنَّ الباء إذا حملت على المصاحبة كانت أدل على ملابسة جميع أجزاء الفعل لاسم الله تعالى منها.(٣)

الثاني: الاستعانة: والمقصود هنا هو الدعاء، والمعنى: طلب المعونة من الله لتوفيق العبد لإتمام العمل المنوي القيام به.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي (٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط.، د.ت.، ج١/٩.

(٢) انظر: البحر المحيط، للعلَّامة محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، (٧٤٥هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ج١/ ١٢٣.

(٣) انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم الزمخشري (٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج١/٤٨.

ورجَّح الآلوسي هذا المعنى، لما فيه من الأدب والاستكانة وإظهار العبودية، ولأنَّ فيها تلميحاً إلى إسقاط الحول والقوة، ونفي استقلال قدرة العبد وتأثيرها، ولأنَّ هذا المعنى أليق بقوله تعالى: "وإياك نستعين"[1]

الاسم: لفظ دالٌّ على ذات حسية أو معنوية بشخصها أو نوعها.

وقال البصريون: إنَّه مشتقٌ من **السمو** وهو الرفعة؛ لأنَّ الاسم رفعٌ للمسمى وتنويه به، والرفعة تتحقق في إطلاقات الاسم، فإنَّ أصله هو العلم، والأعلام لا توضع إلا لشيء مهتم به بحسب الغالب. وأصل صيغته من الناقص الواوي، وحجَّتهم: أنه يجمَع على أسماء بوزن أفعال، فظهرت في آخره همزة وهي منقلبة عن الواو المتطرفة إثر ألف الجمع، وبأنَّه صُغِّرَ على سُمَي، وأنَّ الفعل منه (سَمَّيْتُ).

وذهب الكوفيون إلى أنَّ أصله **وِسْمٌ** بكسر الواو؛ لأنه من السمة وهي العلامة، حذفت الواو وعوضت منها همزة الوصل ليقلَّ إعلالها، وحجَّتهم أنَّ الاسم جعِلَ علامةً على الشيء الموسوم؛ يعرف به.[2]

والأرجح اشتقاقه من (سمو)؛ لأنَّ التصغير والجمع يردَّان الأشياء إلى أصولها، وتصغير الاسم (سُمَيٌّ) وليس (وُسَيمٌ)، وجمعه (أسماء)، وليس (أوسام).

وأوثِر في البسملة تقديم لفظ (اسم) مضافاً إلى علم الجلالة، إذ قيل: بسم الله، ولم يقل بالله؛ للتفريق بين اليمين والتَّيمن؛ إذ ليس المقصود هنا القَسَم بذات الله، بل المقصود هو: طلب البركة في الفعل المشروع فيه، وكل مقام يقصد فيه التيمن يعدى فيه الفعل إلى لفظ اسم الله،[3] كقوله تعالى: (وَقَالَ

---

(١) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي (١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط.، د.ت.، ج١/٤٧.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، ج١/٩، والتحرير والتنوير، للشيخ الطاهر ابن عاشور (١٣٩٣هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١/١٤٢٠هـ-٢٠٠م، ج١/١٤٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج١/ ١٤٧ –١٤٨.

ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) [سورة هود: ٤١]، وقول النبي ﷺ: "باسمك ربي وضعت جنبي"[١]

الله: اختلف اللغويين في مسألة اشتقاقه:

فقال بعض اللغويين: أصله الإله، حذفت همزته وعوّض عنها الألف واللام، ليمتاز الاسم الجليل بذلك عما سواه.

والإله: اسم جنس يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بالحق، أما (الله) فعلم مختص بالمعبود بالحق. وهواسم بمعنى المألوه.

وقيل: اشتقاقه من (أَلِهَ) بمعنى تحيَّر؛ لأنَّه ﷻ تحار في شأنه العقول والأفهام.

وقيل: اشتقاقه من أَلَه إلى فلان: أي سكن إليه؛ لاطمئنان القلوب بذكره تعالى، وسكون الأرواح إلى معرفته.

وقيل: هو اسم غير مشتقٍّ، علم للذات الجليل ابتداءً،[٢] وهو الأرجح، لاختصاص الاسم الجليل بذاته سبحانه، إذ لا يسمى به غيره.[٣]

الرحمن الرحيم: صفتان مشتقتان من الرحمة لقصد المبالغة، والرحمة في اللغة: رقة القلب والانعطاف، ومنه الرحم؛ لانعطافها على ما فيها، وهذا المعنى غير مراد هنا، بل المراد لازمه، وهو: التفضل والإحسان، فإنَّ أسماء الله تعالى تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال، وليس باعتبار المبادئ التي هي

---

(١) انظر: صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي (٢٥٦هـ)، تح: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، واليمامة، بيروت، ط٣/١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م، كتاب الدعوات، باب التعوذ والقراءة عند النوم، رقم (٥٩٦١)، ج٥/ ٢٣٢٩.

(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ)، دار القلم، دمشق، ج١/ ٣٨.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود، ج١/١٠.

انفعالات.[1]

والرحمن أبلغ من الرحيم، لأنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، والرحمن وصف اختصَّ به الله تعالى، إذ لم يطلق على غيره سبحانه، ووصف الرحيم قد يوصف به من العباد من كان كثير الرحمة.

وقد قدَّم في البسملة اسم الجلالة (الله) لأنَّ شأن العرب إذا أرادوا الخبر عن مُخبَر عنه، أن يقدِّموا اسمه، ثم يتبعوه صفاتِه ونعوتَه، ولأنَّ الاسم الجليل (الله) هو الاسم الذي اختص به سبحانه من جهة المعنى والتسمِّي، إذ الألوهية الحقُّ ليست لغيره سبحانه.[2]

وقدَّم الرحمن على الرحيم؛ لأنَّ هذا الوصف لما كان مختصّاً بالله سبحانه صار حقيقاً بأن يذكر بعد الاسم الجليل الخاص به تعالى.[3]

والحكمة من اختيار (الرحمن الرحيم) في البسملة من بين الأسماء الحسنى والصفات العُليا هي أنَّ البسملة هي أكثر العبارات تردُّداً على ألسنة العباد، فكأنَّ الرحمة جُعِلت تاج الصفات، ليُعرَف اللهُ عند عباده بصفة الرحمة، فيتقرَّبوا إليه حباً له، وطمعاً بما عنده من الرحمات التي لا تُحصى أنواعها.

المعنى الإجمالي للبسملة: مستعينًا بالله المعبود بحق، أبدأ عملي وتلاوتي، ومتبركًا بذكر اسمه أفتتح أعمالي كلها، طالباً من الله أن يمدَّني برحمته الواسعة.

أحكام تتعلق بالبسملة.

أولاً: اختلف العلماء في كون البسملة آية من أوائل جميع السور غير براءة، أو آية من بعض السور، مع الاتفاق على أنَّ عبارة (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) عبارة قرآنية. ويمكن تصنيف مذاهب العلماء في قرآنية البسملة على ثلاثة مذاهب:

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، ج١/١١.

(٢) انظر: تفسير الطبري، ج١/١٣٢.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود، ج١/١١.

المذهب الأول: البسملة ليست آية من القرآن إلا في سورة النمل، فإنها جزء من آية، وهو مذهب المالكيَّة. ويترتب عليه: كراهة قراءتها بالصلاة المفروضة قبل الفاتحة أو سورة بعدها، وجواز قراءتها في الصلاة النافلة.[١]

المذهب الثاني: البسملة ليست آية من أول سورة الفاتحة وليست آية من أوَّل كل سورة، بل هي آية مستقلَّة، أنزلت للفصل بين السور، وذكرت أول الفاتحة، وهذا مذهب الحنفية،[٢] والأصح عند الحنابلة.[٣] ويترتَّب عليه: قراءة البسملة سرَّاً في الصلاة الجهرية، ولا تبطل الصلاة بترك قراءتها.

المذهب الثالث: البسملة آية كاملة من الفاتحة ومن أوَّل كل سورة عدا براءة، وهو مذهب الشافعية. ويترتَّب عليه: وجوب قراءتها في الصلاة مع سورة الفاتحة، والجهر بها في الصلاة الجهريَّة، وبطلان صلاة من تركها.[٤]

أدلَّة الجمهور: استدلَّ الجمهور على أنَّ البسملة ليست آية من أوائل السور بـ:

أ_ ما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "قال الله عز وجل: قسمت الصلاة نصفين بيني وبين عبدي فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، يقول العبد (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، فأقول حمدني عبدي، فإذا قال العبد: (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) يقول الله: أثنى علي عبدي، وإذا قال العبد: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، قال الله: مجَّدني عبدي، وإذا قال: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، قال الله: هذا بيني وبين عبدي، وإذا قال: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا

---

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لأبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الأندلسي الشهير بابن رشد الحفيد (٥٩٥ هـ)، تحقيق: خالد العطار، دار الفكر، بيروت، د.ط.، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، ج١/ ١٠٢.

(٢) حاشية رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار في فقه مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، للمحقق محمد أمين الشهير بابن عابدين (١٢٥٢هـ)، طبعة بولاق، سنة ١٢٧٢هـ، ج١/٣٣٠.

(٣) انظر: مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، منشورات المكتب الإسلامي، ط١/ ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م، ج١/ ٤٢٧ –٤٢٨.

(٤) انظر: الحاوي الكبير، ج٢/ ١٤٩.

الضَّالِّينَ)، قال الله هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل."[1]

فالبدء بقوله: (الحمد لله رب العالمين)، دليل على أنَّ البسملة ليست آية من أول الفاتحة؛ إذ لو كانت آية من الفاتحة لبدأ بها.

ب _ وما رواه أيضاً عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبيروالقراءة بالحمد لله رب العالمين).[2]

ج _ ما رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: "صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها"[3]

د_ حديث بدء نزول الوحي مشهور بنزول (اقرأ) من غير بسملة.

واستدل **الحنفيَّة** على أنَّ البسملة آية مستقلة أنزلت للفصل بين السور بحديث ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لاَ يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْهِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)[4]

أدلَّة الشافعية:

أ _ حديث السيدة أم سلمة رضي الله عنها أنها ذكرت قراءة رسول الله ﷺ: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) يَقْطَعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً.[5] وعدَّت البسملة آية.

ب _ الإجماع على أن ما بين دفتي المصحف هو كلام الله، وإثبات كتابتها في المصاحف أول كل سورة، مع المبالغة في تجريد القرآن عن كل ما ليس منه.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، (٣٩٥)، ج١/ ٢٩٦.

(٢) المرجع السابق، كتاب الصلاة، باب ما يجمع صفة الصلاة وما يفتتح به ويختم به، رقم (٤٩٨)، ج١/ ٣٥٧.

(٣) المرجع السابق، كتاب الصلاة، باب حجة من قال لا يجهر بالبسملة، (٣٩٩)، ج١/ ٢٩٩.

(٤) سنن أبي داود، للحافظ سليمان بن الأشعث أبي داود السجستاني الأزدي (٢٧٥ هـ)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، كتاب الصلاة، باب مَنْ جَهَرَ بِهَا، رقم (٧٨٨)، ج١/ ٢٦٩.

(٥) المرجع السابق، كتاب الحروف والقراءات، رقم (٤٠٠١)، ج٢/ ٤٣٣.

ثانياً: حكم البسملة، ومواطن مشروعيتها:

تندب البسملة عند الشروع في كل أمر محمود من أمور الدين والدنيا، كالوضوء والصلاة وقراءة القرآن، ودخول المسجد، وعند دخول المنزل، والخروج منه، وعند ركوب السيارة، وعند إرادة النوم، ولتسكين الآلام والأوجاع. وقد ورد في السنَّة أدعية خاصَّة بتلك المواطن جميعها مبدوءة بذكر البسملة.[١]

وتندب أيضاً قبل الشروع في الأكل، فقد أخرج البخاري عن عمر بن أبي سلمى ﷺ أنه قال: "كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة فقال لي رسول الله ﷺ: (يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك)[٢]

وتُندَب البسملة أيضاً في افتتاح الكتُب والرسائل، فقد كان النبي ﷺ يفتتح كتبه إلى الملوك بـ(بسم الله الرحمن الرحيم).[٣]

ويندب الاقتصار على لفظ (بسم الله) من غير زيادة في المواضع التي ثبت فيها القصر بفعل النبي ﷺ، والتكميل بما ثبت عن النبي ﷺ، ومنها:

ما ورد في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ قال: (أما إن أحدكم إذا أتى أهله وقال: بِسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَرُزِقَا وَلَدًا لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ)[٤]

وحديث جابر بن عبد الله ﷺ، قال: "شهدت مع رسول الله ﷺ الأَضْحَى بِالْمُصَلَّى فَلَمَّا قَضَى خُطْبَتَهُ نَزَلَ مِنْ مِنْبَرِهِ وَأُتِيَ بِكَبْشٍ فَذَبَحَهُ رسول الله ﷺ بيده وقال: (بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ)[٥]

---

(١) راجع: حول تفسير سورة الفاتحة، الشيخ عبد الله سراج الدِّين، مكتبة دار الفلاح، حلب، ط١/ ١٤١٢هـ –١٩٩١م، ص ٣٧ –٤٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، رقم (٥٠٦١)، ج٥/ ٢٠٥٦.

(٣) انظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم (١٧٧٣)، ج٣/ ١٣٩٣.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب التسمية على كل حال وعند الوقاع، (١٤١)، ج١/ ٦٥.

(٥) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الشاة يضحى بها عن جماعة، (٢٨١٠)، ج٢/ ١٠٨.

وتدل مشروعية قراءة البسملة عند البدء في كل أمر محمود أو مباح من أمور الدين والدنيا على أنَّ الأصل في معاملة الله مع العباد هو الرحمة، يقول الرازي: "لما كانت سورة التوبة مشتملة على الأمر بالقتال لم يكتب في أولها بسم الله الرحمن الرحيم، وأيضاً السنة أن يقال عند الذبح: (باسم الله والله أكبر) ولا يقال: (بسم الله الرحمن الرحيم)، لأنَّ وقت القتال والقتل لا يليق به ذكر الرحمن الرحيم، فلما وفقك لذكر هذه الكلمة في كل يوم سبع عشرة مرة في الصلوات المفروضة، دل ذلك على أنه ما خلقك للقتل والعذاب وإنما خلقك للرحمة والفضل والإحسان."[1]

جامعة حلب ١٩٥٨ UNIVERSITY OF ALEPPO

(١) مفاتيح الغيب، ج١/١٤٤.

جامعة
حلب
١٩٥٨
UNIVERSITY
OF
ALEPPO

تفسير سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ.

تعريفٌ عامٌّ بسورة الفاتحة:

سورة الفاتحة مكيَّة بالاتفاق، لقوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيم) [سورة الحجر:٨٧]. وهذه الآية مكيَّة بالاتفاق، وقد امتن الله فيها على رسوله ﷺ بالفاتحة، بها فدل على تقدُّم نزول الفاتحة عليها؛ إذ يبعد أن يمتن الله علي نبيه ﷺ بما لم ينزل بعد، فعُلم أنَّ نزولهَا متقدمٌ على نزول سورة الحِجْر، ولأنَّ الصَّلاةَ فُرضت بمكَّة، ولم يُنقل أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى بغير الفاتحة، فدلَّ على أنَّ نزولهَا كان بمكَّةَ.(١)

وقال بعض العلماء: سورة الفاتحة هي أول سورة نزلت، والتحقيق أنها أول سورة أنزلت كاملةً غير منجمة.

وقد اختلف العلماء في ترتيب نزول سورة الفاتحة:

أ _ فقال بعضهم سورة الفاتحة هي السورة الثالثة في ترتيب النزول، حيث نزل خمس آيات من أوَّلِ سورة (اقرأ باسم ربك) ثمَّ خمس آياتٍ من أول

(١) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للعلَّامة المفسر أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ج١/ ٥٨، والإتقان في علوم القرآن، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د. ط./١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، ج١/ ٤٦.

سورة المدثر، ثم نزلت الفاتحة كاملة وذلك عند فرض الصلاة. وهو ما رجحه الشيخ عبد الله سراج الدين في كتابه (حول تفسير سورة الفاتحة)[١]

وقال آخرون: هي الخامسة في ترتيب النزول؛ إذ أُنزِلَ أول سورة اقرأ، ثم أول سورة القلم، ثم أول سورة المزمّل، ثم أول المدثر، ثم أنزل سورة الفاتحة كاملةً.[٢]

عدد آياتها: سبع آيات بالاتفاق. وقد اختلف القراء في كون البسملة آية من الفاتحة، وترتَّب عليه اختلافهم في ضبط الآيات السبعة على مذهبين:

الأول: لا تعد البسملة آية، وتعدُّ (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) الآية السادسة، وقوله: (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ) هي الآية السابعة.

الثاني: تعد البسملة آية، وقوله: (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ) الآية السابعة في السورة.[٣]

أسماء سورة الفاتحة، ووجوه تسميتها:

تعدَّدت أسماء سورة الفاتحة، لتعدد جوانب خصوصيتها وفضلها، وقال السيوطي: "وقفت لها على نيف وعشرين اسماً، وذلك يدلُّ على شرفها؛ فإنَّ كثرة الأسماء دالَّة على شرف المُسمَى"[٤]

ومما ثبت في السنة الصحيحة من أسمائها: فاتحة الكتاب، والسبع المثاني، وأم القرآن، أو أم الكتاب، وسورة الصلاة.

فأما تسميتها **فاتحة الكتاب** فقد ثبت في السنة في أحاديث كثيرة منها قول

---

(١) انظر: حول تفسير سورة الفاتحة، ص ٧.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن، ج١/٢٠٧، والإتقان، ج١/٩٦.

(٣) انظر: روح المعاني، ج١/ ٤١.

(٤) الإتقان، ج١/ ١٨٧. وانظر: ما ذكره في وجوه تسميتها، ج١/ ١٨٨ –١٩١.

النبي ﷺ: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب"[1] وفاتحة مشتقة من الفتح، والفتح يطلقُ مجازاً على أول الشيء، تشبيهاً للأول بالفاتح؛ لأنَّ الفاتح للباب هو أول من يدخل.

ووجه التسمية بالفاتحة، أنها جعلت أول ما كتِب في القرآن خطّاً، وأول ما يُقرأ من القرآن لمن يريد أن يقرأ القرآن من أوله بحسب ترتيب السور.

وأما تسميتها **أم القرآن وأم الكتاب** فقد ثبتت في صحيح البخاري: أنَّ أبا سعيد الخدري رضي الله عنه رقى ملدوغاً، "فجعل يقرأ بأم القرآن "[2]

ووجه تسميتها **أم القرآن**:

١ _ أنَّ الأم يطلق على أصل الشيء ومنشئه، والفاتحة هي مبدأ القرآن، فكأنها أصله ومنشؤه، لأنه لما كان افتتاح أول أجزاء القرآن قد ظهر فيها، جعلت كالأم للولد في أنها الأصل من حيث ابتداء الظهور.

٢ _ لأنَّها تشتمل على مقاصد القرآن الأساسية، وهي:

أ _ الثناء على الله ثناء جامعاً لجميع المحامد وتنزيهه عن جميع النقائص.

ب _ إثبات تفرد الله سبحانه بالإلهية، وإثبات البعث والجزاء

ج _ الأحكام التكليفية والشرعيَّة: في قوله (إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

د _ الوعد والوعيد في قوله: (أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ)

فهذه مقاصد القرآن الأصلية، وغيرها فرع عنها؛ لأنَّ القصد من نزول القرآن هو تحقيق صلاح الدارين، وذلك يحصل بالأوامر والنواهي، والأوامر والنواهي تتوقَّف على معرفة الآمر، وهو الله، ولما توقف تمام الامتثال على الرجاء

---

(١) صحيح البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر، رقم (٧٢٣)، ج١/ ٢٦٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الرقى بفاتحة الكتاب، رقم (٥٤٠٤)، ج٥/ ٢١٦٦.

في الثواب والخوف من العقاب لزم تحقق الوعد والوعيد، والفاتحة مشتملة على هذه الأنواع.

٣ ـ أنَّ معانيها تشتمل على مجمل الحكم النظرية والأحكام العملية، فإنَّ معاني القرآن إما علوم تقصد معرفتها كالتوحيد والصفات، وإما أحكام يقصد منها العمل بها، كالعبادات والمعاملات، وتهذيب الأخلاق وآداب الشريعة. ولذلك فرضت قراءة الفاتحة في كل ركعة؛ حرصاً على التذكير بما في مضمونها.(١)

وأما تسميتها **السبع المثاني** فقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد ابن المعلَّى ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.(٢)

ووجه تسميتها بذلك: أنَّها سبع آيات باتفاق القراء.

وأمَّا وصفها بالمثاني فهو مشتق من التثنية (ضم ثان إلى أول)، ووجه الوصف به:

أ ـ أنَّ تلك الآيات تثنى في كل ركعة، أي: تضم إليها سورةٌ أخرى في كل ركعة، ولعل التسمية بذلك كانت في أول فرض الصلاة، فإنَّ الصلوات فرضت ركعتين ثم أقرت صلاة السفر وأطيلت صلاة الحضر.

ب ـ وقيل: لأنها تثنى في الصلاة أي تكرر، فتكون التثنية بمعنى التكرير، نحو: (ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ) [سورة الملك: ٤].

ج ـ وقيل: سميت المثاني؛ لأنها ثنيت في النزول فنزلت مرة بمكة حين فرضت الصلاة، وبالمدينة أخرى حين حُوِّلت القبلة.(٣)

وسميت **سورة الصلاة**؛ لحديث: "قسمت الصلاة نصفين بيني وبين

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، ج١/ ٨، والتحرير والتنوير، ج١/ ١٣١ –١٣٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة فاتحة الكتاب، رقم (٤٢٠٤)، ج٤/ ١٦٢٣.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود، ج١/ ٨.

عبدي، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، يقول العبد: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ...إلخ. فقد أطلق على الفاتحة في هذا الحديث اسم (الصلاة).

فضائل سورة الفاتحة:

ورد في فضل سورة الفاتحة أحاديث صحيحة، منها:

١ ـ عن أبي سعيد بن المعلَّى ﷺ قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي فقال: (ألم يقل الله: (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) . ثم قال لي: لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد. ثم أخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن. قال: (الحمد لله رب العالمين) هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.(١)

٢ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل، إذ سمع نقيضا فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فُتِح قَط. قال: فنزل منه مَلَك، فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته."(٢)

٣ ـ عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: "والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته."(٣)

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة فاتحة الكتاب، رقم (٤٢٠٤)، ج٤/ ١٦٢٣.

(٢) السنن الكبرى، للإمام أحمد بن شعيب أبي عبد الرحمن النسائي (٣٠٣هـ)، تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١١هـ-١٩٩١م، كتاب افتتاح الصلاة، باب فضل فاتحة الكتاب، رقم (٩٨٤)، ج١/ ٣١٧.

(٣) سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب فضل فاتحة الكتاب، رقم (٢٨٧٥)، ج٥/ ١٥٥. قال أبو عيسى هذا حديث =

٤ _ ومن خواص سورة الفاتحة الاستشفاء بها، وقد عقد البخاري باباً في الرقي بفاتحة الكتاب، وثبتت الرقية بها في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: (أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَتَوْا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَلَمْ يَقْرُوهُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ لُدِغَ سَيِّدُ أُولَئِكَ، فَقَالُوا: هَل مَعَكُمْ مِنْ دَوَاءٍ أَوْ رَاقٍ؟ فَقَالُوا: إِنَّكُمْ لَمْ تَقْرُونَا، وَلاَ نَفْعَل حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلاً، فَجَعَلُوا لَهُمْ قَطِيعًا مِنَ الشَّاءِ، فَجَعَل يَقْرَأُ بِأُمِّ الْقُرْآنِ، وَيَجْمَعُ بُزَاقَهُ وَيَتْفِل فَبَرَأَ، فَأَتَوْا بِالشَّاءِ فَقَالُوا: لاَ نَأْخُذُهُ حَتَّى نَسْأَل النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلُوهُ، فَضَحِكَ وَقَال: وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ خُذُوهَا، وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ)[١]

وأخرج الدارمي حديث رسول الله ﷺ: "فاتحة الكتاب شفاء من كل داء"[٢]

مقاصد سورة الفاتحة:

اشتملت موضوعات سورة الفاتحة على أنواع مقاصد القرآن كلها، لأنها من القرآن بمنزلة المقدِّمة له، ولأنها أمُّ القرآن، وهي:

١ _ الثناء على الله ثناء جامعاً لوصفه بجميع المحامد وتنزيهه عن جميع النقائص، وذلك من قوله: (الحمد للَّه) إلى قوله: (مالك يوم الدين)

٢ _ إثبات البعث والجزاء في قوله: (مالك يوم الدين)

٣ _ الأوامر والنواهي، والإشارة إلى الأحكام العمليَّة والمعاملات في قوله: (إياك نعبد) والعبادة: طاعة الله بفعل ما يأمر به، وترك ما ينهى عنه.

٤ – الاستعانة بالله تعالى في جميع الشؤون، فالعبد مفتقر إلى الله ربّه لتدبير جميع أموره، إذ لا استقلال لأحد عن الله ولا غنى بأحد عن الله، لأنَّ

حسن صحيح.

(١) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الرقي بفاتحة الكتاب، رقم (٥٤٠٤)، ج٥/٢١٦٦.

(٢) سنن الدارمي، للحافظ أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١/ ١٤٠٧هـ، كتاب فضائل القرآن، باب فضل فاتحة الكتاب، رقم (٣٣٧٠)، ج٢/٥٣٨.

الضعف صفةٌ ملازمةٌ للبشر، والقدرة المطلقة صفة كمال لله.

٥ _ الوعد والوعيد والإشارة إلى قصص الأمم السابقة في القرآن في قوله: (الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)(١)

معاني المفردات:

الْحَمْدُ: الثناء باللسان على الجميل الاختياري بقصد الإجلال والتعظيم.

للهِ: الله: علم على الذات العلية المقدسة، اختصَّ به سبحانه، ولم يتسمّ به غيره. ومعناه: المعبود بحق.

رَبِّ: الرب: المالك والسيد المعبود والمصلح والمدبر.

الْعالَمِينَ: جمع عالم، وهو كل موجود سوى اللّه، وهو أنواع، منها عالم الإنسان والحيوان والجن. والعالم: اسم جنس لا واحد له من لفظه، مثل رهط وقوم.

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ: صفتان للّه مشتقتان من الرحمة، والرَّحْمن اسم مختص باللّه عزّ وجلّ، ولا يجوز أن يسمى به غيره.

يَوْمِ الدِّينِ: يوم القيامة، والدين: يطلق على الاعتقاد، وما يلزم عنه من الأقوال الأفعال، (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) [سورة آل عمران: ١٩]. ويطلق على الحساب والجزاء على الأعمال، ومنه قوله تعالى: (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ) [سورة النور: ٢٥] أي جزاءهم الحقَّ من غير ظلم، وهذا المعنى هو المقصود هنا.

نَعْبُدُ: نطيع، والعبادة: الطاعة والخضوع والتذلل، ومنه طريق معبَّد أي: مذلل.

نَسْتَعِينُ: الاستعانة طلب العون. وهو: تيسير ما يعسر على المستعين أن يفعله وحده.

اهْدِنَا: ووفقنا، وأرشدنا. والهداية: الدلالة بلطف، وتختص بالدلالة على الخير.

الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ: الطريق المعتدل: طريق الإسلام الذي بعثت به أنبياءك

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج١/ ١٣١.

ورسلك، وختمت برسالاتهم رسالة خاتم النبيين، وهو جملة ما يوصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة من عقائد وأحكام وآداب وتشريع.

الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ: هم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون.

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم: الحائدين عن طريق الاستقامة، المُبعَدين عن رحمة اللّه، وهم الذين بلغهم الدين الحق الذي شرعه اللّه لعباده، فرفضوه ونبذوه، فعرَّضوا أنفسهم لأشد العقاب، لأنهم عرفوا الحقَّ وتركوه.

الضَّالِّينَ: أصل الضلال في اللغة: الهلاك، (وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) [سورة السجدة: ١٠]، أي: متنا وهلكنا. والمراد هنا: الانحراف عن الحقّ.

آمين: دعاء، أي تقبل منا واستجب دعاءنا، وهي ليست من القرآن، ويسن ختم الفاتحة بها، بعد سكتة على نون وَلَا الضَّالِّينَ ليتميز ما هو قرآن مما ليس بقرآن.

القراءات والإعراب:

رَبِّ الْعَالَمِينَ: بدل من اسم الجلالة.

مَالِكِ: نعت لاسم الجلالة. وقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة: (مَلِكِ) بغير ألف صفة مشبهة لصاحب المُلك. وقرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف (مَالِكِ) بالألف اسم فاعل.(١)

إِيَّاكَ: ضمير نصب منفصل، في محل نصب مفعول به مقدم للاختصاص. وأصل (نَسْتَعِينُ) نَسْتَعْوِن من العون، فنُقلت كسرةُ الواو إلى الساكن قبلها، فانكسر ما قبل الواو، فانقلبت ياءً، نحو: مِيعَاد ومِيزان.

اهدنا: الفعل (هدى) يتعدى إلى مفعوله، بعدة وجوه:

---

(١) النشر في القراءات العشر، ج١/ ٦٣، والمبسوط في القراءات العشر، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران الأصبهاني (٣٨١ هـ)، تحقيق: سبيع حمزة حاكمي، نشر مجمع اللغة العربية بدمشق، د.ط./١٤٠١هـ-١٩٨١م، ص ٨٦.

أ _ يتعدى الفعل (هَدَى) إلى مفعول واحد بنفسه، مثل: (اهدنا الصراط المستقيم)، أو إلى مفعولين بنفسه، (وهديناه النجدين) [سورة البلد: ١٠].

ب _ يتعدى إلى المفعول الثاني بـ(إلى)، نحو: (فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) [سورة الصافات: ٢٣]، أو باللام، نحو: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا) [سورة الأعراف: ٤٣].

الصِّرَاطَ: مفعول به ثانٍ منصوب بالفتحة.

صِرَاطَ: بدل كل من كل من (الصِّرَاطَ) منصوب، بدل معرفة من معرفة.

غيرِ: (غيرِ) إمَّا بدل من (الذين) على معنى أنَّ المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال.

أو صفة له مبينة على معنى أنهم جمعوا بين نعمة الإيمان وبين السلامة من الغضب والضلال.

ويصحُّ إعراب (غيرِ) صفةً بأحد تأويلين:

أ _ إجراء الموصول مجرى النكرة وإن كان لفظه لفظ المعرفة؛ لأنه لم يقصد به معهودٌ معيَّن، نحو: إنّي لَأمرُّ على الرجل مثلك فيكرمني.

ب _ جعل (غيرِ) معرفة بالإضافة، لأن (غَيْرِ) إذا أضيفت إلى ضد موصوفها وهو ضد واحد، أي: إلى مساوي نقيضه، تعينت له الغيرية فصارت صفة ثابتة له غير منتقلة، إذ غيرية الشيء لنقيضه ثابتة له، فقولك: عليك بالحركة غير السكون، غير قولك: مررت بزيد غير عمرو، وقوله: (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) من النوع الأول.(١)

عليهم: في محل الرفع لأنه نائب مناب الفاعل لاسم المفعول (المغضوب).

ولا الضالين: لا مزيدة لتأكيد النفي في (غير)، فكأنه قال: لا المغضوب عليهم ولا

---

(١) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للإمام ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي البيضاوي (٦٨٥هـ)، دار الفكر، بيروت، د.ط.، د.ت، ج١/ ٧٣، والتحرير والتنوير، ج١/ ١٩٣.

الضالين، والضالِّين: اسم معطوف على (المغضوب).

آمين: ليست من القرآن، وهي اسم فعل أمر بمعنى استجب.(١)

الأساليب اللغويَّة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ: الحمد: الحمدُ: الثناءُ على الجميل الصادر عن الفاعل عن اختيار وقصد، سواءً أكان نعمةً متعديَّة إلى الحامد أم لا، يقال: حَمِدْتُ الرجل على ما أنعم به عليَّ وحَمِدْته على شجاعته، ويكون باللسان وحدَه؛ بخلافِ الشكر فإنه لا يكونُ إلاَّ نعمةً متعدِّيَةً إلى الشاكر، ويكون بالقلب واللسان والجوارح.(٢)

وبذلك نجد بين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه، لأن الحمد يكون على الصفات اللازمة والأفعال المتعدية، ويكون من أجل نعمة وصلت إليك أو إلى غيرك. أما الشكر فيختص بالإنعام المتعدِّي إلى الشاكر في مقابلةِ نعمة وصلت إليه فقط.

والشكر أعم من الحمد من حيث ما يقعان به، لأن الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، أما الحمد فيكون باللسان وحده.(٣)

وذهب الزمخشري إلى أنَّ المدح والحمد مترادفان، وهما الثناء على الجميل مطلقاً.(٤) وخالفه جمهور المفسرين، فقالوا: المدح أعم من الحمد من وجوه:

١ ـ أنَّ المدح يحصل للعاقل ولغير العاقل، إذ يُمدَح الرجل ويُحمدُ على

---

(١) انظر: التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (٦١٦هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، د.ط.، د.ت.، ج١/ ٥ -٨.

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأبي العباس أحمد بن يوسف بن عبد الدايم السمين الحلبي (٧٥٦هـ)، تحقيق: أحمد محمد الخرّاط، دارالقلم، دمشق، د.ط.، د.ت، ج١/٢٠.

(٣) انظر: مفردات الراغب، ج١/٢٦٣، وتفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٧٤هـ)، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر، دمشق، ط١٤١٤/٢هـ -١٩٩٤م، ج١/٣٢.

(٤) الكشاف، ج١/٥١.

شجاعته، وعلمه، ويُمدَح اللؤلؤ لجماله، ولا يُحمَدُ لحسن شكله، أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإنعام والإحسان.

٢ _ المدحُ يقال فيما يكونُ من الإنسان باختياره وبما يكونُ فيه بالتسخير، فقد يُمْدَحُ الإنسان لجمال وجههِ، كما يُمْدَحُ لشجاعتهِ وعلمهِ، أما الحمدُ فيكون في الجميل الاختياري غير الاضطراري.

٣ _ المدح يكون قبل الإحسان وبعده، ويشمل جميع أنواع الفضائل، أما الحمد فإنه لا يكون إلا بعد الإحسان، ويختص بفضيلة الإنعام.

وآثر (الحمد) على (المدح) لأنَّ المدح يحصل للفاعل المختار ويحصل لغيره، أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار، فكانت عبارة: (الحمد لله) تصريحاً بأن رب العوالم فاعل مختار خلق العالمين جميعاً بالقدرة والمشيئة.

وآثر (الحمد) على (الشكر) ولم يقل: الشكر لله:

أ _ لأن الحمد يكون باللسان، وهو أَدل على إجلال المنعم من الشكر، وأنفى لتهمة الجحود والكفران؛ نظراً لخفاء الاعتقاد في متعلَّق الشكر وهو القلب، وما يطرأ على أعمال الجوارح من الاحتمال.

ب _ ولأنَّ الشكر يكون في مقابلة إنعام وصل إليك، والثناء على الله عند وجدان النعمة يدل على أنه إنما أثنى عليه لأجل الفوز بتلك النعم، وذلك يعني أنَّ مقصود العبد من الشكر هو الفوز بتلك النعم، ومطلبه: وصول النعمة إليه، أما عبارة (الحمد لله) فهي أليق بالله من حيث أنه يجب أن يُحمَد؛ لكونه مستحقاً للحمد، لا لخصوص أنه أوصل النعمة إلى الحامد، فحضور الإخلاص في الحمد أكمل.[١]

ج _ ولأن الشكر يختصُّ بالإعطاء، والحمد يشمل المنع وهو غير متناهٍ.[٢]

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج١/١٨٦.

(٢) انظر: روح المعاني، ج١/٧١.

والتعريف بـ(ال) في الحمد، للجنس،[1] أي: للحقيقة من حيث هي، من غير قيد شيوعها، ومعناه: الإشارة إلى ما يَعْرِفه كل أحد أنَّ الحمد ما هو، وهي تدلُّ على استغراق الجنس من المحامد، فيشمل حمد الله لنفسه، وحمد كل حامدٍ من مخلوقاته، منذ الأزل إلى الأبد، وإليه ذهب جمهور المفسِّرين.[2]

واقتران الحمد باسم الجلالة (الله)، ثم بوصف الربوبية (ربِّ العالمين) يشعر بعلة استحقاقه تعالى وحده للحمد، أي أنه تعالى مستحق للحمد؛ لألوهيته الحقِّ، ولأنه رب العالمين، أي: منشؤهم ومبلغهم إلى كمالاتهم اللائقة بهم، وحافظهم حتى ينتهوا إلى غاياتهم.

ولام لله: للاستحقاق أو الاختصاص، أي: الحمدُ مختصٌّ بالله، ولا أحد يستحق الحمد المطلق المستغرق لجميع المحامد إلا الله سبحانه، وهو ما أفادته الجملة الاسمية، سواء أجعلت لام التعريف فيه للاستغراق كما قال الجمهور، أم للجنس كما قال الزمخشري.[3]

وجملة (الحمد لله) جملة خبرية لفظاً، إنشائية معنى، أي قولوا: الحمد للّه، وعدل إلى عن لفظ الإنشاء إلى الخبرية؛ لتحمل جملة الحمد من الخصوصيات ما يناسب جلالة المحمود بها من الدلالة على الدوام والثبات والاستغراق والاختصاص والاهتمام، وهذه المعاني لا يمكن حصولها بصيغة إنشاء نحو: حمداً لله، أو أحمد الله حمداً.[4]

الله: اسم علمٍ غير مشتقٍ دالٌّ على ذات الإله المعبود بحقٍّ، الواجب

---

(١) وهو رأي الزمخشري، انظر: الكشاف، ج١/ ٥٣.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ج١/٥٨، وتفسير القرطبي، ج١/١٣٣.

(٣) انظر: تفسير السراج المنير، للعلَّامة شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني (٩٧٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط.، د.ت.، ج١/١٤.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج١/١٥٩ – ١٦٠.

الوجود، المتَّصف بجميع الكمالات، المنزَّه عن جميع العيوب والآفات.[1]

وقال بعض اللغويين أصل هذا الاسم مشتق من الإله بمعنى المعبود، من أَلَه _ بفتح اللام _ بمعنى عبد، وهو يدلُّ على انفراده سبحانه بالألوهية، ويراد به المعبود بحقٍّ. فلما اختص الله الواحد بكونه واجب الوجود، اشتقَّ العرب من اسم الجنس المؤذن بمفهوم الألوهية عَلَماً؛ لاستحضار الذات الجليلة بوصف الألوهية.

وهذه الطريقة في العلمية لا نظير لها في الأعلام، ومسمى ذلك الاسم غير مماثل لمسميات أسماء الحوادث، والدليل على ذلك: تناسي ما في الألف واللام من التعريف، وجعلها جزءاً من الكلمة، إذ يكون نداء اسم الجلالة مع إبقاء الألف واللام (يا الله) مع أنَّ نداء الاسم مدخول الألف واللام ممنوع في اللغة.[2] مما يرجِّح أنَّ اسم الجلالة اسم ذاتٍ غير مشتقٍّ. والله أعلم.

رَبِّ الْعَالَمِينَ: الرب إما مصدر، والوصف به للمبالغة، وإما صفة مشبهة من ربَّه يربُّه بمعنى ربَّاه، وقد ورد (الربُّ) في كلام العرب بمعنى الملك والسيد، وبمعنى المربِّي والمصلح، ومنه: التربية: وهي تبليغ الشيء إلى كماله تدريجاً.

والأرجح أنه مشتق من التربية، بمعنى السياسة والتدبير، لأنه الأنسب بالمقام هنا، إذ المراد أنه مدبر الخلائق وسائس أمورها ومبلغها غاية كمالها، ولأنه لو حمل على معنى المالك لكان قوله تعالى بعد ذلك: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) كالتأكيد، وتأسيس معنى جديد أولى من التأكيد.[3]

والعالمين جمع عالم، على وزن فاعَل بفتح العين، والتعريف فيه للاستغراق. والعالم: هو كل موجود سوى اللّه تعالى، ويشمل جميع العوالم

---

(١) انظر: حول تفسير سورة الفاتحة، الشيخ عبد الله سراج الدين، ص ١٩ _ ٢١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج١/ ١٦٢.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج١/ ١٦٦.

العقلاء (كالإنس والجن والملائكة)، وغير العقلاء (كالحيوان والطيور والأفلاك)

وجمعوه جمع العقلاء مع أنَّ منه ما ليس بعاقل؛ تغليباً للعاقل على غيره.

وإنما جمع العالم ولم يؤت به مفرداً، لأن الجمع قرينة على الاستغراق، لأنه لو أفرد لتوهم أنَّ المراد من التعريف العهد.

والعالَم: مشتقٌّ من العلم أو من العلامة، لأن كل جنس له تميُّز عن غيره فهو له علامة، أو هو سبب العلم به فلا يختلط بغيره. وهذا البناء مختص بالدلالة على الآلة غالباً كخاتم وقالب وطابع، ومنه العوالم لكونها كالآلة للعلم بالصانع.(١)

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: مشتقان من رحم، دالان على المبالغة في صفة الرحمة، واسم الرحمة موضوع في اللغة لرقة الخاطر وانعطاف القلب نحو مخلوقٍ، بحيث تحمل من اتصف بها على الرفق بالمرحوم، والإحسان إليه ودفع الضر عنه.

فهي من حيث المبدأ انفعال نفسيٌّ، يلزم عنه اندفاع يحمل صاحبه على أفعال بقدر استطاعته وعلى قدر قوة انفعاله. وآثارها في النهاية أفعال، فإذا وُصِف موصوفٌ بالرحمة كان معناه حصول الانفعال المذكور في نفسه، وإذا أخبر عنه بأنه رحم غيره فالمقصود أنه قد صدر عنه أثر من آثار الرحمة.

ووصف الله تعالى بصفات الرحمة المقصود به التعبير عن المعاني العالية بأقصى ما تسمح به اللغات، مع اعتقاد تنزيه الله عن أعراض المخلوقات لأن الله سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [سورة الشورى: ١١]، لذا فإن وصف الله بأنه الرحمن الرحيم لا يُفهَم منه حصول الانفعال الملحوظ في حقيقة الرحمة في متعارف اللغة، بل المراد إثبات الغرض الأسمى من حقيقة الرحمة وهو صدور آثار الرحمة من الرفق واللطف والإحسان والإعانة؛ لأن مسمى الرحمة في متعارف

(١) انظر: المحرَّر الوجيز، ج١/ ٦٠. والتحرير والتنوير، ج١/ ١٦٦.

الناس لا أهمية له من غير حصول آثاره فيهم.[1]

وتقديم الرحمن على الرحيم؛ لتقدُّم ذكر اسم الجلالة (الله)، وهو الاسم الذي اختصَّ الله به، ولم يسمَّ به غيره. ويناسبه أن يذكر بعده وصف (الرحمن) الذي اختص به الله وحده.

وإجراء صفتي (الرحمن الرحيم) على اسم الجلالة بعد وصفه بأنه (رب العالمين)؛ لتقدُّم ذكر الربوبية (ربِّ العالمين) التي تقتضي استحقاق الله سبحانه الحمد؛ لأنه رب العالمين، أي: مدبر شؤونهم ومبلغهم إلى كمالهم، ولما كان العباد ضعفاء، كان احتياجهم للرحمة واضحاً، فجاء بصفات الرحمة بعد صفة الربوبية؛ للإشعار بأن تربية الله مقترنة بالرحمة، لأنَّ التربيَّة هي إبلاغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، برعاية ما يناسب كل نوع وفرد ويلائم استعداده، وذلك قد يحصل بضرب من الشدة والأذى، لكن الله أراد إبعاد وصف الشدَّة في تربية العباد، فنبَّه عن طريق اقتران الربوبيَّة بالرحمة أن ربوبيته سبحانه ليست على وجه الإعنات، بل بطريق الرفق واليسر ونفي الحرج، حتى في أحكام التكليف، فإنها مصحوبة باليسر بالقدر الذي لا يبطل المقصود منها.[2]

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ: لما وصف تعالى نفسه بالربوبيَّة والرحمة، وكان ذلك دالَّاً على كمال رفقه بالمربوبين، أتبع بالتذكير بالحساب والجزاء، لقطع أطماع المكلفين في العفو عن ترك التكاليف، والاستخفاف بالمعاصي، اعتماداً على ما علموا من الربوبية والرحمة؛ لذا جاء تعقيب صفات الربوبيَّة والرحمة بهذه الصفة، تذكيراً لهم بالجزاء يوم الحساب؛ لئلا يَفْسُدَ المقصود من التشريع حين تتلقفه أفهام المعطِّلين لمقاصد التكليف؛ فإن ذكر الجزاء يحمل المكلَّفين على الامتثال.

واختير هنا وصف (مَلِكِ) أو (مَالِكِ) مضافا إلى يوم الدين؛ ولم يقل: (رب

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، ج١/ ١١، والتحرير والتنوير، ج١/ ١٦٧.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، ج١/ ١٥.

يوم الدين)؛ لأن شأن المِلك أن يدبر صلاح الرعية، ولأنَّ المُلك مؤذن بإقامة العدل والجزاء بالأفعال المجزي عليها على أوفق كيفياته.(١)

وأصل مادة (ملك) في اللغة ترجع إلى معنى الشد والضبط، وتدلُّ على الاستيلاء، والتصرف في الموجودات والاختصاص بالأشياء ومنافعها.

وقرأ جمهور القرَّاء (مَلِكِ) صفة مشبهة لصاحب المُلك. وقرأ قراء الكوفة (مَالِك) اسم فاعل، والقراءتان تفيدان تفرُّد الله سبحانه في التصرف بشؤون يوم القيامة من غير شبهة مشارك. وقد أطال المفسِّرون في التفريق بين القراءتين، واختلفوا في أوجه المفاضلة بينهما، وأيهما أبلغ وأمدح، وأرى أنَّ التوفيق بين القراءتين بالنظر إلى سياقهما أولى من المفاضلة بينهما؛ لأن كلتا القراءتين كلام الله، والله يتصف بالملك والمالكية، وليست صفة أقوى من صفة في حقه، وإضافة الكلمة إلى يوم الدين يزيل الفروق بينهما، أما ما ذكره المفسِّرون من المفاضلة فهو مبنيٌّ على النظر إلى حال الدنيا، لكنَّ الحقيقة بالنسبة إلى الله سبحانه فوق ذلك.(٢)

وآثر لفظ (الدين)، أي: الجزاء، ولم يقل: (ملك يوم الحساب)، للإشعار بأنه سبحانه يعامل العامل بالعدل المطلق، ويجزيه بما يعادل أعماله المجزي عليها في الخير والشر، قال تعالى: (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ) [سورة غافر: ١٧]، وهذا تشريف لحكم الله سبحانه، فإن الملوك تتخلد محامدهم بمقدار تفاضلهم في إقامة العدل.(٣)

إِيَّاكَ نَعْبُدُ: العبادة: أقصى غاية التذلل والخضوع، وهي تستلزم فعل ما أمر الله به، وترك كل ما نهى الله عنه؛ لأن العبد هو الذي يوافق المعبود في مراده.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج١/ ١٧١ –١٧٢.

(٢) راجع: أثر تعدد القراءات في بلاغة النظم القرآني، د. انشراح سويد، دار العترة النبويَّة، حلب، ط١/ ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م، ص ٣١٦ –٣٢١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج١/ ١٧٤.

وتقديم المفعول يفيد الاختصاص، أي: لا نعبد أحداً سواك، واستحقاق هذا الاختصاص لله ظاهر، لأن العبادة هي نهاية التعظيم، فلا تليق إلا لمن صدر منه غاية الإنعام وهو الله تعالى.

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ: الاستعانة: طلب ما يتمكن به العبد من الفعل، أو تيسير فعل شيء يعسر فعله على المستعين وحده، وإيجاد ما به تمام الفعل أو تيسيره. ومنه: خلق الاقتدار على الفعل، وحصول الأسباب المؤديَّة إليه.

والمقصود هنا الاستعانة على أفعال الخير التي يعسر على المرء تذليل توجُّهات النفوس إليها، وما يستتبع ذلك من تحصيل الفضائل. والدليل: وقوع تخصيص الإعانة عقب التخصيص بالعبادة.

وحذف متعلق (نَسْتَعِينُ) الذي حقه أن يذكر مجروراً بـ(على)، ليفيد عموم الأمور التي يطلب من الله العون لتحقيقها، والاقتصار على طلب العون من الله فقط من غير ذكر متعلقاته؛ تأدباً مع الله سبحانه.[1] بالإضافة إلى ما فيها من أسلوب الحصر، أي: لا نستعين بأي أمر من الأمور إلا بالله تعالى.

وضميرا (نَعْبُدُ) و(نَسْتَعِينُ) يعودان إلى تالي السورة ذاكراً معه جماعة المؤمنين. والعدول عن ضمير الواحد (أعبد وأستعين) إلى ضمير المتكلم المشارك أبلغ في الثناء؛ لما فيه من الدلالة على أنَّ هذه المحامد تصدر من جماعات شهدت بأن الله هو المحمود المعبود، والدلالة على حاجة الكلِّ إلى التوجُّه إلى الله وحده.

ووجه تقديم قوله: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) على قوله: (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ): أن الاستعانة بالله تشتمل على كونه معبوداً للمستعين به، ولأن العبادة من جملة ما تطلب الإعانة عليه، فكانت متقدمة على الاستعانة، ولأن العبادة تشتمل على أعمال

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج١/ ١٨٢.

صالحة يتقرَّب بها العبد إلى الله، فكان تقديم العبادة على الاستعانة من باب التوسُّل إلى الله بالأعمال الصالحة. وقد حصل من التقديم أيضاً مراعاة جمال النغم في فواصل السورة.[١]

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ: الهداية: تختصُّ بالدلالة على الخير.[٢] والمقصود بالهداية هنا طلب الإرشاد، أو التوفيق أو الزيادة أو الدوام، بحسب ما يناسب حال الداعي، فهي الدلالة والإرشاد إلى الطريق الحقِّ لمن لم يبلغ إليه، والتوفيق إلى المداومة والثبات على الرشاد والاستزادة منه لمن كان حاصلاً له.[٣]

والهداية في القرآن تأتي على معانٍ متعددة تندرج تحت أربعة أنواع، هي:[٤]

الأول: إعطاء القوى التي بها يتمكن المخلوق من تدبير صلاح وجوده وبقائه وحفظ حياته، وهي عامَّة للإنس والجنِّ والطير والحيوان بما يناسب بقاء أجناسها. وهذا النوع يشمل أيضاً إعطاء القوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة التي بها يكون الاهتداء إلى انتظام حياة الإنسان، ويندرج تحتها أنواع تبتدئ من إلهام الصبي البكاء عند الألم وإدراك هول المُهلِكات، وطلب مصالحه الوجودية كالطعام والماء. ونهايتها: التفكُّر في المعقولات لتحصيل المجهول، وهي القوة التي انفرد بها الإنسان بإدراك المعقولات المنتزعة من العلوم المحسوسة. وهذه الهداية ذكرها الله بقوله: (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [سورة طه: ٥٠]

الثاني: نصب الأدلة الفارقة بين الحق والباطل والصواب والخطأ، والصلاح والفساد، وإليه أشار قوله سبحانه: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) [سورة البلد: ١٠].

الثالث: الهداية إلى ما قد تقصُر عنه الأدلة بإرسال الرسل وإنزال الكتب،

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج١/ ١٨٣.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي، ج١/ ٦٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج١/ ١٨٦.

(٤) انظر: تفسير البيضاوي، ج١/ ٦٩.

وإليها الإشارة بقوله تعالى في شأن الرسل: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) [سورة الانبياء: ٧٣]. وقوله: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) [سورة الإسراء: ٩]

الرابع: كشف الحقائق العليا وإظهار أسرار المعاني بواسطة الوحي والإلهام الصحيح، وهو أعلى أنواع الهداية، ويختصُّ بها الأنبياء، قال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) [سورة الأنعام: ٩٠].

والصراط: الطريق، وهو مستعار للحق الذي يبلغ به مدركه إلى الفوز برضا الله.

والمستقيم: اسم فاعل استقام، ومعناه: الذي لا عوج فيه ولا تعاريج، والمراد بالصراط المستقيم: دين الحق، وملة الإسلام، وإليه ذهب جمهور المفسّرين، وقد ورد إطلاق الصراط المستقيم على دين الإسلام في قوله تعالى: (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً) [سورة الأنعام: ١٦١].[1]

وقال ابن عاشور: المراد بالصراط المستقيم المعارف الصالحات، والتمييز بين الحق والضلال، والتوفيق إلى الأفعال الصالحة، والفهم الصحيح للدين.

واختار هذا المعنى؛ ليكون الدعاء طلب تحصيل ما ليس بحاصل وقت الطلب، إذ الداعي بحاجة إلى هذه الهداية في جميع شؤونه، ومنها طلب الدوام على ما هو متلبس به من الخير؛ للوقاية من التقصير فيه أو الزيغ عنه.[2]

ويمكن التوفيق بين القولين، ويكون المقصود بالطريق المستقيم ملة الإسلام، وجميع الخيرات التي يُستحسن الاستزادة منها؛ لأن الهداية إلى الإسلام لا تقتصر على ابتداء اتباعه، بل تستمر باستمرار فهم تشريعاته وأحكامه بالنصِّ أو الاستنباط، والعمل بها.

---

(١) انظر: تفسير الطبري، ج١/ ١٧٥، والكشَّاف، ج١/ ٥٨، والمحرَّر الوجيز، ج١/ ٦٦، وتفسير ابن كثير، ج١/ ٣٨، واللباب، ج١/ ٢٠٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج١/ ١٨٩.

وفي وصف الصراط المسؤول بالمستقيم إيماء إلى أنَّ الإسلام واضح الحجة قويم المحجة لا يهوي أهله إلى هوة الضلالة، كما قال تعالى: (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً) [سورة الأنعام: ١٦١] وقال: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) [سورة الأنعام: ١٥٣].

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ بدل من (الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ). وقد آثر النظم أسلوب الإبدال، ولم يقل: (اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم)؛ لأن:

أ _ المقصود من الطلب ابتداءً هو كون الصراط المستقيم وسيلة للنجاة، أما الإبدال ففيه بيان زائد بأن الطريق المستقيم هو سبيل الذين أنعم الله عليهم.

ب _ في أسلوب الإبدال إجمال يعقبه تفصيل؛ ليتمكن معنى حقيقة الصراط المطلوب في النفوس، فيحصل مفهومه مرتين، وهذا يشبه التأكيد.

وفي استحضار المنعم عليهم بطريق الموصول، وإسناد فعل الإنعام عليهم إلى ضمير الجلالة، تنويه بشأنهم، وتعريض بطلب أن يكونوا لاحقين في مرتبة الهدى بأولئك المنعم عليهم، وتهمماً بالاقتداء بهم في الأخذ بالأسباب التي ارتقوا بها إلى تلك الدرجات، وتوطئة لما سيأتي بعده من التبرؤ من أحوال المغضوب عليهم والضالين.[1]

والنِّعمة: مشتقة من النعيم وهو راحة العيش والترفه. والنعمة الحالَّة الحسنة المتعلِّقة باللذات الحسية والمعنوية العائدة بالنفع على صاحبها. والمراد من النعمة في قوله: (الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) النعمة التي لم يشبها ما يكدرها ولا تكون عاقبتها سوأى، فهي شاملة لخيرات الدنيا الخالصة من العواقب السيئة

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج١/ ١٩٠.

ولخيرات الآخرة. وأعظم النِّعَم على الإطلاق نعمة الهداية إلى الإيمان.

والمنعم عليهم: هم الذين أفيضت عليهم النعم الكاملة، ومنه تظهر وجه المناسبة بين المنعم عليهم وبين المهديين، لأنَّ الهداية نعمة، والمنعم عليهم بالنعمة الكاملة قد هدوا إلى الصراط المستقيم.

والمراد بالذين أنعم الله عليهم: هم الذين ذكرهم الله في قوله: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) [سورة النساء: ٦٩]

ووجه الجمع بين طريق المنعم عليهم فيما مضى، وهم الأنبياء، وبين تفسير الصراط المستقيم بدين الإسلام الذي جاء من بعد، من وجوه:

أ _ أنَّ الصراط المستقيم وهو الإسلام جار على سنن الشرائع الحقة في أصول الديانة وفروع الهداية والتقوى، ودين الإسلام يشبه في استقامته صراط المنعم عليهم، إذ قد جمع استقامة الأديان الماضية وزاد عليها.

ب _ المراد من المنعم عليهم الأنبياء والرسل فإنهم كانوا على حالٍ أكمل مما كان عليه أممهم، ولذلك وصف الله كثيراً من الرسل الماضين بوصف الإسلام وقد قال يعقوب عليه السلام لأبنائه: (فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُون) [سورة البقرة: ١٣٢] وبيان ذلك: أنَّ الله تعالى رفق بالأمم فلم يبلغ بهم غاية المراد؛ لعدم تأهلهم لبلوغ غاية الكمال، لكنه أمر المرسلين بأكمل الحالات وهي مراده تعالى. فالمقصد هو الهداية إلى صراط كامل، ويكون الدعاء محمولٌ في كل زمان على ما يناسب طرق الهداية التي سبقت زمانه، والتي لم يبلغ إلى نهايتها.[1]

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ: الغضب المقصود هنا هو غضب الله، وحقيقة

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج١/ ١٩١.

الغضب: كيفية تعرض للنفس من حصول ما لا يلائمها، فتترتب عليه كراهية الفعل المغضوب منه، وكراهية فاعله، ويلازمه الإعراض عن المغضوب عليه، ومعاملته بالأذى وبقطع الإحسان، وقد يفضي إلى الانتقام منه.

وحقيقة الغضب يستحيل اتصاف الله تعالى بها وإسنادها إليه على الحقيقة؛ لذا يجب صرف إسناد الغضب إلى الله عن معناه الحقيقي إلى معناه المجازي وهو العقاب والإهانة واللعنة.

وَلا الضَّالِّينَ: الضلال: الميل والانحراف عن طريق الحقِّ.

والمراد بـ (المغضوبِ عليهم) جنس الفرق التي تعمدت الاستخفاف بالديانة عن عمدٍ أو تأويل بعيد جداً تحمل عليه غلبة الهوى. والمراد بالضالين جنس الفرق الذين حرفوا الديانات الحق عن عمدٍ أو سوء فهم. وكلا الفريقين مذموم؛ لأن المطلوب اتباع سبيل الحق وصرف الجهد إلى إصابته، والحذر من مخالفة مقاصده.

وقد فسَّر النبي ﷺ (المغضوب عليهم) باليهود، و(الضالين) بالنصارى.(١)

وتفسيره ﷺ ليس على سبيل الحصر، وإنما هو من قبيل التمثيل بأشهر الفرق التي حق عليها هذان الوصفان، فاليهود قتلوا أنبياءهم، وتمرَّدوا على أحبارهم، وبدَّلوا الشريعة عمداً فلزمهم وصف المغضوب عليهم، إذ قال الله تعالى فيهم: (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ) [سورة المائدة: ٦٠]. والنصارى أساؤوا فهم معنى التقديس في عيسى عليه السلام فزعموه ابن الله على الحقيقة، قال تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) [سورة

(١) انظر: سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة الفاتحة، رقم (٢٩٥٣)، ج٢٠١/٥. قال أبو عيسى الترمذي: حديث حسن غريب.

المائدة:٧٧] [1]

ولا يلزم اختصاص وصف الغضب باليهود، ووصف الضلال بالنصارى؛ فإن في الأمم أمثالهم، ووصف الغضب والضلال يشمل جميع الكفَّار.

وهذا التفسير لا يناقض ما ورد في الحديث الذي فسَّر المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى، فإنَّ ما ذُكِر في الحديث من قبيل التمثيل، للإشارة إلى أنَّ اليهود والنصارى يدخلون في معنى الآية، وهم أهل دينٍ يزعمون التمسّك به، فلأن يدخل غيرهم من المشركين والملاحدة في معنى الآية أولى وأجدر، لكنَّ الحديث لم يذكرهم؛ لفرط سقوطهم عن الاعتبار.[2]

والغرض من وصف الذين أنعمت عليهم بأنهم (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ):

أ _ التعوذ مما عرض لأمم أنعم الله عليهم بالهداية إلى صراط الحقّ بدعوة رسل زمانهم، فتقلدوها ثم طرأ عليهم سوء الفهم فيها فغيروها.

ب _ والتبرؤ من أن يكونوا مثلهم في سوء الامتثال وفساد التأويل وتغليب الشهوات الدنيوية على إقامة الدين حتى حق عليهم غضب الله.

ج _ والتبرؤ من حال الذين هدوا إلى صراطٍ مستقيمٍ، فما صرفوا عنايتهم للحفاظ على السير فيه باستقامة، فأصبحوا من الضالين.

وعطف (وَلا الضَّالِّينَ) على (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) ارتقاء في التعوذ من شر سوء العاقبة؛ لأن التعوذ من الضلال الذي جلب لأصحابه غضب الله لا يغني عن التعوذ من الضلال الذي لم يبلغ بأصحابه تلك الدركات، ووجه تقديم (الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) على (الضَّالِّينَ) التدرج بنفي الأضعف بعد نفي الأقوى، مع

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي، ج١/ ٧٣، والتحرير والتنوير، ج١/ ١٩٧.

(٢) انظر: في تفسير القرآن وأسلوبه المعجز علمياً وبيانيّاً، الأستاذ الدكتور نور الدين عتر رحمه الله، مطبعة الصباح، دمشق، ط١٢/ ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، ص ٢٩.

رعاية الفواصل.[1]

الأساليب البلاغيَّة في سورة الفاتحة:

١ _ **براعة الاستهلال:** وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه، ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله، وسورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن مشتملة على جميع مقاصده،[2] إذ إنَّ كل آية من آياتها، تشير إلى جملة محتويات القرآن، ومقاصده المتعددة، وموضوعاته المتنوعة، بما فيها من عقائد وعبادات، وشرائع، وأخلاق، وما يتصل بحياة الإنسان في مبدئه ومعاده، في دنياه وآخرته، ولذلك المعاني سمِّيت (أم القرآن).

٢ _ **الالتفات:** وهو التحوُّل عن طريق من طرق الكلام (المتكلم أو الخطاب أو الغائب) إلى طريق آخر منه، وسورة الفاتحة اشتملت على أنواع التفات الآتية:

أ _ **الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:** في قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) تغيَّر أسلوب الكلام من الحديث بطريق الغائب إلى الحديث بطريق الخطاب، وكأن الحامد لما أثنى على الله تعالى، تخيل نفسه في حضرة الربوبية فخاطب ربه بالإقبال معلناً عبوديته وخضوعه لله سبحانه، ولو جرى الكلام على أسلوب الغيبة كما تقدمَّ قبله من غير التفات إلى الخطاب، لقال: (إِيَّاهُ نَعْبُدُ)

ب _ **الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:** في قوله تعالى: (أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) إذ كان أسلوب الكلام جارياً على طريقة الخطاب في سياق الحديث عن النعيم، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: "غير الذينَ غَضِبْتَ عليهم" لكن الكلام جرى على خلاف الظاهر، فعدل عن أسلوب الخطاب إلى أسلوب الغائب؛ تأدُّباً وتلطُّفاً من نسبة الغضب إلى الله سبحانه بأسلوب

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج١/ ١٩٤.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، ج٢/٢٨٤.

المواجهة.

٣ _ **أسلوب القصر:** وهو تخصيصُ الحكمِ بالمذكورِ في الكلام، ونفيُهُ عن سواهُ بطريقٍ من طرقِ القصر، ومنها تقديم ما حقّهُ التأخيرُ في قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، إذ قدَّم المفعول على الفعل، لإفادة الحصر والتخصيص، أي: نعبدك يا الله، ولا نعبد غيرك، ونخصك بالاستعانة، ولا نستعين بأحدٍ سواك.

٤ _ **الاستعارة التصريحية:** وهي أسلوب من أساليب التشبيه حذفت أركانه، وصُرِّح فيها بذكر المشبه به، أو بعض صفاته، ولوازمه،من غير ذكر المشبَّه، ومما جرى وفق هذا الأسلوب البلاغي قوله تعالى: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) حيث شبَّه دين الإسلام، بالطريق القويم الذي لا اعوجاج فيه؛ لأن الطريق المستقيم، يوصل إلى المكان المطلوب، وكذلك الدين الحقُّ، يوصل إلى مرضاة الله وهي مطلوب العبد.(١)

المعنى الإجمالي لسورة الفاتحة:

باسم الله أستعين، وأبدأ أعمالي متبركًا بذكر اسمه، طالباً منه أن تشملني رحمته التي وسعت كل مخلوقاته، وأخصُّ الله ربي بجميع أنواع المحامد، وأثني عليه بما هو أهله من صفات الجلال والكمال، فهو وحده الذي يستحقُّ الحمد؛ إذ هو رب كل شيء وخالق جميع العوالم، ومدبر أمور انتظامها ونظامها، بما تقتضيه الرحمة الشاملة التي ترافق حكم الله في التدبير والقضاء بجميع شؤون مخلوقاته، فهو المالك لها في مبدئها ومعادها، وصاحب القضاء الحقِّ في مصيرها وجزاءها يوم الحساب.

نخصُّك يا الله وحدك بالعبادة والطاعة، ولا نشرك معك غيرك، ونطلب

(١) انظر: التفسير العام، تأليف الأستاذ الدكتور، مصطفى الخنّ رحمه الله، منشورات جامعة دمشق، ط/١٤٣٦هـ . ٢٠١٥م، ص ٢٨ –٣١.

منك وحدك العون في كل شؤوننا، فبيَدِكَ الخير كله، ولا مُعين سواك. دُلَّنا يا خالقنا إلَى الدين الحقِّ الَّذي لا اعوجاج فيه، وثبِّتنا عليه.

فالدين الحقُّ هو الطريق الواضح الذي سلكه الأنبياء والصديقون والصالحون الذين أنعمت عليهم بالهداية؛ ولا تصرِفنا عن الدين القويم كما انصرف المغضوب عليهم الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه، والضالون الذين لم يهتدوا إليه؛ لتفريطهم في طلب الحق والاهتداء إليه.

العبر والفوائد المستفادة من سورة الفاتحة

أولاً: أصول التزكية النفسية التي تضمنتها سورة الفاتحة:

نجاح المرشد في إرشاده والمسترشد في تلقيه يعتمد على ستة أمور، هي:

١_ التخلية عن التعطيل والشرك والإلحاد، والفاتحة تضمنت مناجاة جامعة للتنزه عن التعطيل والإلحاد بما تضمنه قوله (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، وعن الإشراك بما تضمنه (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

٢ _ التخلي عن المكابرة والعناد، وعن خواطر الاستغناء عن الله تعالى، بالتبري من الحول والقوة، بما تضمنه قوله: (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

٣ _ الإقرار بحاجة المسترشد إلى العلم، وإبداء الرغبة في التحلي بالرشد، وهو ما تضمنه قوله: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)، فإن طلب الهداية اعتراف بالاحتياج إلى العلم، ووصف الصراط بالمستقيم اعتراف بأن من العلم ما هو حق ومنه ما هو مَشوبٌ بغلط، ومن اعترف بهذا الأمر فقد أعدَّ نفسه لاتباع الهدى والرشد.

٤ _ الاقتداء بالأسوة الحسنة بما تضمنه (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)

٥ _ طلب السلامة من الضلال الصريح الذي يهوي بصاحبه إلى دركة أقل مما وقف عنده الجاهل البسيط، بما تضمنه (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم)

٦ _ طلب سلامة التفكير من الاختلاط بشبهات الباطل المُموَّه بصورة الحقِّ، وهو الضلال الذي يعتري العلوم الصحيحة والشرائع الحقة فيذهب بفائدتها، بما تضمنه قوله تعالى: (وَلا الضَّالِّينَ).[١]

ثانياً: أصول التربية في سورة الفاتحة:[٢]

اشتملت سورة الفاتحة على أصولٍ تربويَّة جليلة، لها أهميتها البالغة في بناء الشخصيَّة المتكاملة، المتميِّزة بوضوح العقيدة، ونقاء الفكر، وسمو الخلق، والبعد عن سُبُلِ الضلال، وهي أصول كثيرة، من أهمها:

أولاً: التكوين الفكري الاعتقادي: وهذا الأصل هو الركن الأساس في عملية التربيَّة، إذ هو الذي يوجِّه أهدافها ويحدِّد وسائلها، وقد بيَّنت سورة الفاتحة دعائم التكوين الاعتقادي، وهي معرفة صفات الخالق، ومعرفة الأكوان والعوالم، وبيان أنَّ صلتها بالله صلة المربوب بربِّه الذي يتعهده بالإمداد والتنمية.

ثانياً: غرس فضيلة الشكر والعرفان بالجميل في قلب الإنسان، لما في السورة من الثناء الحسن البالغ غاية الغايات، والشامل للمدح والشكر، وذلك سبب أساسيٌّ لنمو الإيمان ورسوخه في القلب، وهو أساس الخلُق الفاضل، إذ لا يجحد النِّعَمَ، ويكفر المتفضِّلَ بها إلا من جُبِلَ على الأذى والتوحُّش.

والسورة تؤصِّل الشكر لله في قلب المؤمن، وشكر أهل الإحسان الذين جعلهم الله واسطة في وصول بعض نِعَمِهِ إلى الإنسان، وهذا يؤدِّي إلى ربط علاقات الناس برباط المحبَّة، ورباط المساواة إقراراً بأنَّ الله هو ربُّ الناس جميعاً.

ثالثاً: غرس الأمل والتفاؤل في وجدان الإنسان، وتقوية ثقته برحمة الله التي جعلها الله قرينة الربوبيَّة، وهذا يجعل المؤمن يستمطر عون الله مطمئناً إلى

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج١/ ١٥٠.

(٢) انظر: في تفسير القرآن، وأسلوبه المعجز، للأستاذ الدكتور نور الدين عتر رحمه الله، ص ٤١ –٤٤. بتصرُّف.

أنَّ الله الذي خلقه يتولى تربيته برعايةٍ مصحوبة بالرحمة والتوفيق.

رابعاً: إثارة البواعث للعمل الصالح، والكفِّ عن السيئات، لما اشتملت عليه السورة من فنون الترغيب والترهيب، والخوف والرجاء، واستحضار صفات الجلال والجمال، لتحقيق التوازن بين الرغبة والرهبة، لئلا يغرق الإنسان في الطمع فتفترعزيمته، ولا يسرف في الخوف، فيقطعه اليأس عن العمل.

خامساً: استقلال شخصيَّة المسلم وتميُّزها بجمال الخلُق، وتمام الامتثال، وذلك بموجب الإيمان بأنَّ الله ربُّ العالمين، وبيده الحكم والجزاء يوم الدين، مما يجعله يتحرَّز عن مخالفة أحكام الإسلام، وعن مجانبة فضائله؛ لئلا يكون مشمولاً مع المغضوب عليهم والضالين.

ثالثاً: معايير الجودة في صياغة المقدّمة:(١)

إنَّ منزلة سورة الفاتحة من القرآن منزلة المقدمة للخطبة، وللمقدِّمة شأن عظيم في فهم مضمون الكلام، وقد رسمت الفاتحة للمنشئين ثلاث قواعد لصياغة المقدمة، وهي:

١ _ افتتاح الكلام بالتحميد والثناء والذكر الجميل، وهذا الأمر هو طريقة بلغاء العرب عند افتتاح الكلام في مخاطبة العظماء.

٢ _ إيجاز المقدمة واختيار كلماتها من جوامع الكلم؛ لئلا تملَّ نفوسُ السامعين بطول انتظار المقصود؛ ولهذا وُضِعت قبل السور الطوال مع أنها سورة قصيرة.

٣ _ أن تشير إلى الغرض المقصود، لأن ذلك يهيئ السامعين لسماعه، ويدل على تمكُن الخطيب وثقته بسداد رأيه، بحيث ينبِّه السامعين لوعيه، فيتأهَّبوا لتلقيه.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج١/ ١٥٠ –١٥١.

أحكام فقهيَّة متعلِّقة بسورة الفاتحة

أولاً: حكم قراءة سورة الفاتحة في الصلاة:

اختلف العلماء في حكم قراءة سورة الفاتحة في الصلاة على مذهبين:

الأول: مذهب جمهور الفقهاء أن قراءة الفاتحة في جميع ركعات الصلاة فرضٌ، بحيث لو تركها المصلي عامداً في ركعة من الركعات بطلت الصلاة، ودليلهم: قول النبي ﷺ: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب"[1] وهذا القول هو الأرجح؛ لأن الحديث الذي استدلوا به حديث متواتر، الظاهر فيه نفي الصحة، لا نفي الكمال.

الثاني: مذهب الحنفية: قراءة الفاتحة في الصلاة ليست فرضاً وإنما هي واجب، بحيث لو تركها المصلّي متعمداً فإنَّه يأثم، لكن صلاته لا تبطل، ويجب عليه الإعادة في الوقت لرفع الإثم، وإن تركها ساهياً يجب عليه أن يسجد للسهو.

وقالوا: المفروض هو قراءة أي شيء من القرآن، وليس الفاتحة بخصوصها.[2] واستدلوا: بقوله تعالى: (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) [سورة المزمل:٢٠]، فقد أمر الله بقراءة ما تيسر من القرآن مطلقاً، وتقييده بفاتحة الكتاب زيادة على مطلق نصِّ القرآن بخبر الواحد، وهذا لا يجوز، فيكون أدنى ما يطلق عليه قراءة القرآن فرضاً: القراءة في الصلاة، لأنها هي المكلف بها. كما استدلُّوا بحديث النبيِّ ﷺ: "إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة فكبِّر، ثم اقرأ بما تيسر معك من القرآن".[3]

---

(١) انظر: بداية المجتهد، ج١/ ١٠٤، والحاوي الكبير، ج٢/ ٢٣٥، والروض المربع، ج١/ ١٩٥. وقد تقدَّم تخريج الحديث في صحيح البخاري.

(٢) انظر: البحر الرائق، ج١/ ٣١٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب من رد فقال عليك السلام، (٥٨٩٧)، ج٥/ ٢٣٠٧.

ثانياً: حكم قراءة الفاتحة للمأموم خلف الإمام:

اختلف الفقهاء في حكم قراءة الفاتحة للمأموم على ثلاثة مذاهب:

الأول: مذهب الشافعيَّة وأحمد في رواية عنه: يفترض على المأموم قراءة الفاتحة خلف الإمام، في الصلاة السريَّة والجهريَّة، لحديث عبادة بن الصامت ﷺ قال: «صلى رسول الله ﷺ الصبح، فثقلت عليه القراءة، فلما انصرف، قال: إني أراكم تقرؤون وراء إمامكم؟! قال: قلنا: يا رسول ا لله، إي والله، قال: لا تفعلوا إلا بأم القرآن، فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها»[1] فهذا نص صريح خاص بقراءة المأموم دال على فرضيتها، وظاهر النفي متجه إلى الصحَّة.[2]

الثاني: مذهب الحنفية: لا يجب على المأموم القراءة في الصلاة، وقراءة المأموم خلف إمامه مكروهة تحريماً في الصلاة السرية والجهرية، لقوله تعالى: (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [سورة الأعراف: ٢٠٤]، والآية تأمر بالاستماع والإنصات، والاستماع خاص بالجهرية، والإنصات يعم السرية والجهرية، فيجب على المصلين أن يستمعوا فيما يجهر به، وأن ينصتوا فيما يسر به. [3]

الثالث: مذهب المالكيَّة، والإمام أحمد في رواية أخرى عنه: يقرأ المأموم خلف الإمام الفاتحة في الصلاة السرية، والصلاة الجهريَّة التي يصل إليه صوت الإمام فيها، وتكره قراءة المأموم خلف الإمام في الصلاة الجهرية،[4] لقول النبي ﷺ: (إنما جعل الإمام ليؤتم به)[5] وهو حديث صحيح متفق عليه.

---

(١) سنن الترمذي، كتاب أبواب الصلاة، باب القراءة خلف الإمام، رقم (٣١١)، ج٢/ ١١٦. قال أبو عيسى: حديث عبادة حديث حسن.

(٢) انظر: الحاوي الكبير، ج٢/ ٣٢٧ –٣٢٨، والمغني، ج١/ ٦٣٦.

(٣) انظر: البحر الرائق، ج١/ ٣٦٤.

(٤) انظر: بداية المجتهد، ج١/ ١٢٥، والمغني، ج١/ ٦٣٦.

(٥) صحيح البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب إيجاب التكبيروافتتاح الصلاة، رقم (٧٠١)، ج١/٢٥٧.

ثالثاً: حكم التأمين (قول: آمين) بعد قراءة الفاتحة: يسنُّ لمن يقرأ فاتحة الكتاب في الصلاة أن يقول بعدها آمين. ومعناه: اللهم استجب. أخرج الشيخان عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: " إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمِّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ"(١) وقد اختلف الأئمة بالجهر بالتأمين في الصلاة الجهريَّة، فذهب الحنفية والمالكية في الراجح إلى أنَّ الإسرار بآمين أولى من الجهر بها، لأنه دعاء، وقد قال اللّه تعالى: (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً) [سورة الأعراف: ٥٥].(٢) وذهب الشافعية والحنابلة: إلى التأمين سراً في الصلاة السرية، وجهراً في الصلاة الجهريَّة، ويؤمن المأموم مع تأمين إمامه لا قبله ولا بعده،(٣) لحديث النبيِّ ﷺ: "إذا أمن الإمام فأمنوا" وحديث أبي هريرة ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ إذا تلا: (غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ) قال: آمين، حتى يسمع من يليه من الصف الأول"(٤)

(١) صحيح البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب جهر الإمام بالتأمين، رقم (٧٤٧)، ج١/ ٢٧٠، وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب التسميع والتحميد والتأمين، رقم (٤١٠)، ج١/ ٣٠٧.

(٢) انظر: المبسوط، ج١/ ٢٨، والشرح الكبير، للشيخ أبي البركات الدردير، ج١/ ٢٤٨.

(٣) انظر: المجموع، ج٢/ ٣٧٢، والمغني، ج١/ ٥٦٤.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب التأمين وراء الإمام، رقم (٩٣٥)، ج١/ ٣٥٢.

جامعة
حلب
١٩٥٨
UNIVERSITY
OF
ALEPPO

تفسير آية الكرسي

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ.

[سورة البقرة: ٢٥٥]

مناسبة الآية لما قبلها:

المناسبات العامَّة:

أ _ افتتح الله القرآن الكريم بسورة الفاتحة التي هي أعظم سورة في القرآن، ثم تلاها بسورة البقرة مشتملةً على آية الكرسي، وهي أعظم آية في القرآن.

ب _ ذكر الله سبحانه في سورة الفاتحة صفات الربوبيَّة والرحمة والملك التي تبيّن علة استحقاقه للثناء الجامع لجميع المحامد، ثم بيَّن أنَّ الله هو وحده المعبود المستعان، وفي ذلك إشارة مجملة إلى التكاليف والأحكام التي شرعها الله لعباده، ثم جاءت سورة البقرة لتذكر تفاصيل بعض الأحكام التي نوَّهت بها سورة الفاتحة، وفي ثناياها جاء التعريف بصفات الجلال والعظمة في آية الكرسي؛ لترهيب المكلَّفين من مخالفة الله الذي لا يجرؤ أحد أن يشفع عنده لمن يتعمد مخالفة أمره.

المناسبة الخاصَّة: في الآية السابقة أمر الله المؤمنين بالصدقات تقرُّباً إلى الله تعالى بالعمل الصالح الذي هو أساس النجاة يوم القيامة، حيث لا ينفع مال ولا شفاعة يومئذٍ، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ) [سورة البقرة:٢٥٤]، ثم ذكر في آية الكرسي ما يؤيّد هذا المعنى، فقال: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ).

فضائل آية الكرسي:

أولاً: تضافرت الأحاديث الصحيحة عن النبيّ ﷺ أنَّ آية الكرسي أعظم آية في القرآن، وذلك لما اشتملت عليه من أصول معرفة صفات الله تعالى.

فقد أخرج مسلم عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ". قَالَ: قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: "يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟". قَالَ: قُلْتُ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، قَالَ فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: "وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ."(١)

وأخرج الحاكم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في المسجد فجلست إليه، فذكر فضل الصلاة والصيام والصدقة. قال: قلت يا رسول الله فأيّما آية أنزل الله عليك أعظم؟ قال: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) وذكر الآية حتى ختمها.(٢)

ثانياً: لآية الكرسي فضائل كثيرة مجربة للتأمين على النفس والبيت، وقد صحَّ عن النبيّ ﷺ أنَّ آية الكرسي تحفظ قارئها، وتحصّن بيته من دخول الشيطان إليه. أخرج البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: "وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ، فَجَعَلَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ. قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، رقم (٨١٠)، ج٥٥٦/١.

(٢) المستدرك على الصحيحين، للإمام محمد بن عبد الله أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، (٤٠٥هـ)، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٤١١/١هـ-١٩٩٠م، كتاب التفسير، باب من سورة البقرة، رقم (٣١١٥)، ج٣١٠/٢. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح.

إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ.

قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ.

قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا. قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوم) حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: مَا هِيَ؟ قُلْتُ: قَالَ لِي إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. - وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: ذَاكَ شَيْطَانٌ."(١)

وأخرج الدارمي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ آية الكرسي، وفاتحة حم المؤمن إلى قوله (إليه المصير) لم ير شيئاً يكرهه حتى يمسي، ومن قرأها حين يمسي لم ير شيئاً يكرهه حتى يصبح."(٢)

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الوكالة، باب إذا وكَّل رجلاً، فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز، رقم (٢١٨٧)، ج٨١٢/٢.

(٢) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب فضل أول سورة البقرة وأية الكرسي، رقم (٣٣٨٦)، ج٥٤١/٢.

ثالثاً: من فضائل الآية أنَّ من واظب على قراءتها بعد كل صلاة كان في حفظ الله، وكان من أهل الجنة، فقد أخرج الطبراني أنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قال: "مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ الصَّلاةِ الْمَكْتُوبَةِ كَانَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ إِلَى الصَّلاةِ الأُخْرَى"(١)

وأخرج الطبراني والنسائي عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ، إِلا الْمَوْتُ"(٢)

معاني المفردات:

الْحَيُّ: الدائم البقاء ذو الحياة الكاملة التي لا تبدأ من مبدأ ولا تنتهي إلى نهاية.

الْقَيُّومُ: القائم بذاته من غير افتقار إلى أحد، والدائم القيام بتدبير شؤون خلقه.

لا تَأْخُذُهُ: لا تغلبه، والأخذ: الغلبة والاستيلاء.

سِنَةٌ: نعاس وهو فتور قبل النوم.

يَشْفَعُ: الشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصراً له، من الشفع: وهو ضم شيء إلى مثله.

وَلَا يُحِيطُونَ: إحاطة العلم بالأشياء: أن يُعلَم وجودُها وقدرُها وجنسها وصفتها، وكيفيتها وغرضها المقصود بها، وما يكون به ومنه، وهذا ليس إلا لله تعالى.

بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ: الشيء: ما يصح أن يُعلَم ويخبر عنه. وهو في الأصل مصدر (شاء) وهو هنا بمعنى اسم المفعول، باعتبار تعلق المشيئة به من حيث العلم والإخبار عنه، ويشمل الموجود والمعدوم والواجب والممكن والمستحيل، بقرينة تعلُّقه بالعلم، إذ العلم هو إدراك المعلوم، وهو يتعلق بجميع المعلومات.

كُرْسِيُّهُ: جسم عظيم يحيط بالسموات والأرض بين يدي العرش، أو هو مجاز عن علم الله، أو ملكه، أو عظمة سلطانه.

---

(١) المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط٢/ ١٤٠٤هـ -١٩٨٣م، ج٣/٨٣.

(٢) سنن النَّسائي، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ثواب من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة، رقم (٩٩٢٨)، ج٦/٣٠، والمعجم الكبير للطبراني، ج٨/١١٤.

وَلا يَؤُودُهُ: لا يثقله ولا يشق عليه.

الْعَلِيُّ: القاهر الغالب، المتعالي عن الأشباه والأنداد.

الْعَظِيمُ: الربُّ المعظَّم، الجامع لجميع صفات الجلال.

الإعراب:[1]

اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ: اللَّهُ مبتدأ، ولا: نافية للجنس، وإِلهَ: اسمها، وخبرها محذوف تقديره: لا إله معبود إلا هو، وجملة لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خبرٌ للمبتدأ (الله).

الْحَيُّ الْقَيُّومُ: مرفوعان صفة للّه، أو خبر للفظ الجلالة، أو خبر لمبتدأ محذوف.

مَنْ ذَا الَّذِي: مَنْ: رفع بالابتداء، و(ذَا) زائدة، و(الَّذِي) خبر لـ(ذَا).

عِنْدَهُ: متعلِّق بـ(يشفع)، أو بمحذوف حال من فاعل (يَشْفَعُ)، والتقدير: يشفع مستقرَّاً عنده.

إِلاَّ بِإِذْنِهِ: متعلِّقٌ بمحذوف حال من فاعل (يَشْفَع). والباء للمصاحبة، أي: لا أحد يشفع عنده إلاَّ مأذوناً له.

بِشَيْءٍ: متعلِّقٌ بـ (يحيطون) في محل نصب مفعول.

مِنْ عِلْمِهِ: يتعلَّق بمحذوف صفة لشيء، في محلِّ جر.

بمَا شَاءَ: متعلِّقٌ بـ (يحيطون). ومفعول (شَاءَ) محذوفٌ، تقديره: إلا ما شَاءَ أن يحيطوا به.

الأساليب اللغوية:

اشتملت الآية على أمهات المسائل المتعلقة بالذات العليَّة والصفات الجليلة، كالوحدانية، والحياة، والقدرة، والملك، والكبرياء، والعلم، والتعالي، والعظمة.

---

(١) انظر: البحر المحيط، ج٢/ ٢٨٨ – ٢٨٩.

اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ

اسم (**الله**) هو أعرف المعارف؛ لعدم احتياجه في الدلالة على مسماه إلى قرينة، ولذلك افتتح الله سبحانه آية الكرسي باسم الجلالة (الله)؛ لينصرف الذهن إلى استحضار ذات الخالق الذي تفرَّد بهذا الاسم، ولم يسمَّ به غيره.

وجملة (**لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**) خبر أول عن اسم الجلالة، لقصد إثبات الوحدانية لله وحده، ونفيها عن المعبودات التي تسمى آلهة على سبيل الادِّعاء لا الحقيقة.

الحيُّ: المتَّصف بكمال الحياة وما يقتضيه كمالها من العلم والإدراك والقدرة.(١) يقول الرازي: "الحياة سميت بذلك؛ لأن كمال حال الجسم أن يكون موصوفاً بها، فالمفهوم الأصلي من لفظ الحي كونه واقعاً على أكمل أحواله وصفاته".(٢)

فالله هو الحيُّ ذو الحياة التي لا تكون لغيره، فحياته كاملة ذاتية أزلية لم تسبق بعدم، ولم تبدأ من مبدأ، ولم تأت من مصدر آخر كحياة الخلائق، وهي أيضاً حياة أبدية لا تنتهي إلى نهاية، ولا يلحقها زوال، ولا توصف بنقص، قال تعالى: (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) [سورة الحديد: ٣]، وقال: (وتوكل على الحي الذي لا يموت) [سورة الفرقان: ٥٨]. والحياة بهذا المعنى يتفرد بها الله سبحانه.

ولذلك جاء اسم (الحيِّ) معرَّفاً بـ (ال)، ولم يقل (حيّ)؛ لأن التنكير يفيد أنه من جملة الأحياء، أمَّا التعريف بـ(ال) فيدلُّ على اختصاص الله سبحانه بالحياة الكاملة؛ لأن (الحيّ) معرفة في محل خبر للمبتدأ (الله)، وتعريف طرفي الجملة الاسميَّة يفيد القصر، فالله هو الحيّ، لا حيّ سواه على الحقيقة؛ لأنَّ حياته هي

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢/ ٤٩٢.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج٧/٧.

وجود أزلي سرمدي، وبقاء لا يعتريه فناء، وحياة من سواه يلحقها الموت.

والقصد من إثبات صفة الحياة لله بعد إثبات الألوهية له وحده: إبطال استحقاق آلهة المشركين وصف الإلهية، لانتفاء الحياة عنهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ) [سورة مريم: ٤٢].(١)

القيّوم: صيغة مبالغة من القيام، ومعناه: الَّذي قام بنفسه فاستغنى عن جميع خلقه، وهو دائم القيام في تدبير شؤون مخلوقاته من غير افتقار إلى أحد، وهذا الوصف لا يكون لمخلوق؛ لأنه ما من مخلوق إلا وهو محتاج إلى غيره، والكل محتاج إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [سورة فاطر: ١٥]؛ وما من أحد يكون قائماً على غيره في جميع الأحوال؛ بل في حدودٍ ضيقة؛ قال تعالى: (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) [سورة الرعد: ٣٣] أي: الله، فلا أحد سواه قائم على كل نفس بما كسبت.

وقد فصلت جملة (الحيُّ القيُّوم) عن التي قبلها ولم تعطف؛ لتكون بمنزلة البيان لما تضمنته جملة: (الله لا إله إلا هو) والتقدير: الله هو وحده المتصف بكمال الحياة، وكمال التدبير؛ وذلك يقتضي اختصاصه وحده بالإلهية؛ لأنّ من يختصُّ بتدبير أمور الكون يستحق أن يعبد وحده، وأمَّا الأصنام والآلهة المزعومة فلا تقدر على تدبير أمور نفسها فضلاً عن تدبير أمور الكون.(٢)

لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ

هذه الجملة تقرير لمضمون جملة: (الله الحي القيوم)؛ لرفع احتمال المبالغة فيها، وهي تنزل منزلة البيان لمعنى الحي القيوم؛ ولذلك فصلت عن التي قبلها.(٣)

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢/ ٤٩٢.

(٢) انظر: المرجع السابق، ج٢/ ٤٩٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢/ ٤٩٣.

والسِّنَة: النُّعاس الذي يسبق النوم. والنَّوم: غشيةٌ ثقيلةٌ تقع على القلب تمنع المعرفة بالأشياء. ولذلك جاءت السِّنة في الآية قبل النوم، لتقديم الأسبق. والمقصود أن الله لا يقهره نعاس، ولا يغلبه فتور، ولا يحجب سلطانه وقدرته سبب من أسباب الضعف، ولا يغفل عن شيءٍ دقيقٍ، ولا جليلٍ، فعبَّر بالسِّنة والنوم عن الغفلة، لأنهما سببها، فأطلق اسم السَّبب على مسببه.

وقد نزه الله تعالى نفسه عن السِنة والنَّوم، لما فيهما من الراحة، والله لا يجوز عليه التعب والاستراحة، ولأنَّ النوم آفةٌ، وهو منزَّهٌ عن الآفات، لأنها تُذهِل عن حفظ المخلوقات، وأقيم المذكور من الآفات مقام الجميع، تحقيقاً لكمال الحياة والعلم ودوام التدبير، فإن السِّنة والنوم يعوقان عن التدبير والعلم بما يحصل وقتَ استيلائهما على الإحساس من الضعف. ولو جاز على الله النوم، لم يقدر على حفظ السموات والأرض أن يضطرب النظام القائم فيهما.[1]

ونفي السِّنة عن الله لا يغني عن نفي النوم عنه؛ لأن من الأحياء من لا يعتريه نعاس، ومنهم من يأخذه فتور في غير وقت النوم غلبة،[2] ولذلك كرَّر (لا) في قوله: (ولا نوم)، لإفادة انتفائهما سواءً اجتمعا أو افترقا، ولو قال: (لا تأخذه سنة ونوم)، لاحتمل انتفاؤهما بقيد الاجتماع، من غير نفي الانفراد، ولربما توهَّم أحدٌ أنَّه سبحانه تأخذه سنة من غير نوم، أو يأخذه نوم من غير سِنَة.[3]

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ

هذه الجملة تقرير لانفراد الله بالإلهية؛ ونفيها عن غيره، إذ لا ينبغي أن يعبد إلاّ الله، لأنَّ ما عبد من دونه في السَّماء كالشَّمس والقمر والنجوم، أو في

(١) انظر: البحر المحيط، ج٢/ ٢٨٧، واللباب، ج٣١٨/٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج ٢ / ٤٩٤.
(٣) انظر: البحر المحيط، ج٢٨٨/٢.

الأرض كالأصنام، كلُّهم ملكٌ لله تعالى وتحت قهره.[1]

وهذه الجملة أيضاً تعليل لاتصاف الله بالقيومية، والمعنى: الله ملك الموجودات في السموات والأرض، وهو قائم بتدبير شؤونهما، لأنَّ من كان مالكاً للشيء كان حقيقاً ألا يهمله، ولذلك فصلت الجملة عن التي قبلها؛ لتكون بمنزلة التعليل لها.[2]

واللام في (له) لإفادة الملك. وكرَّر (مَا)، للتأكيد. أي: كل موجود في السماء والأرض من العقلاء والجمادات هو ملك لله تعالى وحده على الإحاطة والشمول.

وأوثر حرف الصلة (ما) ولم يقل: (مَنْ)؛ لأن المراد إضافة كلِّ ما سواه إليه بالخلق، والغالب عليه ما لا يعقل، ولذلك أجرى الغالب مجرى الكلِّ، فعبر عنه بـ (مَا)، ولأن (ما) تفيد ذوات غير العاقل وصفات العقلاء، فهي تفيد الشمول، ولذلك قال: (ما)؛ ليشمل العقلاء وغيرهم، ولو قال: (له من) لخصّ العقلاء.[3]

وقدّم الجار والمجرور على المبتدأ (له ما في السموات)؛ لإفادة القصر بتقديم ما حقَّه التأخير، أي: لله وحده لا لأحد غيره ملك السموات والأرض، وفائدة القصر إبطال عقائد المشركين الذين تركوا عبادة الخالق، وعبدوا مملوكاته.[4]

مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ

جملة (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) تتميم لمضمون جملة (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)؛ لأن لام الملك في (له) أفادت شمول ملك الله جميع ما في السماوات وما في الأرض، وقوله: (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه)؛ إثبات

(١) انظر: اللباب، ج٤/٣١٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢ / ٤٩٢.
(٣) انظر: اللباب، ج٤/ ٣١٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج٢ / ٤٩٥.

لكمال سلطان الله، وهذا غير عموم الملك؛ وانضمام قوة السلطان إلى عموم الملك أكمل.

(مَنْ) اسم استفهام، و(ذا) مزيدة للتأكيد؛ لعدم وجود مشارٍ إليه معيَّن يتعلَّق به حكم الاستفهام. وزيدت لتقوية معنى النفي.

والاستفهام مستعمل في الإنكار والنفي بقرينة الاستثناء منه بقوله: (إِلَّا بِإِذْنِهِ)، وجاءت الجملة بصيغة الاستفهام على سبيل الإنكار؛ مبالغةً في النفي.

والشفاعة: الوساطة في دفع المضرة، أو جلب المنفعة. والمعنى: لا أحد يملك أن يتكلَّم أو يشفع عنده بحقٍّ؛ لأن المخلوقات كلها ملكه، ولكن يشفع عنده من أراد هو أن يظهر كرامته، فيأذن له بأن يشفع فيمن أراد هو العفو عنه، كما قال تعالى: (لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) [سورة النبأ:٣٨]

فالشفاعة المنفية هنا: هي الشفاعة التي لا يسع المشفوع إليه ردَّها، وهذا النفي لا يتعارض مع ما صحَّ من شفاعة النبي ﷺ؛ لأن تلك كرامة أكرمه الله بها.

جاء في الحديث: أنَّ رسول الله ﷺ يأتيه الناس، ليكلم ربَّه ليخفف عنهم هول موقف الحساب، يقول النبي ﷺ: (فيأتوني، فأستأذن على ربي، فإذا رأيته وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله، ثم يقال لي: ارفع رأسك، سل تعطه، وقل يسمع، واشفع تشفع. فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يعلمني، ثم أشفع)[1] فسجوده استئذان، وتعليمه الكلمات مقدمة للإذن، ولا يشفع حتى يقال: اشفع.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

هذه الجملة: تكميل لما تضمنه مجموع جملتي (الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) وجملة (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)؛ فإن جملتي (الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) دلتا على عموم علمه بما حدث ووجد من الأكوان، ولم تدلا

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦١٩٧)، ج٥/ ٢٤٠١.

على علمه بما سيكون، فأكد وكمل بقوله: (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ).[1]

وهي أيضاً تعليل لجملة (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه)، أي: إنهم لا يعلمون من يستحق الشفاعة، وربما غرتهم الظواهر، والله يعلم من يستحقها فهو عالم بأحوال الشَّافع، والمشفوع له، وبما يتعلَّق بالثَّواب والعقاب؛ لأنَّه عالمٌ بجميع المعلومات لا يخفى عليه شيءٌ، والشُّفعاء لا يعلمون من أنفسهم أنَّ لهم من الطَّاعة ما يستحقُّون به هذه المنزلة العظيمة عند الله، ولا يعلمون أنَّ الله هل أذن لهم في تلك الشَّفاعة، أم لا. ولأجل هذين المعنيين فصلت الجملة عما قبلها.[2]

والمراد بـ(مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ):[3]

١ _ ما هو ملاحظ لهم من المعلومات وما خفي عنهم، وما ذهلوا عنه منها.

٢ _ ما هو واقع بعدهم وما وقع قبلهم، وعلمه بما في زمانهم أحرى.

٣ _ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ: ما مضى من آجالهم، وما خَلْفَهُم: ما يكون بعدهم.

٤ _ ما بين أيديهم: المستقبل؛ لأنهم يستقبلونه ويشاهدونه ويسعون للوصول إليه، وما خلفهم: الماضي؛ لأنه قد تخلف عنهم وانقطع، فلا يشاهدونه، ولا يتصلون به.

٥ _ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ: ما كان قبلهم من أمور الدُّنيا، وَمَا خَلْفَهُم: ما يكون خلفهم من أمور الآخرة.

٦ _ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ: الآخرة؛ لأنَّهم يقدمون عليها، وَمَا خَلفَهُمْ: الدُّنيا؛ لأنهم يخلفونها وراء ظهورهم.

٧ _ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِم: من السماء إلى الأرض، وَمَا خَلْفَهُم: ما في السَّموات.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢ / ٤٩٦.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ج٤/ ٣٢٠، والتحرير والتنوير، ج٢/ ٤٩٦.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ج٧/ ١٠، واللباب في علوم الكتاب، ج٤/ ٣٢٠.

٨ _ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ: ما قدموا من خير وشر، وَمَا خَلْفَهُمْ: ما هم فاعلوه.

٩ _ المحسوسات والمعقولات.

وأياما كان فاللفظ مجاز، والمقصود عموم العلم بسائر الكائنات.

وضمير (أَيْدِيهِمْ) و(خَلْفَهُمْ) عائد إلى (مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)؛ بتغليب العقلاء من المخلوقات؛ لأن المراد بما بين أيديهم وما خلفهم يشمل أحوال غير العقلاء، أو هو عائد على خصوص العقلاء من عموم ما في السماوات وما في الأرض، فيكون المراد ما يختص بأحوال البشر فقط؛ والقرينة ضمير (ولا يحيطون)؛ لأن العلم من أحوال العقلاء.[١]

وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء

عطفت جملة: (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ) على جملة (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)؛ لأنها تكملة لمعناها كقوله: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) [سورة البقرة: ٢١٦].

وحقيقة الإحاطة بالشيء تقتضي الاحتواء على جميع أطرافه، بحيث لا يشذ منه شيء. ومعنى لا يحيطون: لا يعلمون شيئاً من معلوماته علماً تاماً يقينيًّا.[٢]

والعلم في قوله: (مِنْ عِلْمِهِ) بمعنى المعلوم؛ ولذلك صحَّ دخول التَّبعيض، والاستثناء عليه، أما علم الله الذي هو صفةٌ قائمةٌ بذاته المقدَّسة فلا يتبعَّض.[٣]

وإضافة العلم إلى ضمير اسم الجلالة تخصيص له بالعلوم التي استأثر الله بها، ولم ينصب عليها دلائل عقلية أو عادية، ولذلك قال: (إِلَّا بِمَا شَاءَ)، للتنبيه على أنه قد يطلع بعض أصفيائه على ما هو من خواص علمه، كقوله: (عَالِمُ

(١) انظر: تفسير البيضاوي، ج١/ ٥٥٤، والتحرير والتنوير، ج٢/ ٤٩٦.
(٢)انظر: التحرير والتنوير، ج ٢ / ٤٩٧.
(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ج٤/٣٢١.

الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) [سورة الجنّ: ٢٧][١]

إِلاَّ بِمَا شَاء: في معنى (ما) والاستثناء قولان: الأول: أن تكون (ما) اسماً موصولاً، بمعنى: إلا بالذي شاء، والمعنى: أنَّهم لا يعلمون شيئاً من معلوماته إلا ما أراد هو أن يعلمهم، كقوله تعالى: (لاَ عِلْمَ لَنَآ إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَآ) [سورة البقرة: ٣٢].

والثاني: أن تكون (ما) مصدرية، بمعنى: إلا بمشيئته. والمعنى: أنَّهم لا يعلمون الغيب، إلاَّ إن شاء أن يطلع بعض أنبيائه عليه، كقوله تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ) [سورة الجن: ٢٦ - ٢٧].[٢]

وكلا المعنيين مرادٌ، فالخلق لا يحيطون بعلمه إلا بمشيئته، ولا يحيطون إلا بما يريد أن يعلمهم إياه، وفق النوع الذي يريده، وبالقدرالذي يريده.

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ

قوله: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) تقرير لما تضمنته الجمل كلها من عظمة الله وكبريائه وعلمه وقدرته وبيان عظمة مخلوقاته المستلزمة عظمة شأنه.

وهذه الجملة تتميم لمعنى قول الله: (له ما في السموات وما في الأرض)، للإخبار أنَّ الله سبحانه يملك السماء والأرض أيضاً، بعد الإخبار أنَّ ما في السماء والأرض ملكٌ له سبحانه؛ لدفع توَّهم قصور ملكه على ما في السماء والأرض فقط، لأنَّ المالك قد يملك الشيء لكن لا يملك ما فيه، أو العكس، ولذلك بدأ ببيان ملكيته لما في السموات وما في الأرض، ثمَّ ذكر أنَّ ملكه يشمل السموات والأرض أيضاً.[٣]

وَسِعَ: السِّعة: الإحاطة أو القدرة، والمراد هنا الإحاطة، بقرينة ذكر السماء والأرض، والمعنى: أحاط السموات والأرض وغمرهما من جميع الجوانب.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢ / ٤٩٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج٧/ ١١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢/ ٤٩٧.

والكُرْسِيُّ: مشتقٌّ من الكِرْسِ وهو الجمع؛ وأصله من تراكب الشَّيء بعضه على بعض، ومنه الكرَّاسة، لتجمّع أوراقها، وتراكب بعضها فوق بعض، والكُرْسِيُّ في تعارف العامة: اسم لما يقعد عليه؛ لتركب خشباته بعضها فوق بعضٍ.[١] وهذ المعنى غير مراد في الآية؛ إذ لا يليق بالله تعالى التحيُّز.

وقد اختلف المفسرون في معنى الكرسي المذكور في الآية على أقوال،[٢] منها:

١ _ الكرسي: اسم للفلك المحيط بالأفلاك كلها، وهو جسم بين يدي العرش محيط بالسموات السبع، وهو أصغر من العرش. وهذا المعنى أرجح المعاني، وإليه ذهب جمهور المفسرين،[٣] ويؤيده عدد من الآثار، فعن أبي ذر ﷺ: أنَّ النبي ﷺ قال: (يا أبا ذر ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة)[٤]

وروى الطبري بسنده أنَّ النبيّ ﷺ قال: "ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس."[٥]

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قَال: "لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ بُسِطْنَ، ثُمَّ وُصِلْنَ بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْضٍ، مَا كَانَ فِي سِعَتِهِ، يَعْنِي: الْكُرْسِيَّ، إِلا بِمَنْزِلَةِ الْحَلَقَةِ فِي الْمَفَازَةِ".[٦]

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٧٠٦، واللباب، ج٣٢٢/٤.

(٢) انظر: روح المعاني، ج٣/ ٩ –١٠.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ج١١/٧، وتفسير ابن كثير، ج٣٨٢/١، والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١٤١٨/١هـ-١٩٩٨م، ج٣/ ١٤.

(٤) صحيح ابن حبان، كتاب المواعظ والرقائق والخطب والحكم من قسم الأفعال، باب خطب النبي ﷺ ومواعظه، رقم (٤٤١٥٨)، ج٧٦/٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري، ج٣٩٩/٥.

(٦) تفسير القرآن العظيم مسندًا عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، للحافظ عبد الرحمن بن محمَّد ابن إدريس الرازي ابن أبي حاتم (٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرَّمة والرياض، ط١٤١٧/١هـ-١٩٩٧م، ج٢٦٠/٢.

٢ _ الكرسي هو العرش، وهو قول الحسن البصري، واختاره ابن عاشور؛ لأن الكرسي لم يذكر في القرآن إلا في هذه الآية، وتكرر ذكر العرش، ولم يرد ذكرهما مقترنين، فلو كان الكرسي غير العرش لذكر معه كما ذكرت السماوات مع العرش في قوله: (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) [سورة المؤمنون:٨٦].(١)

٣ _ وقيل: الكرسي مجاز عن علم الله، لأن موضع العالِم هو الكرسي، إذ يجلس عليه ليعلِّم الناس، ومنه الكراسة: وهي الصحائف التي تجمع العلم.

٤ _ وقيل: هو مجاز عن ملك الله، وسلطانه وقدرته، لأن الملك في حال حكمه وأمره ونهيه يجلس على الكرسي، يقولون: فلان صاحب الكرسي، أي: هو ملك المملكة.

٥ _ وقيل: ليس ثمة كرسي ولا قاعد ولا قعود، وإنما ذكر الكرسي تمثيل لعظمة الله، وسعة سلطانه، وإحاطة علمه بالأشياء قاطبة، على طريقة قوله تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) [سورة الزمر:٦٧] وهذا المعنى اختاره الزمخشري والبيضاوي وأبو السعود.(٢)

وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

عطفت هذه الجملة على جملة (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ)؛ لأنها من تكملتها، ولأن فيها ضميراً يعود على الجملة التي قبلها، ومعنى الآية: إنَّ الذي أوجد تلك العوالم لا يثقله ولا يشقُّ عليه أن يحفظها، مع عظمتها واتساع حجمها.(٣)

وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ: العليُّ: المتعالي عن الأشباه والأنداد، أو القاهر الغالب،

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢/ ٤٩٧.

(٢) انظر: الكشاف، ج١/ ٣٢٨، وتفسير البيضاوي، ج١/ ٥٥٥، وتفسير أبي السعود، ج٢٤٨/١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٤٩٧/٢.

يقال: علا فلان فلاناً، أي: غلبه وقهره، والعظيم: الجليل القدر والشّرف والسلطان، أو المعظَّم الذي يعظمه خلقه ويهابونه ويتقونه.(١)

فالعلو والعظمة مستعاران لشرف القدر والمنزلة، وليس المراد علو المكان، ولا عظمة الأجرام والمساحة؛ لأن الله سبحانه منزه عن التحيز، ومشابهة الحوادث.(٢)

والتعريف بـ(ال)؛ لإفادة القصر والحصر على الحقيقة، والدلالة على تفرد الله سبحانه بالعلو والعظمة، ولذلك لم يقل: (وهو عليّ عظيم)، لأن هذا التعبير يفيد إثبات الصفة مجرَّداً عن الحصر، أما التعبير القرآني: (وهو العلي العظيم) فيقصر الوصفين على الله سبحانه نافياً وجود مثيل يماثله بالاتصاف بهما، فالمخلوقات مهما علت وتعاظمت لن تتجاوز مقام العبودية لله العلي العظيم.

الأساليب البلاغيَّة:

١_ **حسن الافتتاح:** افتتحت الآية بأجلِّ أسماء الله تعالى، **والإطناب** بذكر الصفات الجليلة، وذكر اسم الله ظاهراً ومضمراً في سبعة عشر موضعاً.(٣)

٢_ **قطع الجمل:** حيث لم يصلها بحرف العطف، لأنها كلها في حكم البيان: فالأولى: بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمناً عليه غير ساهٍ عنه، والثانية: لكونه مالكاً لما يدبره، والثالثة: لكبرياء شأنه، والرابعة: لإحاطة علمه بأحوال الخلق، والخامسة: لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها، أو بجلاله وعظيم قدره.(٤)

٣_ **الطباق:** في (السموات والأرض)، و(ما بين أيديهم وما خلفهم)، وبين (الْحَيُّ

---

(١) انظر: تفسير الطبري، ج٥/ ٤٠٦، والمحرَّر الوجيز، ج١/ ٣٣٦، والبحر المحيط، ج٢/٢٩١.

(٢) انظر: اللباب، ج٤/ ٣٢٤.

(٣) انظر: حاشية الانتصاف من الكشاف، للعلامَّة أحمد بن محمد، المعروف بابن المنير، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط، ١٤٠٧هـ، ج١/٣٠١.

(٤) انظر: الكشاف، ج١/ ٣٢٩.

الْقَيُّومُ) و(لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ)؛ فإن النوم موت وغفلة، والحي القيوم يناقضه.

٤_ **أسلوب المجاز**: في التعبير بالكرسي مجازاً عن العلم والقدرة، والملك والسلطان، وذكر السنة والنوم للتعبيرمجازاً عن الضعف والآفات.

٥_ **أسلوب القصر**، بالنفي والاستثناء في قوله: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)، (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)، وقوله: (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) وبتقديم ما حقه التأخير في قوله: (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)، وبتعريف طرفي الجملة الاسمية في قوله: (الْحَيُّ الْقَيُّومُ)، وقوله: (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

المعنى الإجمالي لآية الكرسي:

الله الإله الواحد الذي لا إله يُعبد بحقٍّ إلا هو، ذو الحياة الكاملة الذاتية الأزلية التي لا تبدأ من مبدأ، ولم تأت من مصدر آخر كحياة الخلائق. ذو الحياة الأبدية التي لا تنتهي إلى نهاية، ذو الحياة المتجرّدة عن الاحتياجات، والمطلقة من الخصائص التي تحدِّد معنى الحياة في مفهوم البشر.

القيوم الَّذي قام بنفسه فاستغنى عن جميع خلقه، وبه قامت جميع المخلوقات فلا تستغني عنه في كل أحوالها، ولا قيام لها إلا بالاستناد إلى وجوده وتدبيره، لا يقهره سبب من أسباب الضعف، ولا تستولي عليه غفلة ولا نوم.

له وحده ملك جميع الكائنات في أقطار الكون جميعها أرضها وسماءها، ولا يملك أحد أن يشفع عنده لأحد إلا بعد أن يأذن ويرضى، فالعبيد جميعاً يقفون في حضرة الله موقف العبد الخاشع الخاضع؛ الذي لا يقدم بين يدي ربه؛ ولا يجرؤ على الشفاعة عنده، إلا بحدود ما يأذن به.

يعلم علماً شاملاً مستقصياً ما مضى من أمور خلقه مما وقع، وما يستقبلونه مما لم يقع، ويعلم حاضرهم الذي بين أيديهم؛ وغيبهم ما مضى منه وما سيأتي، وما هو عنهم محجوب، ويعلم ما يعلمونه من الأمور وما يجهلونه، أما

هم فلا يعلمون شيئاً إلا ما يأذن لهم الله أن يعلموه، ولا يحيطون بما هو معلوم له، إلا القدر الذي شاء الله أن يطلعهم عليه.

أحاط كرسيه بالسموات والأرض مع سَعَتِهما وعِظَمِهما، ولا يُثْقِلُه أو يشق عليه أن يحفظهما.

وهو العَليُّ الغالب القاهر لجميع خلقه، المعظَّم الجليل الشأن، المتعالي عن الندِّ والنظير.

الفوائد والأحكام:

أولاً: هذه الآية تملأ القلب مهابة من اللّه وعظمته وجلاله وكماله، فهي تدل على أنَّ اللّه تعالى متفرد بالألوهية والسلطان والقدرة ، قائم على تدبير الكائنات في كل لحظة، لا يغفل عن شيء من أمور خلقه، وهو مالك كل شيء في السموات والأرض، لا يجرأ أحد على الشفاعة لأحد إلا بإذنه، ويعلم كل شيء في الوجود، ويحيط علمه بكل الأمور وأوضاع الخلائق دقيقها وعظيمها، ويظلُّ مع تدبير الخلائق والعلم المحيط بالأشياء هو العلي الشأن، القاهر الذي لا يغلب، العظيم الملك والقدرة على كل شيء سواه، فلا موضع للغرور، ولا محل لعظمةٍ أمام عظمة اللّه تعالى.[1]

ثانياً: قال بعض العلماء: اسم الله الأعظم في اجتماع هذين الاسمين (الحيُّ القيُّوم)؛[2] لأنهما تضمنا جميع الأسماء الحسنى؛ فصفة الكمال في (الحي)؛ وصفة الإحسان والسلطان في (القيوم).

أخرج الحاكم بسنده عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة ﷺ: عن النبي ﷺ قال: "إن اسم الله الأعظم لفي ثلاث سور من القرآن: في سورة البقرة، وآل عمران، وطه، فالتمستها فوجدت في سورة البقرة آية الكرسي (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ

(١) انظر: التفسير المنير، ج٣/١٩.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي، ج٢/ ٣، وتفسير أبي السعود، ج٢/٣.

هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)، وفي سورة آل عمران (ألم اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)، وفي سورة طه (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ).[1] وفي رواية: (قال القاسم : فالتمستها إنه الحي القيوم)[2]

ثالثاً: دلَّت الآية على وجوب التماس حكم الله في قضايا الحياة وشؤونها عامَّةً؛ لأن مخالفة حكم الله إلى حكم المخلوقين يَنمي عن تمرد العبد المملوك على مالكه.

رابعاً: في إثبات ملكيَّة الله للمخلوقات تسلية للإنسان عن المصائب، وحثٌّ له على الرضا بقضاء الله وقدره.

ولذلك قال النبي ﷺ معزِّياً ابنته بوفاة ولدها: "إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى"[3]

خامساً: دلَّت الآية على إثبات الشفاعة يوم القيامة؛ بدلالة الاستثناء في قوله تعالى: (إلا بإذنه)؛ فلو لم تكن وجائزة ما صحَّ الاستثناء.

وقد بينت آيات في القرآن الكريم أنه يشترط لحصول الإذن بالشفاعة: رضى الله عن الشافع؛ وعن المشفوع له؛ لقوله تعالى: (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) [سورة النجم: ٢٦]، وقوله تعالى: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) [سورة الأنبياء: ٢٨].

وفي ذلك ردٌّ على الخوارج والمعتزلة الذين ينكرون الشفاعة في أهل الكبائر؛ ويقولون أنَّه خالد في النار لا تنفع فيه الشفاعة.

---

(١) المستدرك على الصحيحين، كتاب الإمامة وصلاة الجماعة، باب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، رقم (١٨٦٦)، ج١/٦٨٦.

(٢) المستدرك، كتاب الإمامة وصلاة الجماعة، باب الدعاء والتكبيروالتهليل والتسبيح والذكر، رقم (١٨٦١)، ج١/٦٨٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ (يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه) إذا كان النوح من سنته، رقم (١٢٢٤)، ج١/ ٤٣١.

جامعة
حلب
١٩٥٨
UNIVERSITY
OF
ALEPPO

تفسير سورة الحجرات

تعريفٌ عامٌّ بسورة الحجرات:

تسمى هذه السورة سورة الحجرات لورود ذكر الحجرات فيها.

وهي سورة مدنية بالاتفاق، وجميع آياتها مدنيَّة نزلت بعد الهجرة في السنة التاسعة.

وذكر الواحدي أن قوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) [سورة الحجرات: ١٣] نزلت بمكة، يوم فتح مكة، وخالف بذلك جمهور المفسِّرين، إذ لم يثبت لديهم أن تلك الآية نزلت بمكة.

وهي السورة الثامنة بعد المائة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم.

عدد آياتها ثمان عشرة آية بالاتفاق.

وذهب الحنفيَّة في الأرجح عندهم وبعض الشافعيَّة إلى أنَّ هذه السورة هي أول سور المفصّل.[1]

أهداف سورة الحجرات، ومقاصدها:

المقصد الأساس لسورة الحجرات هو التحذير من الأخلاق السيئة، وتقرير النظام الأخلاقيِّ الذي ينبغي أن يحكم علاقات أفراد المجتمع سواء في:

١ _ تعامل أفراد الأمة مع قائدهم، ويحكمه التقدير والاحترام.

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن، ج١/ ٤٣، والمفصَّل هو السور الأخيرة من القرآن، وتبدأ من سورة الحجرات على الأصح، وسميت بذلك لكثرة الفصل فيها بين السور بالبسملة من أجل قصرها، وقيل سميت بذلك لقلة المنسوخ فيها. انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ عبد العظيم الزرقاني (١٣٦٧هـ)، تح: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، ط١/١٩٩٦م، ج١/ ١٣٩.

٢ _ تعامل أبناء المجتمع الواحد، ويحكمه النصح، والصلح، وتحقيق العدل.

٣ _ تعامل أبناء المجتمع الواحد مع أبناء المجتمعات الأخرى ويحكمه التعارف والتنافس بالفضائل والأخلاق، والتقوى.

ولذلك نجد سورة الحجرات تهدف إلى:

أولاً: تعليم المسلمين آداب التعامل مع النبي ﷺ، ومنها: توقيره، وانتظار حكمه في الأمور، وخفض الصوت في مخاطبته ﷺ.

ثانياً: تنظيم علاقات المسلمين بعضهم مع بعض، ووضع القواعد الأخلاقية التي ينبغي أن يقوم عيها المجتمع الإسلامي، وأساسها: الصدق في نقل الأخبار، والتثبُّت من الأخبار المنقولة، وقيام علاقات الأفراد والجماعات على أساس الصلح والعدل، واجتناب السخرية والتنابز بالألقاب، والابتعاد عن سوء الظَّنِّ والتجسُّس والغيبة، ومجانبة الجفاء الذي كان سائداً في الجاهليَّة.

ثالثاً: التعامل مع الشعوب المختلفة يقوم على أساس المساواة، والتعارف، وترك التناحر والتفاخر بالأحساب والأنساب والألوان والأعراق.

مناسبة سورة الحجرات لما قبلها:

أولاً: افتتح الله سورة الفتح بتشريف النبي ﷺ وتعظيم حقِّه، وختمها بذكر اسمه في قوله: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ) [الفتح: ٢٩]،

ثمَّ أمر في هذه السورة بتوقير النبي ﷺ وبيَّن آداب معاملته ﷺ.(١)

ثانياً: في سورة الفتح ذكر الله أحكام قتال الكفار.

وفي سورة الحجرات ذكر أحكام قتال البغاة.(٢)

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لأبي الحسن برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (٨٨٥هـ)، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط./١٤١٥هـ-١٩٩٥م، ج٧/٢٢٠.

(٢) أسرار ترتيب القرآن، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩٨١١هـ)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، ص ١٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

[سورة الحجرات: ١ – ٥]

مناسبة الآيات لما قبلها:

ختمت سورة الفتح بذكر النبيِّ ﷺ والذين آمنوا معه بقوله: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ) [سورة الفتح: ٢٩].

وافتتحت سورة الحجرات بذكر الذين آمنوا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)، والأمر بتوقير النبي ﷺ.

أسباب النزول:

عَنْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه: "أَنَّهُ قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: أَمِّرْ الْقَعْقَاعَ بْنَ مَعْبَدِ بْنِ زُرَارَةَ، قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: بَلْ أَمِّرْ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلَافِي. قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ، فَتَمَارَيَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا، فَنَزَلَ فِي ذَلِكَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا).[1]

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني تميم، رقم (٤١٠٩)، ج١٥٨٧/٤.

وعن نَافِعُ بْنُ عُمَرَ عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: "كَادَ الْخَيِّرَانِ أَنْ يَهْلِكَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رَفَعَا أَصْوَاتَهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ رَكْبُ بَنِي تَمِيمٍ، فَأَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ، وَأَشَارَ الْآخَرُ بِرَجُلٍ آخَرَ، - قَالَ نَافِعٌ لَا أَحْفَظُ اسْمَهُ - فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ: مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلَافِي. قَالَ: مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ) الْآيَة. قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: فَمَا كَانَ عُمَرُ ﷺ يُسْمِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ."(١)

وعن أَبِي بَكْر ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية: (يا أيها الذين آمنوا لاَ ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيِّ) قلت: يا رسول الله، والله لاَ أكلمك إلا كأخي السرار."(٢)

معاني المفردات:

لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ: التقدم حقيقته: المشي قبل الغير، وقدَّم بمعنى تَقدم، أي: قدّم نفسه، ومنه مقدمة الجيش: للجماعة المتقدمة منه.

أن تحبط أعمالكم: انتهوا عمّا نهيتم عنه؛ لئلا يذهب ثواب أعمالكم.

يغضون أصواتهم: يخفضون أصواتهم في حضرة النبي ﷺ، وعند مخاطبته.

امتحن: الامتحان: الاختبار والتجربة، من مَحَنه، إذا اختبره، يقال: امتحنْتُ الفضة، أي: اختبرتها حتى خَلَصتْ، ومعنى: امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ اختبرها وأخلصها للتقوى.

الحُجُرات: جمع حُجْرة وهي البقعة المحجورة، أي التي مُنِعَت من أن يستعملها غير حاجرها. والمراد هنا بيوت النبي ﷺ، وكانت تِسعاً.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة الحجرات، رقم (٤٥٦٤)، ج٤/ ١٨٣٣.

(٢) مسند البزَّار، مؤسسة علوم القرآن، بيروت ط/١٤٠٩هـ، ج١/١٢٧.

القراءات والإعراب:

لا تقدموا: قرأ يعقوب (لَا تَقَدَّمُوا) بفتح التاء والدال من الفعل اللازم، أي: لا تتقدموا، وقرأ الباقون (لَا تُقَدِّمُوا) بضم التاء وكسر الدال من الفعل المتعدي.(١)

كجهر بعضكم لبعض: الكاف في موضع نصب نائب مفعول مطلق محذوف تقديره: جهراً مثل جهر، والجار "لبعض" متعلق بالمصدر (جهر).

أن تحبط أعمالكم: في محل نصب على نزع الخافض، وهو لام التعليل والتعليل للمنهي عنه، والتقدير: خشية أن تحبط أعمالكم إن لم تكفوا.

وأنتم لا تشعرون: جملة حالية.

لهم مغفرة: إما خبر إنّ، وما بينهما اعتراض. أو خبر (إنَّ) هو اسم الإشارة (أولئك) مع خبره، وجملة (لهم مغفرة) مستأنفة. أو جملة (أولئك الذين) خبر (إنَّ)، وجملة (لهم مغفرة) خبر ثانٍ لـ (إنَّ).

الْحُجُرَاتِ: قرأ أبو جعفر (الْحُجَرَاتِ) بفتح الجيم، وقرأ الباقون (الْحُجُرَاتِ) بضم الجيم.(٢)

أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ: الجملة في محل رفع خبر (إنّ).

لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ: اسم (كان) يعود على الضمير المفهوم مِنْ (صبروا)، أي: لكان الصبر. والجار (لهم) متعلق بـ (خيراً).

الأساليب اللغوية:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

افتتح الله السورة بنداء المؤمنين للتنبيه على أهمية ما يرد بعد ذلك

(١) النشر، ج٢/ ٤١٥.

(٢) المرجع السابق، ج٢/ ٤١٥.

النداء؛ لترقبه أسماعهم بشوق. ووَصْفُهم بالذين آمنوا؛ لتحريك ضمائرهم إلى العمل بمقتضى ما آمنوا به، وقَبول شرع الله والمحافظة عليه بمقتضى إيمانهم، وللإيذان بوجود الأهليَّة لديهم؛ لتلقي هذا النهي بالامتثال.

والتقدم حقيقته: المشي قبل الغير، والمعنى: اتبعوا الله ورسوله، ولا تسبقوه بالحكم في أيِّ أمرٍ من أمور الدين أو الحكم أو السياسيَّة، بل انتظروه حتى يحكم فيه فهو إمام الأمة، والنبيِّ المرسل بالوحيِّ.

وحذف مفعول (تُقدِّموا) للقصد إلى تعميمه؛ ليشمل جميع الأمور، أو للقصد إلى نفس الفعل من غير اعتبار تعلقه بأمر من الأمور، وذلك أوفى بحق المقام؛ لإفادته النهى عن التلبس بنفس الفعل الموجب لانتفائه بالكلية، وذلك يستلزم انتفاء تعلقه بمفعوله بالطريق الأولى.

والنهي يشمل تحذير المسلمين أن يتقدموا بآرائهم على رأي رسول الله ﷺ، أو أن يبادروا إلى تقديم الاقتراحات بين يديه ﷺ، ومقابلة آرائهم برأي النبي ﷺ الصادر عن الوحي، ولذلك قدَّم ذكر اسم الله فقال: (بين يدي الله)؛ لتعظيم شأن النبي ﷺ، والإيذان بجلالة محله عند الله سبحانه، والإشارة إلى أنَّ مراد الله إنما يعرف من قبل رسوله ﷺ.[1]

والتَّقدُّم المنهي عنه هو ما كان في حال إمكان الترقُّب وانتظار ما يبرمه الرسول ﷺ بأمر الله، أما إبرام الأمر في غيبة الرسول ﷺ فإنَّه لا حرج فيه.[2]

وقد خُتِمَت الآية بالتحذير من مخالفة هذا النهي (وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) أي: خافوا الله واجعلوا لأنفسكم وقاية من عقابه.

فإنَّه سميع لأقوالكم عليم بأعمالكم، وسوف يجزيكم جزاءً لائقاً بامتثالكم أو مخالفتكم.

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي، ج٨/١١٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/١٨٠.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ

أعاد النداء بوصف الإيمان (يا أيها الذين آمنوا) مع قرب العهد به؛ للمبالغة في الإيقاظ والتنبيه، والإشعار بأنَّه غرض جدير بالتنبيه عليه بخصوصه، لاستدعاء الاعتناء بشأنه.(١)

ومقصود الآية: بيان الآداب التي ينبغي التحلّي بها في خطاب النبي ﷺ، وهي:

أ _ خفض الصوت في مجلس النبي ﷺ وبحضرته إذا كلم الناس بعضُهم بعضاً، بحيث لا تتجاوز أصواتهم بجهرها الحدَّ المعتاد الذي يبلغه النبيُّ بصوته.

ب _ أن يكون كلام النبيّ ﷺ غالباً لكلامهم، وجهره باهراً لجهرهم، بحيث لا يَغمر صوتَه صخبُ الناس حوله.

ج _ ألا يخاطب النبي ﷺ: يا محمَّد، يا أحمد، كما يخاطب الأقران بعضهم بعضاً، ولكن يُنادى: يا نبي الله، أو يا رسول الله؛ توقيراً له.

وقوله تعالى: (لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) نهيٌ عن الجهر بالصوت في مجلس النبي ﷺ وبحضرته، أما قوله: (وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ) فهو نهي عن الجهر بالصوت عند خطاب الرسول ﷺ؛ لوجوب التغاير بين مقتضَى المعطوف (ولا تجهروا له بالقول) والمعطوف عليه، (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي)، ولأن اللام في (له) لتعدية (تجهروا)؛ لأن (تجهروا) في معنى: تقولوا، فدلت اللام على أنَّ هذا الجهر يتعلق بمخاطبته، وزاد المعنى وضوحاً التشبيه في قوله: (كجهر بعضكم لبعض).(٢)

وقوله: (وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ) يحتمل معنيين:

---

(١) انظر: الكشاف، ج٤/ ٣٥٤، والتحرير والتنوير، ج٢٦/ ١٨٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/ ١٨٤.

الأول: لا تجهروا بالقول إذا كلمتموه كالجهر الجاري فيما بينكم، بل اجعلوا صوتكم أخفض من صوته ﷺ، والتزموا في مخاطبته الصوت القريب من الهمس، كما يُخاطَبُ الرجل المعظَّم، مراعاة لقدر النبوة وجلالة شأنها.

الثاني: لا تخاطبوه باسمه فتقولوا له: يا محمد يا أحمد، كما يخاطب بعضكم بعضاً، بل خاطبوه بوصف النبوة والرسالة: يا نبي الله، يا رسول الله.(١)

والنهي في الآية مخصوص بغير المواضع التي يؤمر بالجهر فيها، كالأذان وتكبير يوم العيد، وهذا النهي لا يتناول أيضاً رفع الصوت الذي لا يتأذى به ﷺ، وهو ما كان في حربٍ أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو وما أشبه ذلك.(٢)

أن تحبط أعمالكم: ظاهر الآية التحذير من حبط جميع الأعمال؛ لأنَّ الجمع المضاف من صيغ العموم، وحبط جميع الأعمال لا يكون إلا في حال الكفر، وبذلك يكون معنى الآية: إنَّ عدم الاحتراز من سوء الأدب مع النبي ﷺ بعد هذا النهي قد يفضي بفاعله إلى إثم عظيم، يذهب بثواب الأعمال الصالحة، أو يفضي به إلى الكفر؛ لأنَّ عدم الانتهاء عن سوء الأدب مع الرسول ﷺ يعود النفس على الاسترسال فيه، فلا تزال تزداد منه، وتتدرَّج في النقص من توقير الرسول ﷺ في النفس حتى يؤول إلى عدم الاكتراث بالتأدب معه ﷺ، وذلك كفر. ويدل على ذلك التذييل بقوله: (وأنتم لا تشعرون)؛ لأنَّ المنتقل من سيء إلى أسوأ لا يشعر بأنَّه آخذ في التملّي من السوء؛ بحكم الاعتياد عليه قليلاً قليلاً حتى تغمره المعاصي، وربّما تغريه النفس بالإقدام على الكفر.

ففي قوله: **(وأنتم لا تشعرون)** تنبيه إلى الحذر من المهلكات حتى يصير ذلك دُربةً تصل بصاحبها إلى إحباط العمل، وليس المقصود: عدم الشعور الكائن

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي، ج٨/١١٦.

(٢) انظر: الكشاف، ج٤/ ٣٥٤، وتفسير أبي السعود، ج٨/ ١١٧.

في أثناء إتيان الفعل المنهي عنه؛ لامتناع تكليف الغافل.[1]

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ

في هذه الآية أثنى الله على الذين يخفضون أصواتهم حين يكلمون الرسول ﷺ أو يكلمون غيره بين يديه إجلالًا له، وأخبر بأنَّ الذين يفعلون ذلك هم الأتقياء الذين يستحقُّون الأجر العظيم جزاء توقيرهم النبيَّ ﷺ.

وهذا الوعد يشمل ابتداءً أبا بكر وعمر رضي الله عنهما إذ كانا يكلّمان رسول الله ﷺ كأخي السِّرار.

والامتحان: الاختبار والتجربة، ويترتَّب عليها العلم بالشيء، وقوله: (امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى) يحتمل معاني متعددة:

الأول: امتحن أي اختبر الله قلوبهم؛ ليظهر ما فيها من التقوى، من قولك: امتحن فلان للقيام بالأمر، وجُرِّب له، ودُرِّب للنهوض به. فهو مضطلع به غير متوانٍ عنه. والمعنى أنَّهم أتقياء، أقوياء على احتمال مشاقها.

والمعنى: اختبرهم الله بالأوامر التي تظهِرُ أنَّهم متَّقين. وعلى هذا المعنى تكون اللام للتعليل، والتعليل هنا يجري مجرى بيان السبب المتقدم، كما يقول القائل: جئتك لإكرامك لي أمس، أي صار الإكرام السابق سبب المجيء.

الثاني: امتحن قلوبهم: أي: أخلصها، كقولك: امتحنت الذهب، أي اختبرته حتى خلص من شوائبه ونقِّيَ، ففي الكلام محذوف يدل عليه الكلام، وهو الإخلاص.

والمعنى: أخلصها للتقوى، واللام للتعليل والتعليل لبيان غاية الأمر المقصود

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/ ١٨٥.

الذي يكون لاحقاً للأمر لا سابقاً له، كقولك: جئتك لأداء الواجب. والمعنى: امتحن الله قلوبهم، ليجعل فيها التقوى.(١)

الثالث: الامتحان مجاز مرسل للتعبير عن العلم والمعرفة؛ لأنَّ الامتحان يؤول إلى معرفة الشيء، فيجوز استعماله في معناه، وعلى هذا فاللام للاختصاص، وهي بمعنى اللام التي في قولك: أنت لهذا الأمر، أي كائن له ومختص به، وهي تتعلق بمحذوف تقديره: كائنة أو صالحة، والمعنى: (عرف الله قلوبهم صالحة للتقوى). (٢)

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ

ما زال سياق الآيات في الحديث عن آداب مخاطبة النبي ﷺ، وفي هذه الآية ذمَّ الله تعالى أعراب بني تميم الذين وفدوا إلى المدينة للقاء النبي ﷺ، وكان من عادة النبيِّ ﷺ أن ينام القائلة -نصف النهار- فوفد الأعراب وقت استراحته ﷺ، وجعلوا ينادونه من وراء الحجرات بأصوات مرتفعة ليخرج إليهم، فأنزل الله الآية؛ لبيان الأدب اللائق بمقام النبيِّ ﷺ ومكانته الرفيعة، وتأديباً للقوم الذين نزلت الآية في حقِّهم، وتحذيراً للمؤمنين من فعلهم.

والمراد بـ (**الذين يُنَادُونَكَ**) رجال وفد بني تميم، وإسناد فعل النداء إلى ضمير الجمع؛ لأنَّ جميعهم نادوه إمَّا بالطواف على حجراته حجرة حجرة والنداء من ورائها، أو بالتفرُّق على الحجرات طلباً لخروج النبي ﷺ إليهم.

وقيل: إنَّ الذي نادى رجلٌ واحد - هو الأقرع بن حابس - وإسناد فعل (ينادونك) إلى ضمير الجماعة مجاز عن نسبة فعل المتبوع إلى أتباعه؛ إذ كان الأقرع بن حابس أمير الوفد، أو أسنده إلى الكل؛ لأنَّهم رضوا بفعل المنادي

(١) انظر: الكشاف، ج٤/٣٥٨، ومفاتيح الغيب، ج٢٨/٩٩.
(٢) انظر: الكشاف، ج٤/٣٥٨.

وأقروه. وإقرار المنكر كفعله.[1]

وهذا النداء وقع قبل نزول الآية، وأوثِرَ التعبير بصيغة المضارع (ينادونك)، ولم يقل: (إنَّ الذين نادوك)؛ لاستحضار حال ندائهم الماضية إلى الذهن، واستثارة العجب والنفرة مما فعله أولئك الأعراب من النداء الجافي.

مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ: الوراء: مجاز في الجهة المحجوبة عن الرؤية، مأخوذة من المواراة والاستتار. والمعنى: أنَّ الحجرات حاجزة بينهم وبين النبي ﷺ، فهم لا يرونه.

وعبَّر عن جهة مَن لا يُرى بأنَّها وراء، ولم يرد ظهرها أو خلفها.[2]

والحُجُرات: بيوت النبي ﷺ، وإنَّما ذكر الحجرات بدلاً من البيوت؛ لأنَّ البيت كان بيتاً واحداً مقسماً إلى حجرات تسع. وتعريف الحجرات باللام تعريف العهد، والمراد حجراته ﷺ، فلذلك لم تعرف بالإضافة.

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ: قوله: (أَكْثَرُهُمْ) يحتمل وجوهاً من المعاني:

الأول: أن يراد به الكل، لأنَّ العرب تذكر الأكثر وتريد الكل، احترازاً عن الكذب واحتياطاً في الكلام، لأنَّ الكل مما لا يحيط به علم الإنسان في بعض الأشياء.

وقد أتى الله بما يناسب كلامهم مع إحاطة علمه بالأمور، إشارة إلى استحسان تلك العادة في الكلام.

الثاني: أن يكون المراد أنَّهم في أكثر أحوالهم لا يعقلون، فهم في أحوالهم تلك مغايرون لأنفسهم بعد اتصافهم بأحوال أخرى، وبيان ذلك: أنَّ الإنسان إذا اتصف بوصف ثم انتقل إلى وصف آخر، كأن يكون جاهلاً فيصير عالماً، فإنه

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج١٨٨/٢٦، وحول تفسير سورة الحجرات، للشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى، دار الفلاح، حلب، ط١/ ١٣١٣هـ -١٩٩٢م، ص ٦١ -٦٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج١٨٩/٢٦، وحول تفسير سورة الحجرات، ص ٦٠.

يقال في العرف: إنه ليس هو الذي رأيته قبل، بل إنه الآن على أحسن حال، فيجعله كأنَّه مع حال العلم مغايراً لنفسه إذا اعتبر مع غيرها.

الثالث: لعل منهم من رجع عن الجفاء في الخطاب، ومنهم من استمر على تلك العادة الرديئة، فقال: (أكثرهم)؛ إخراجاً لمن ندم منهم.(١)

ونفي العقل عنهم: مراد به عقل التأدب الواجب في معاملة النبي ﷺ، وقد حصل ترك الأدب مع النبي ﷺ من وجوه:

الأول: النداء، فإن نداء الرجل العظيم الشأن قبيحٌ، بل الأدب الحضور بين يديه وعرض الحاجة إليه.

الثاني: النداء من وراء الحجرات، فإن من ينادي غيره ولا حائل بينهما لا يكلفه المشي إليه من مكانه، ومن يناديه مع الحائل يريد منه حضوره.

الثالث: ذكر (الحجرات) يدل على أنَّ النبي ﷺ كان في خلوته، والنبيُّ ﷺ لا يحتجب عن الناس إلا لضرورة الاشتغال بمهمات نفسه، وذلك حق له، فمن سوء الأدب إزعاجه وقت راحته ﷺ، واللائق لمن أراد لقاءه أن ينتظره حتى يخرج ﷺ، ثم يذكر حاجته.(٢)

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

لو أنَّ الأعراب الذين نادوا النبيَّ ﷺ من وراء الحجرات انتظروه حتى يخرج إليهم، لكان انتظارهم خير لهم في دينهم ودنياهم من إزعاج راحة النبي ﷺ بذلك النداء المتعالي؛ لأنَّ الصبر والانتظار يكسبهم وقاراً بين أهل المدينة، ويستدعي لهم الإقبال من الرسول ﷺ؛ إذ يخرج إليهم غير كارهٍ لندائهم إياه بتلك الطريقة المذمومة.

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٨/١٠١.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ج١٧/ ٥٢٧.

فقوله: (خيراً) يجوز أن يكون:

أ _ اسم تفضيل، ويكون في المعنى: صبرهم أفضل من العجلة.

ب _ ويجوز أن يكون اسماً ضدّ الشر، أي: صبرهم خيرٌ، لما فيه من محاسن الخُلق بخلاف ما فعلوه، فليس فيه خير.

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ: واسع المغفرة شامل الرحمة، إذ لم يكتب لهم ذلك الفعل ذنباً، بل أدَّبهم بلطف.

وتذييل اللوم بذكر المغفرة والرحمة إشارة إلى أنَّ الله لم يكتب عليهم ذنباً فيما فعلوا، رحمة بهم؛ لأنَّ القوم كانوا جاهلين.(١)

الأساليب البلاغيَّة:

١ _ **تشبيه تمثيلي:** في قوله تعالى: (لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) شبه حال من يفعل فعلاً من غير إذن مِن الله ورسوله ﷺ بحال الخادم يتقدم في مَشيه بين يدي سيده، ويسبقه في سيره، ويتركه خلفه. تصويرًا لشناعة الموقف وقبحه بصورة المحسوس، ووجه الشبه الانفراد عنه في الطريق.

وفي قوله تعالى: (أن تحبط أعمالكم) تشبيه تمثيلي، شبَّه حال من لم ينتفع بأعماله الصالحة بسبب ما طرأ عليها من الكفر، بحال حبوط الإبل إذا أكلت الخضر فانتفخت بطونها واعتلت، وربما هلكت، تصويراً لبشاعة الموقف، ووجه الشبه، عدم الانتفاع بما يقدِّم من أسباب النفع.

٢ _ **استعارة:** في قوله: (لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) فرفع الصوت مستعار لجهر الصوت جهراً متجاوزاً لِمعتاد الكلام، وشبه جهر الصوت بإعلاء الجسم في أنَّه أشدّ بلوغاً إلى الأسماع كما أنَّ إعلاء الجسم أوضح له في

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/ ١٨٩.

الإبصار، على طريقة الاستعارة المكنية،[1] التبعية.[2] و(فوق صوت النبي) ترشيح لاستعارة[3] (لا ترفعوا)، والفوْقيَّة مجازية.[4]

وفي قوله: (يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ) استعارة أيضاً؛ لأنَّ الغض حقيقته: خفض العين، وترك التحديق بها إلى الشخص، وهو هنا مستعارلِخفض الصوت. وهذه الاستعارة تبعيَّة مكنية.

٣ _ **تشبيه مرسل مجمل:** في قوله: (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض)؛ لوجود أداة التشبيه، وترك التنويه بوجه الشَّبه.

المعنى الإجمالي للآيات:

يا أيها الذين آمنوا اتَّبِعُوا رسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله، ولا تقترحوا على عليه اقتراحاً في أمور الحياة من حولكم، ولا تقضوا في أمرٍ من غير الرجوع إلى قول الرسول ﷺ، ولا تسبقوه بالحكم في أمر من أمور الدين أو سياسة الأُمة، بل انتظروه حكمه ورأيه، لأنَّ رأيكم في شؤون الحياة ليس أولى من رأيه، وحكمكم ليس أفضل من أحكامه؛ لأنَّ النبيُّ ﷺ ينطق بما يُوحى إليه، ولا ينطق عن الهوى. إنَّ الله يسمع أقوالكم ويعلم أعمالكم، وسيجزيكم بما يلائمها من الخير والشر.

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، تأدَّبوا مع النبيّ ﷺ، ووقِّروه توقيراً ينعكس على نبرات أصواتكم؛ ويميز شخص رسول الله بينكم، ويميز مجلسه عن مجالسكم، فلا تجعلوا أصواتكم تعلو على صوته ﷺ عند مخاطبته، ولا تنادوه باسمه كما ينادي بعضكم بعضًا، بل نادوه بالنبوة والرسالة بخطاب ليِّن مؤدَّب؛

---

(١) الاستعارة المكنية: هي أن يستعار لفظ المشبه به للمشبه، ويحذف ذلك اللفظ المستعار ويشار إلى استعارته بذكر شيء من لوازم مسماه.

(٢) الاستعارةَ باعتبار اللفظ نوعان أصليةٌ وتبعيةٌ. فالاستعارة التبعيّة، وهي التي يكون اللفظ المستعار فيها فِعْلاً، أو اسماً مشتقاً، وتقابل الاستعارة الأصليّة، وهي التي يكون اللّفظ المستعار فيها اسماً جامداً، مثل: "أسد، بدر"

(٣) الاستعارة المرشحة: أن يذكر في الاستعارة ما يلائم المشبه به، ومبنى الترشيح على تناسي التشبيه، وادعاء أن المستعار له نفس المستعار منه لا شيء آخر شبيهاً به.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج١٨٣/٢٦.

خوف أن يَبطُل ثوابُ أعمالكم، وأنتم لا تشعرون بذلك، فإن هذا المنزلق خفيٌّ، وهو أخوف من المعصية الظاهرة، لأنَّه منزلق ينزع هيبة النبوَّة من القلوب، ويفضي بصاحبها إلى الاستهتار ثم الفسوق.

إن الذين يَخْفِضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين اختبر الله قلوبهم، وأخلصها لتقواه، لهم من الله مغفرة لذنوبهم وثواب جزيل. أما الأعراب الذين ينادونك - أيها النبي - من وراء حجراتك بصوت مرتفع وقت راحتك في النهار أو الليل، أكثرهم ليس لهم من العقل ما يحملهم على حسن الأدب مع رسول الله ﷺ، وتوقيره، حيث لم يفرقوا بين ما يليق وما لا يليق.

ولو أنَّ هؤلاء الذين نادوك من وراء الحجرات انتظروك حتى تخرج إليهم، لكان انتظارهم وصبرهم خيراً لهم في دينهم ودنياهم، والله غفور لما صدر عنهم من الذنوب والإخلال بالآداب عن جهلٍ منهم، رحيم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، بل أنزل لهم القرآن لبيان الآداب والفضائل التي ينبغي التحلّي بها.

الفوائد والأحكام:

أولاً: قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) يعدُّ أصلًا في إيجاب اتباع رسول الله ﷺ وعدم مخالفته في قوله أو فعله، فإنه ﷺ يحكم بما يوحى إليه؛ لذا يجب طاعة اللَّه تعالى ورسوله ﷺ، وتقديم حكم القرآن والسنة على ما سواهما. كما يجب على المكلَّف العلمَ بحكم الشرع في كلِّ فعلٍ يريد الشروع فيه؛ حتى لا يعجل بتحكيم رأيه وترك حكم الشرع.(١)

ثانياً: يدلُّ قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ) على وجوب خفض الصوت أثناء مخاطبة النبي ﷺ؛ توقيراً له.

---

(١) انظر: أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١/ ١٤٠٥هـ، ج٥/ ٢٧٧.

وليس المراد النهي عن الجهر مطلقاً بحيث يلزم الصمت أو الهمس، وإنما المراد الكفُّ عن الجهر الخالي عن مراعاة أبهة النبوة. أما الصوت الذي يقصد به الاستخفاف والاستهانة، فلا شك أنَّه يدخل صاحبه في الكفر.

ويستثنى من النهي والتحريم رفع الصوت في الأذان، وتكبيرات العيد، أو في الحرب لإرهاب العدو ونحو ذلك، لأنَّه لمصلحة، فقد قال النبيُّ ﷺ للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين: "أي عباس ناد أصحاب السمرة" فقال عباس _ وكان رجلا صيِّتاً – فقلت: بأعلى صوتي أين أصحاب السمرة؟[1]

ثالثاً: إنَّ حرمة النبي ﷺ وهو ميّت كحرمته حياً، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه. فإذا قرئ كلامه وجب على كلّ حاضر ألا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به ﷺ.[2]

وكذلك يجب التزام الأدب في المجالس التي يُقرأ فيها حديث النبيِّ ﷺ، أو سيرته الشريفة، أو أوصافه وشمائله الحميدة، أو عند قراءة قصة مولده أو الاستماع إلى المدائح النبويَّة، كما يجب ذلك على المادحين له ﷺ.[3]

ومن الأدب ألا يذكر اسم النبي ﷺ في غيابه إلا مقترناً بوصف النبوَّة أو الرسالة؛ توقيراً له وتعظيماً لشأن النبوَّة والرسالة.

رابعاً: ضرورة التحلّي بمكارم الأخلاق وفضائل الآداب، وترك الجفاء وسوء الأدب في خطاب الأفراد لولاة أمورهم، وعلماء الأمَّة. ومن الأدب خفض الصوت في حضرتهم،[4] ومحادثتهم على هيئة الإجلال، وترك مجادلتهم، وعدم الاستئذان عليهم في أوقات الراحة.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حُنين، رقم (١٧٧٥)، ج٣/ ١٣٩٨.

(٢) انظر: أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي (٥٤٣هـ)، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٤٢٤/٣هـ-٢٠٠٣م، ج٧/ ٢٠٢.

(٣) انظر: حول تفسير سورة الحجرات، للشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله، ص ٣٧.

(٤) انظر: المحرَّر الوجيز، ج١٢٨/٥.

خامساً: في قوله تعالى: (أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ) إشارة إلى أنَّ الاسترسال في ارتكاب المآثم، يولّد الغفلة، ويجرُّ الأعمال إلى الحبوط.[1] ولا يصحُّ الاستدلال بالآية على إمكان انتقال الإنسان من الإيمان إلى الكفر من غير علم منه، لأنَّ حكم الإيمان أو الكفر ينبني على اختيار الإنسان.

جامعة حلب ١٩٥٨ UNIVERSITY OF ALEPPO

(١) انظر: التفسير المنير، ج٢٦/٢٤١.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

[سورة الحجرات: ٦ _ ٨]

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن بيَّن الله تعالى في الآيات السابقة آداب التعامل مع النبي ﷺ، انتقل في هذه الآيات لبيان الآداب الاجتماعية الواجبة في تعامل جماعات المؤمنين بعضهم مع بعض؛ للحفاظ على وحدة الأمة، واستئصال أسباب المنازعات فيما بينهم، فأمر بالتثبت من الأخبار، منعاً من اشتعال الفتنة بين أبناء المجتمع.

أسباب النزول:

تضافرت الروايات على أنَّ سبب نزول هذه الآية هو أنَّ النبي ﷺ بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق من خزاعة ليأتي بصدقاتهم فلمّا بلغهم مجيئه، خرجوا لتلقيه، أو خرجوا ليبلغوا صدقاتهم بأنفسهم وعَلِيهم السلاح، وأنَّ الوليد بلغه أنَّهم خرجوا إليه بتلك الحال غير المألوفة في تلقِّي المتصدِّقين، وحدَّثته نفسه أنَّهم يريدون قتله، أو خاف أن يكونوا أرادوا قتله، فولّى راجعاً إلى المدينة.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ إِلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ لِيَأْخُذَ مِنْهُمُ الصَّدَقَاتِ، وَإِنَّهُ لَمَّا أَتَاهُمُ الْخَبَرُ فَرِحُوا وَخَرَجُوا لِيَتَلَقَّوْا رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّهُ لَمَّا حُدِّثَ الْوَلِيدُ أَنَّهُمْ خَرَجُوا يَتَلَقَّوْنَهُ رَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ بَنِي الْمُصْطَلِقِ قَدْ مَنَعُوا

الصَّدَقَةَ" فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا، فَبَيْنَمَا هُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَنْ يَغْزُوهُمْ إِذْ أَتَاهُ الْوَفْدُ فَقَالُوا: "يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا حُدِّثْنَا أَنَّ رَسُولَكَ رَجَعَ مِنْ نِصْفِ الطَّرِيقِ، وَإِنَّا خَشِينَا أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا رَدَّهُ كِتَابٌ جَاءَهُ مِنْكَ لِغَضَبٍ غَضِبْتَهُ عَلَيْنَا، وَإِنَّا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَغَضَبِ رَسُولِهِ ﷺ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَغْشَهُمْ وَهَمَّ بِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عُذْرَهُمْ فِي الْكِتَابِ فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)[1]

وعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ إِلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ لَيُصَدِّقَهُمْ، فَتَلَقَّوْهُ بِالْهَدِيَّةِ فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: "إِنَّ بَنِي الْمُصْطَلِقِ قَدْ أَجْمَعُوا لَكَ لِيُقَاتِلُوكَ" فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا) الآيَةَ.[2]

وعن الْحَارِثَ بْنَ أَبِي ضِرَارٍ الْخُزَاعِيِّ قَالَ: "قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَعَانِي إِلَى الْإِسْلَامِ فَدَخَلْتُ فِيهِ، وَأَقْرَرْتُ بِهِ، فَدَعَانِي إِلَى الزَّكَاةِ فَأَقْرَرْتُ بِهَا، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرْجِعُ إِلَى قَوْمِي فَأَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ، فَمَنْ اسْتَجَابَ لِي جَمَعْتُ زَكَاتَهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَسُولًا لِإِبَّانِ كَذَا وَكَذَا لِيَأْتِيَكَ مَا جَمَعْتُ مِنَ الزَّكَاةِ، فَلَمَّا جَمَعَ الْحَارِثُ الزَّكَاةَ مِمَّنْ اسْتَجَابَ لَهُ، وَبَلَغَ الْإِبَّانَ الَّذِي أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُبْعَثَ إِلَيْهِ، احْتَبَسَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ فَلَمْ يَأْتِهِ، فَظَنَّ الْحَارِثُ أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ فِيهِ سَخْطَةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ، فَدَعَا بِسَرَوَاتِ قَوْمِهِ،[3] فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ وَقَّتَ لِي وَقْتًا يُرْسِلُ إِلَيَّ رَسُولَهُ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدِي مِنَ الزَّكَاةِ، وَلَيْسَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْخُلْفُ، وَلَا أَرَى حَبْسَ رَسُولِهِ

(١) السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، نشر مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة الأولى: ١٣٤٤ هـ، كتاب السيَر، باب قِسْمَةِ الْغَنِيمَةِ فِي دَارِ الْحَرْبِ، رقم (١٨٤٣٤)، ج٩/٥٤.

(٢) سنن البيهقي، كتاب السيَر، باب قِسْمَةِ الْغَنِيمَةِ فِي دَارِ الْحَرْبِ، رقم (١٨٤٣٥)، ج٩/٥٥.

(٣) أشراف قومه، جمع (سراة). انظر القاموس المحيط، مادة (سرى)

إِلَّا مِنْ سَخْطَةٍ كَانَتْ، فَانْطَلِقُوا فَنَأْتِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ إِلَى الْحَارِثِ؛ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِمَّا جَمَعَ مِنْ الزَّكَاةِ، فَلَمَّا أَنْ سَارَ الْوَلِيدُ حَتَّى بَلَغَ بَعْضَ الطَّرِيقِ فَرِقَ فَرَجَعَ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْحَارِثَ مَنَعَنِي الزَّكَاةَ وَأَرَادَ قَتْلِي، فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْبَعْثَ إِلَى الْحَارِثِ، فَأَقْبَلَ الْحَارِثُ بِأَصْحَابِهِ، إِذْ اسْتَقْبَلَ الْبَعْثَ وَفَصَلَ مِنْ الْمَدِينَةِ لَقِيَهُمْ الْحَارِثُ، فَقَالُوا: هَذَا الْحَارِثُ، فَلَمَّا غَشِيَهُمْ قَالَ لَهُمْ: إِلَى مَنْ بُعِثْتُمْ؟ قَالُوا: إِلَيْكَ، قَالَ: وَلِمَ؟ قَالُوا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ بَعَثَ إِلَيْكَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ، فَزَعَمَ أَنَّكَ مَنَعْتَهُ الزَّكَاةَ وَأَرَدْتَ قَتْلَهُ، قَالَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُهُ بَتَّةً وَلَا أَتَانِي، فَلَمَّا دَخَلَ الْحَارِثُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنَعْتَ الزَّكَاةَ وَأَرَدْتَ قَتْلَ رَسُولِي؟ قَالَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُهُ وَلَا أَتَانِي وَمَا أَقْبَلْتُ إِلَّا حِينَ احْتَبَسَ عَلَيَّ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ كَانَتْ سَخْطَةً مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ، قَالَ فَنَزَلَتْ الْحُجُرَاتُ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) إِلَى هَذَا الْمَكَانِ (فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).(١)

معاني المفردات:

فاسِقٌ: الفاسق: هو المتصف بالفسوق، وهو فعل ما يحرمه الشرع من الكبائر. مأخوذ من قولهم: فسقت الرُّطبَة: إذا خرجت من قشرها. وفسر هنا بالكاذب.

بِنَبَإٍ: النبأ الخبر ذو الشأن.

فَتَبَيَّنُوا: اطلبوا بيان الحقيقة.

أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ: لئلا تعتدوا على قوم بغير علم.

نادِمِينَ: آسفين مغتمّين. والندم: الأسف على فعل صدر من الفاعل، والمراد به

(١) مسند أحمد، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢/١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، حديث الحارث بن ضرار الخزاعي رضي الله عنه، رقم (١٨٤٥٩)، ج٣٠/٤٠٣.

هنا الندم على التورط في الذنب بسبب التساهل، وترك تبيُّن وجوه الحق.

لَعَنِتُّمْ: لأصابكم العنت وهو المشقة والإثم.

الرَّاشِدُونَ: المستقيمون على الحق مع تصلب فيه، من الرشاد: وهي الصخرة.

القراءات والإعراب:

فَتَبَيَّنُوا: قرأ حمزة والكسائي وخلف (فَتَثَبَّتُوا) بالثاء من التثبت وهو التحري وطلب الصدق واليقين في صحة الخبر، وقرأ الباقون (فَتَبَيَّنُوا) بالباء والنون من التبيّن وهو طلب البيان وظهور حقيقة الأمر. ومآل القراءتين واحد.(١)

أَنْ تُصِيبُوا: المصدر المؤول من (أن تصيبوا) مفعول لأجله، أي: خشية الإصابة.

فَضْلا مِنَ اللَّهِ: منصوب على المفعولِ لأجله، أو على المصدر المؤكِّد لمضمونِ الأفعال (حَبَّب) و(زيَّن) و(كرَّه) أي: نائب المفعول المطلق المبين للنوع؛ لأنَّ التحبيب والتزيّين والتّكريه من نوع الفضل.(٢)

الأساليب اللغويَّة:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ.

أعيد الخطاب بـ (يا أيها الذين آمنوا) لتخصيص الغرض الذي تضمنته الآية بالاهتمام. والمراد بالخطاب هنا: النبي ﷺ، وحكَّام المؤمنين، وعامَّة المسلمين.

ومضمون الخطاب: الأمر بالتثبت من المتلقي بتمحيص ما يتلقاه من

---

(١) انظر: النشر، ج٢/ ٢٨٤ ، والحجة في القراءات السبع، لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه (٣٧٠هـ)، تح: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، ط١٤٠١/٤هـ، ص ١٢٦ ، وحجة القراءات، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبي زرعة (٤٠٣هـ)، تح: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٤١٨/٥هـ-١٩٩٧م، ص ٢٠٩.

(٢) انظر: الدر المصون، ج١٤٩/١٣.

الأخبار، وتمييز حال المخبِر، وبيان عدالة من لا يُعرَف صدقه وعدالته،[1] وعدم التعجُّل بالحكم قبل معرفة الحقيقة؛ لئلَّا يتم إيذاءُ قومٍ عن جهالة بحقيقة أمرهم، ويعقب ذلك النَّدم على التسرع في الانتقام، قبل التثبت من الأخبار إذا ظهرت الحقيقة مخالفة للخبر بعد وقوع آثاره السيئة.

وقد أوثر للشرط حرف (إنْ)؛ إشارة إلى أنَّ الكذب في نقل الأخبار ينبغي أن يكون نادر الوقوع، ولا يقدِم عليه المسلمون إلا نادراً؛ لأنَّ الأصل اللغوي في استعمال (إنْ) الشرطيَّة هو ألا يذكر إلا مع فعل الشرط المشكوك في وقوعه.[2]

وليس في الآية ما يقتضي وصف الوليد بالفاسق تصريحاً ولا تلويحاً؛ فقد اتفق المفسرون على أنَّ الوليد نقل الخبر بموجب غلبة الظَّنّ، ولم يتعمَّد الكذب؛ يقول الفخر الرازي: "إن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد شيء بعيدٌ؛ لأنَّه توهَّم وظنَّ فأخطأ، والمخطئ لا يسمى فاسقاً "[3] والوليد من جملة الصحابة، وقد ثبت بالسنة أنَّ جميع أصحاب النبي ﷺ عدولٌ، ولو كان الوليد فاسقاً لما ترك النبي ﷺ تعنيفه واستتابته.

ولو سلَّمنا أنَّ الآية تشير إلى فاسق معين، فيمكن أن يكون المراد به الرجل الذي أعلم الوليدَ بأنَّ القوم خرجوا له ليصدّوه عن الوصول إلى ديارهم.[4]

ومعنى (فتبينوا) تبينوا الحق من غير جهة ذلك الفاسق، فخبر الفاسق ـ والمشرك من باب أولى ـ يكون داعياً إلى التتبع والتثبت، ولا يصلح لأن يكون مستنداً للحكم بحال من الأحوال، لأنَّ الفاسق ضعيف الوازع الديني في نفسه. وضَعفُ الوازع يجرِّئه على الاستخفاف بالمحظور، وربما ترتَّب على كذبه في شهادة أو خَبَر إضرار بالغير أو بالصالح العام.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/١٩٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٨/ ١٠٣، والتحرير والتنوير، ج٢٦/١٩١.

(٣) مفاتيح الغيب، ج٢٨/١٠٣.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/١٩٢.

وتنكير (فاسقٍ) و(نَبإٍ) في سياق الشرط يفيد العموم في أوصاف الفسق، ومضمون الأنباء، كأنَّه قيل: أيّ فاسق جاءكم بأيّ نبَأٍ فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشافه.

والأمر بالتثبُّت معلَّلٌ بعلة ألا يقع بسبب الخبر الكاذب إيصال ضررٍ إلى الغير بسبب الجهل بحقيقة الأخبار، فيقع إثرها الندم. أي: إنَّ إيصال الضرر إلى الناس علة تحمل على التثبت من الأخبار للتفادي منها.(١)

وقد أوثر في النظم التعبير بـ (فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ)، ولم يقل: (فتصيروا)؛ لأنَّ أقبح الندم وأشنعه هو ما يستقبله الإنسان صباحاً وقت فراغه وانتباهه، وإقباله على مهامه، فكان التعبير بـ(تصبحوا) أبلغ.(٢)

وتقديم المجرور على متعلَّقه في قوله: (على ما فعلتم نادمين)؛ للاهتمام بذلك الفعل، وهو إصابة الناس بضرر من غير تثبت، والتنبيه على خطر أمره.

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ

جاء افتتاح الجملة بـ(اعلموا)؛ للإيقاظ والاهتمام بما تتضمنه وحث المخاطبين على التأمل فيما بعده، وذلك من أساليب الكلام البليغ أن يفتتح الكلام المشتمل على خبر مهمٍّ بفعل يدل على طلب العلم، لجلب انتباه المخاطب، والتحذير من التساهل فيه.(٣)

وإنما أمرهم الله بالعلم مع أنَّ المسلمين يعلمون بوجود الرسول بينهم؛ تنزيلاً لعلمهم منزلة العدم في هذا الشأن، ليزدادوا اهتماماً وتنافساً في اتباع ما شرع لهم رسول الله ﷺ من الأحكام ولو كانت غير موافقة لرغباتهم.(٤)

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي، ج٥/ ٢١٤، وروح المعاني، ج٢٦/ ١٤٥، والتحرير والتنوير، ج٢٦/ ١٩٣.

(٢) انظر: حول تفسير سورة الحجرات، ص ٧١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٩/٦٩.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٨/ ١٠٦، والتحرير والتنوير، ج٢٦/١٩٥.

وتقديم خبر (أنَّ) على اسمها في قوله: (أنَّ فيكم رسولَ الله)؛ للاهتمام بوجود النبيِّ ﷺ بينهم، وتوبيخِ من يكذب على الرسول ﷺ في الأخبار متطلباً استتباع رأي النبيِّ ﷺ لرأيه، والتنبيه على أنَّ واجب المؤمنين الاغتباط به والإخلاص له ﷺ؛ لأنَّ كونه فيهم شرف عظيم لجماعتهم وصلاح لهم.(١)

لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ: ضميرا الجمع في قوله: (لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم) عائدان إلى الذين آمنوا على توزيع الفعل على الأفراد، فالمطاع بَعض الذين آمنوا وهم الذين يبتغون أن يعمَل الرسولُ ﷺ بما يطلبون منه، والعانِت بعض آخر وهم جمهور المؤمنين الذين يجري عليهم قضاء النبي ﷺ بحسب رغبة غيرهم.

وأوثر صيغة المضارع في قوله: (لو يطيعكم) بدلاً من الماضي (أطاعكم)؛ للدلالة على أنَّه كان في إرادتهم استمرار عمله ﷺ على ما يستصوبونه من الآراء، بدليل قوله: (فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ) أي: في كثير مما يعرض لهم من الآراء والأهواء.(٢)

والأمر هنا بمعنى الحادثة والقضية النازلة. والتعريف في الأمر تعريف الجنس الشامل لجميع الأمور، ولذلك جيء معه بـ (كثيرٍ من) أي: في أحداث كثيرة.

وقيد (كثير من) للاحتراز عن طاعته إياهم في الأمور التي ليست من شؤون التشريع، وإشارة إلى تصويب رأي بعضهم، ومراعاة لشأن المؤمنين حيث لم ينسب جميع آرائهم إلى الخطأ، وفيه أيضاً تأديب جميل في باب التخاطب.(٣)

والعَنت: المشقة، والإثم، واختلال المصلحة في الحاضر والعاقبة.

والآية تحذِّر المؤمنين من الكذب في نقل الأخبار إلى النبي ﷺ، وتذكِّرهم بأنَّ النبي ﷺ أعلم منهم بمصالحهم وأشفق عليهم، ورأيه فيهم أتم من رأيهم لأنفسهم،

---

(١) انظر: الكشاف، ج٤/ ٣٦٤، والبحر المحيط، ج٨/ ١٠٩، والتحرير والتنوير، ج٢٦/١٩٦.

(٢) انظر: الكشاف، ج٤/ ٣٦٤، وتفسير أبي السعود، ج٨/ ١١٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/ ١٩٥، والتفسير المنير، ج٢٦/ ٢٤٧.

فقد يختارون لأنفسهم من الضرر ما لا يريده الرسول ﷺ لهم، فإنَّ بعض ما يطلبونه مُضِرٌّ بالغير أو بالراغب نفسِه؛ فإنَّه قد يحبُّ عاجِل النفع العائدَ عليه بالضرر. ولو أنَّ النبيَّ ﷺ استجاب لرغبات الساعين في أن يعمل النبي ﷺ بما يرغبون مما يظنونه صالحاً بهم في أشياء كثيرة تعرِض لهم، لأصابهم الإثم إذا استغفلوا النبي ﷺ بالكذب عليه في الأخبار، ولأصاب غيرهم المشقة بسبب ما يلحقهم من جريان أمر النبي ﷺ عليهم، وقد يعود الضرر على الكاذب بسبب ما يلحقه من مشقَّة العمل بخلاف الواقع.(١)

وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ

في الآية إشارة إلى أنَّ المؤمنين لم يتورَّطوا بعاقبة التسرع في الأخبار، وعدم التثبت فيها، وكانوا أبرياء من اتهام الآخرين، لأنَّ اللَّه جعل الإيمان أحب الأشياء إليهم، وحسّنه بتوفيقه وتثبيته في أعماق قلوبهم، وجعل الكفر (جحود الخالق وتكذيب الرسل) والفسوق (الخروج عن حدود الدين) والعصيان (المخالفة وعدم الطاعة) مكروها عندهم. وهذا المعنى مفهوم من الاستدراك، ولولا ذلك لم يحسن الاستدراك بـ(لكِنَّ).

والمراد من الإيمان هنا: العمل بأحكام الإسلام، وهو ناشئٌ عن الإعتقاد، أي حبب إليكم الدين الذي جاء به الرسول ﷺ، وهذا تحريض على التسليم لما يأمر به الرسول ﷺ.

وفي الكلام إيجاز. والتقدير: ولكن الله شرع لكم الإسلام، وحببه إليكم، أي: دعاكم إلى حبه والرضى به فامتثلتم.

وفي قوله: (وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) تعريض بأنَّ الذين لا

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج١٩٦/٢٦ –١٩٧.

يطيعون الرسول ﷺ فيهم بقية من الكفر والفسوق، وإشارة إلى أنَّ الاندفاع إلى تحصيل المرغوب من الهوى من غير تمييز بين ما يرضي الله وما لا يرضيه أثرٌ من آثار الجاهلية والكفر والعصيان.

والمقصود دعوة المسلمين إلى ترك ما ليس من أحكام الإيمان، واجتناب ما هو من شأن أهل الكفر، وتحريك الهمم لمراعاة محبة الإيمان وكراهة الكفر والفسوق والعصيان، أي: إن كنتم أحببتم الإيمان وكرهتم الكفر والفسوق والعصيان فلا ترغبوا في حصول ما ترغبونه إذا كان الدين يصدُّ عنه.

وذكر اسم الله في صدر جملة الاستدراك (وَلَكِنَّ اللَّهَ) من غير ضمير المتكلم؛ لما يشعر به اسم الجلالة من المهابة والروعة؛ وما يقتضيه من واجب قبول الإيمان ونبذ الكفر.

أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ: الإشارة بـ(أولئك) إلى الذين حبّب اللَّه إليهم الإيمان، وكرّه إليهم الكفر، والجملة معترضة للمدح؛ للإشارة إلى أنَّ الذين اتصفوا بتلك الصفات هم الذين استقاموا على طريق الحق ومقتضى الشرع وأدب الدين، فلم ينزلقوا في اتهام غيرهم من غير تثبُّت.(١)

فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

جملة (فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً) تعليل لقوله: (حَبَّبَ وَكَرَّهَ)؛ فإنَّ تحبيب الإيمان إليهم، وتحسينه في قلوبهم، وتنفيرهم من الكفر بالله ومعصيته هو من الفضل الواسع الكثير الفائض في خزائن اللَّه، وهو إنعامٌ من الله على العبد.

وجملة (واللَّه عليم حكيم) تذييل لجملة (واعلموا أنَّ فيكم رسول الله ...إلخ)؛ للإشارة إلى أنَّ ما ذكر في تلك الآية هو من آثار علم الله وحكمته،(٢) فاللَّه تعالى عليم يعلم من يتبع الرسول ﷺ ومن يرغب عن حكمه، حكيم في تدبير

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج١٩٨/٢٦، والتفسير المنير، ج٢٤٨/٢٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج١٩٨/٢٦.

شؤون خلقه، يأمر بما تقضي به الحكمة، وبما يصلح شؤونهم، فيجب الوقوف عند أمره، وترك الاقتراح على نبيه ﷺ الذي لا يأمر إلا بما يُوحَى إليه.

الأساليب البلاغية:

١ _ **الالتفات** عن الخطاب للغيبة في قوله: (أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) بعد قوله: (حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ).

٢ _ **المقابلة** بين (حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) وبين (وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ) حيث ذكر اللَّه الإيمان وهو: التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان، وقابله بثلاثة أمور، هي: الكفر والفسوق والعصيان، والكفر: هو الإنكار وهو يقابل الإذعان بالجنان، والفسوق هو الكذب ويقابل الإقرار باللسان، والعصيان: ترك العمل بالطاعات والأحكام الشرعية ويقابل عمل الأركان.[١]

٣ _ **الطباق** بين (حبَّب) و(كرَّه)، وبين (الإيمان) و(الكفر).

المعنى الإجمالي للآيات:

يا أيها الذين آمنوا بالله، إن جاءكم من يحتمل فسقه بخبر عن قوم، فتثبتوا من صحة خبره، ولا تبادروا إلى تصديقه ونقله حتى تعرفوا صحته؛ خشية أن تصيبوا قومًا برآء بجناية وتعتدوا عليهم وأنتم جاهلون للحقيقة، ثم تندموا على ما فعلتم من التسرع في الانتقام منهم، قبل التثبت من أحوالهم، وذلك حين تظهر الحقيقة مخالفة للخبر بعد التورط في آثاره. واعلموا أنَّ بين أظهركم رسولَ من الله ينزل عليه الوحي فتأدَّبوا معه واحذروا أن تكذبوا في نقل الأخبار إليه؛ فينزل عليه الوحي يخبره بكذبكم؛ واعلموا أنَّه ﷺ يريد بكم الخير وهو أعلم منكم بما يصلح لكم، وقد تريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا

(١) التفسير المنير، ج٢٦/ ٢٤٣.

يوافقكم الرسول ﷺ عليه، ولو أنَّه أطاعكم في كثير مما تقترحونه لوقعتم في المشقة التي لا يرضاها لكم، ولكنّ الله من فضله حبب إليكم الإيمان، فهداكم إليه، وحرك قلوبكم لحبه، وكشف لكم عن جماله وفضله، وعلق أرواحكم به؛ وكرّه إليكم الكفر، والخروج عن طاعته، وبغَّض إليكم معصيته، فأصبحتم من السالكين في طريق الرشد والصواب.

إنَّ تحريك قلوبكم إلى الإيمان، وإدراك ما فيه من جمال إنَّما هو فضلٌ من الله، ونعمة أنعم بها عليكم، والله عليم بمن يشكر نعمه، حكيم في تدبير أمور خلقه، يضع كل شيء في موضعه المناسب له، وفي تقرير هذه الحقيقة إيحاء بالاستسلام لتوجيه الله وتدبيره، والاطمئنان إلى ما وراءه من الخير.

الفوائد والأحكام:

أولاً: يدلُّ قوله تعالى: (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا) على وجوب البحث عن عدالة من كان مجهول الحال في قبول الشهادة عند القاضي أو قبول الرواية عند الرواة. وهذه الآية أصلٌ في:

أ ـ وجوب البحث عن عدالة من جُهل حال تقواه عند الشهادة والرواية.

ب ـ وجوب التثبت في القضاء، وعدم اتباع القيل والقال، والانصياع إلى الظنون والأوهام.

ج ـ وجوب الإعراض عن الكثير مما يرويه الناس وترك الإصغاء إلى ما يُخبِرون به من غير ثبوته بالبيِّنة، وهذا أصلٌ في تعامل الناس بعضهم مع بعض.

فالأخذ بمبدأ التثبت عند سماع خبر مَن لم يعرف بالاستقامة والعدالة واجب على الفرد والقضاة وولاة الأمر؛ صوناً لأرواح الأفراد وأموالهم؛ لذا ينبغي عدم قبول الأخبار التي تنقل إليهم، وترك العمل بمقتضاها حتى يتبيَّن صدقها بعد التثبت والتحرِّي؛ خشية أن يصيبوا أحداً بسوء من غير سببٍ موجب لذلك، أو بسبب افتراء يريد به صاحبه جلب منفعة لنفسه أو دفع مضرة عنه.

ثانياً: يدلُّ قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا) على أنَّ الأصل في المجهول عدم العدالة، ولذلك اتفق العلماء على عدم قبول

خبر المجهول الذي جُهِلَ باطنُه وظاهره معاً. وروِيَ عن عمر بن الخطاب ﷺ قوله: (لَا يُؤْسَرُ رَجُلٌ فِي الْإِسْلَامِ بِغَيْرِ الْعُدُولِ).[1]

أما المستور الحال الذي عُرفت عدالته الظاهرة، أي لم يوقف منه على مفسِّق، لكن لم تثبت عدالته الباطنة، التي ينص عليها علماء الجرح والتعديل، فهذا يجب الكشف عنه، ولا يعمل بشهادته، ولا بروايته حتى يبحث عنه وتثبت عدالته، وهذا قول جمهور الفقهاء والمحدثين. وذهب أبو حنيفة وبعض الشافعيَّة إلى قبول خبر الواحد مجهول الباطن المستور الحال، لأنَّ الآية دلت على أنَّ الفسق شرط وجوب التثبت والتبين، فيقتصر فيه على محل وروده، ويبقى ما وراءه على الأصل، وهو القبول؛ لأنَّ الأصل في الناس العدالة.[2]

ثالثاً: يدلُّ مفهوم الشرط في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا) على قبول خبر الواحد العدل الذي انتفت عنه تهمة الكذب؛ لأنَّ الآية تأمر بالتثبت عند نقل خبر الفاسق فقط. فالفسق هو علة التبيُّن، فإن لم يوجد فسق لم يكن هناك علة لردِّ خبر الواحد.[3] ويستثنى من ذلك الإقرار لغيره بحق على نفسه، فيقبل الخبر ولو كان المخبِر فاسقاً.[4]

رابعاً: دلَّ قوله تعالى: (فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) على وجوب الحذر من الوقوع فيما يوجب الندم شرعاً، ومنه إيصال الضرر إلى الناس. وهذا كناية عن وقوع الإثم في حال حصلت إصابة أحدٍ بضرر أو إقامة حدٍ أو غرامة من غير تبيّن ما يوجب تسليط تلك الإصابة عليه بوجه يوجب اليقين أو غلبة الظَّنّ.

---

(١) موطأ الإمام مالك، كتاب الأقضية، باب ما جاء في الشهادات، رقم (٢٦٦٦)، ج٤/ ١٠٤٢.

(٢) انظر: علوم الحديث المعروف بمقدمة ابن الصلاح، للإمام أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري المعروف بابن الصلاح (٦٤٣هـ)، تح: د. نور الدين عتر، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١/١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، ص ٦١، وتدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ)، تح: عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، د.ط.، د.ت، ج١/ ٣١٦.

(٣) انظر: منهج النقد في علوم الحديث، أ.د. نور الدين عتر، دار الفكر، دمشق، ط٣/١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ص ٢٤٥.

(٤) انظر: التفسير المنير، ج ٢٦ / ٢٤٨.

خامساً: يدلُّ قوله تعالى: (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ) على أنَّ الإيمان لا يعتدُّ به عند الله إلا إذا كان قائماً على أساس الحبُّ لله ولرسوله ﷺ، ولكل ما ثبت عن الله ورسوله ﷺ. ولذلك فإنَّ من يترك المحرمات التي نهى عنها الإسلام رغبة عنها، أو حياء من الناس، وهو يستحسنها ولا يرى حرمتها فهو كافر، وإن لم يتعاطَ الحرام بجوارحه.(١)

(١) انظر: حول تفسير سورة الحجرات، ص ١٠١ –١٠٣.

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

[سورة الحجرات: ٩ – ١٠]

مناسبة الآيات لما قبلها:

في الآيات السابقة حذر اللَّه تعالى المؤمنين من نبأ الفاسق، ثم بيَّن هنا ما يترتب على خبره من الفتنة والنزاع، وربما القتال والحرب.(١)

وفي الآيات السابقة أمر الله المؤمنين بالتثبُّت من الأخبار حذراً مما يعقب الأخبار الكاذبة من الندامة، ثم بيَّن هنا أنَّ الأخبار الكاذبة المتعلقة بالجماعات خطرها أكبر مما يجري بين الأفراد، والتبين فيها أعسر، وقد لا يحصل التبيّن إلا بعد أن تستعر نار الفتنة ولا تجدي الندامة.(٢)

أسباب النزول:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: (قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيّ، قَالَ: فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ وَرَكِبَ حِمَارًا، وَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ، وَهِيَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ،(٣) فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ: "إِلَيْكَ عَنِّي فَوَاللَّهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِكَ" قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: "وَاللَّهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ" قَالَ: فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللَّهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، قَالَ: فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ، قَالَ: فَكَانَ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ

(١) انظر: نظم الدرر، ج٧/ ٢٣٠، والتفسير المنير، ج٢٦/٢٥٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/ ١٩٨.

(٣) السبخة هي الأرض التي لا تنبت لملوحتها.

وَبِالأَيْدِي وَبِالنِّعَالِ، قَالَ: فَبَلَغَنَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِمْ: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا).[1]

وروى سعيد بن جبير عن قتادة: نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مدارأة في حقّ بينهما، فقال أحدهما للآخر: لآخذنه عنوة لكثرة عشيرته، وأنَّ الآخر دعاه ليحاكمه إلى نبيّ الله ﷺ، فأبى أن يتبعه، فلم يزل الأمر حتى تدافعوا، وحتى تناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال، ولم يكن قتال بالسيوف، فنزلت فيهم الآية.[2]

وعن السديِّ أنَّه قال: (كانت امرأة من الأنصار يقال لها أم زيد، تحت رجل، فكان بينها وبين زوجها شيء، وأنَّ المرأة أرادت أن تزور أهلها، فحبسها زوجها وجعلها في عليَّة له لا يدخل عليها أحد من أهلها، وأنَّ المرأة بعثت إلى أهلها، فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها، فخرج الرجل فاستعان أهله، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وأهلها، فاقتتلوا بالأيدي والنعال، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ، فجاء ليصلح بينهم، فنزل القرآن: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)[3]

ويمكن أن تتعدد أسباب النزول، والوقائع المذكورة متشابهة، وحكمها عام يشمل جميع الوقائع الخاصَّة.

معاني المفردات:

طَائِفَتَانِ: تثنية طائفة، وهي الجماعة من الناس.

اقْتَتَلُوا: أرادوا الاقتتال أو باشروه فعلاً، وجمع الفعل باعتبار المعنى؛ لأنَّ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس، رقم (٢٥٤٥)، ج٩٥٨/٢. وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين، رقم (١٧٩٩)، ج١٤٢٤/٣.

(٢) تفسير الطبري، ج٢٩٥/٢٢.

(٣) النكت والعيون، للماوردي، ج٣٣٠/٥، وانظر: تفسير الطبري، ج٢٩٤/٢٢.

الطائفتين في معنى القوم.

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما: بالنصح والدعوة إلى حكم اللَّه.

بَغَتْ: تعدت وتجاوزت الحدَّ وجارت، من البغي: وهو الظلم والتعدِّي.

حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ: حتى ترجع إلى الحق.

فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا: تعدت وتجاوزت حدود الحقِّ الذي أمر الله به.

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ: أزيلوا آثار النزاع بضمان المتلفات بالإنصاف.

وَأَقْسِطُوا: اعدلوا، من الإقساط: وهو إزالة القسط أي الجور. فالهمزة للسلب، يقال: أقسط: عدل، وقسط: جار، والمقسط: العادل.

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ: أي يحمد فعلهم بحسن الجزاء.

القراءات والإعراب:

طائفتان: فاعل لفعل مقدر يفسره (اقتتلوا)، لأنَّ (إنْ) للشرط، والشرط لا يكون إلا بفعل. والتقدير: وإن اقتتل طائفتان، وجملة (اقتتلوا) مفسِّرة.

فأصلحوا بينهما بالعدل: الباء للملابسة، والمجرور حال من ضمير أصلحوا، أي: متلبّسين بالعدل في الإصلاح.

بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ: قرأ يعقوب (إِخْوَتُكم) بالجمع، وقرأ الباقون (أَخَوَيْكُمْ) بالتثنية.(١)

الأساليب اللغويَّة:

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا

الخطاب في الآية لولاة الأمور، والأمر فيها للوجوب، ومعنى الآية: إذا تقاتل فريقان من المسلمين، فيجب على ولاة الأمور الإصلاح بينهم بالنصح والإرشاد إلى حكم اللَّه وإزالة أسباب الخلاف.

---

(١) النشر في القراءات العشر، ج٢/٤١٥.

وآثر القرآن التعبير بـ(إن)؛ أداة الشك؛ إشارة إلى أنَّ فعل الشرط لا ينبغي أن يقع، أي: القتال بين المسلمين لا يكون إلا نادر الوقوع.(١)

و(إنْ) حرف شرط يُخلّص الماضي للاستقبال، فيكون في قوة المضارع، وإنَّما عدل عن المضارع فقال: (اقْتَتَلُواْ) ولم يقل: (يقتتلوا) مع كونه الأليق بالشرط؛ لأنَّ صيغة الاستقبال تنبئ عن الدوام والاستمرار، فيُفهم منه أنَّ طائفتين من المؤمنين إن استمر الاقتتال بينهما واستدام، فأصلحوا.(٢)

و(**طائفتان**) في قوة الفاعل للفعل (اقتتلوا)، وتقَدَّمت على فعلها؛ لتوجيه الاهتمام إلى طوائف المؤمنين، لا إلى الاقتتال.

ويعود ضمير (اقتتلوا) على (طائفتان)؛ حملاً على المعنى من غير اللفظ، لأنَّ الطائفتين في معنى القوم والناس، والطائفة الجماعة.(٣)

وقال: (اقْتَتَلُوا) بضمير الجمع، ولم يقل: (اقْتَتَلا)، بالتثنية ثم قال: (فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) بضمير التثنية ولم يقل: (بَيْنَهُمْ) بالجمع؛ لأنَّ الفتنة قائمة عند الاقتتال، والحميَّة ثائرة في رأس الجميع، وكل أحد برأسِهِ يكون فاعلاً فعلاً، فقال: (اقْتَتَلُوا). وعند الصلح تتفق كلمةُ كُلِّ طائفة وإلا لا يتحقق الصلح، لذلك قال: (بَيْنَهُمَا) بعد الصلح؛ لكون الطائفتين حينئذ كَنَفْسَيْنِ.(٤)

وفعل (**اقتتلوا**) محمول على إرادة القتال؛ لأنَّ الأمر بالإصلاح بينهما واجب قبل الشروع في الاقتتال، وذلك عند ظهور بوادره، وهو أولى من انتظار وقوع الاقتتال، ليمكن تدارك الخطب قبل وقوعه، والدليل: تفريع قوله: (فإن بغت إحداهما على الأخرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي) على جملة (اقتتلوا).(٥)

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج١٠٩/٢٨، ونظم الدرر، ج٢٣٠/٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج١١٠/٢٨.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج١٩٩/٢٦.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، ج١١٠/٢٨، واللباب في علوم الكتاب، ج٥٤٠/١٧.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ج١٩٩/٢٦.

فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ

البغي: في أصل اللغة الطلب، ثم غلب استعماله في طلب غير الحقِّ، والظلم والتعدي على حق الغير، و(الَّتِي تَبْغِي) هي الطائفة الظالمة.

وأهل البغي في اصطلاح الفقهاء: هم الخارجون على الإمام الحقِّ بغير حقٍّ.(١)

ولا بد أن يكون للبغاة شوكة وعَدَد وعُدَد تحمل الحاكم على بذل مال وإعداد رجال لدفعهم، فإن كانوا أفراداً يسهل ضبطهم فليسوا بأهل بغي.(٢)

وإنَّما جُعِل حكم قتال الجماعة الباغية إلى طائفة؛ لأنَّ الجماعة يعسر الأخذ على أيدي ظلمهم بأفراد من الناس وأعوان الشرطة، فتعين أن يكون كفهم عن البغي بالجيش والسلاح. وهذا في التقاتل بين الجماعات والقبائل.

فأما خروج فئة عن جماعة المسلمين فهو أشد، وليس هو مورد هذه الآية، ولكنها أصل له في التشريع.

ويتحقق وصف البغي بإخبار أهل العلم أو بحكم الحاكم العالم العدل، وبالخروج عن طاعة الحاكم وعن الجماعة بالسلاح إذا أمر بغير ظلم ولا جور ولم تُخش من عصيانه فتنةٌ؛ لأنَّ ضرر الفتنة أشد من شدّة الجور.(٣)

والأمر في قوله: (فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي) للوجوب؛ ودليل حمله على الوجوب:

أ _ لأنَّ هذا حُكم بين الخصمين، والقضاء بالحق واجب؛ لحفظ حقِّ المحقِّ.

ب _ لأنَّ ترك قتال الباغية يجرّ إلى استرسالها في البغي وإضاعة حقوق المبغي عليها في الأنَّفس والأموال والأعراض والله لا يحبُّ الفساد.

---

(١) إعلام الأنام شرح بلوغ المرام، تحرير وشرح واستنباط الأستاذ الدكتور نور الدين عتر، العقوبات والمجتمع، دار اليمامة، ط٧/ ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م، ص ٩٣.

(٢) انظر: التفسير المنير، ج٢٦/٢٤١.

(٣) التحرير والتنوير، ج٢٦/٢٠٠.

ج ـ لأنَّ ترك قتال الجماعة الباغية يجرئ غيرها على أن تأتي مثل صَنيعها فمقاتلها زجر لغيرها.

وقد تلتبس الباغية من الطائفتين المتقاتلتين فإنَّ أسباب التقاتل قد تتولَّد من أمور لا يُؤْبَهُ بها في أول الأمر ثم تثور الثائرة ويتجالد الفريقان فلا يضبط أمر الباغي منهما، فالإصلاح بينهما يزيل اللبس فإن امتنعت إحداهما تعين البغي في جانبها؛ لأنَّ الحاكم يمكنه أن يجبر على الصلح إذا خشي الفتنة ورأى بوارقها، وذلك بعد أن توضَّح لكلتا الطائفتين شبهتها إن كانت لها شبهة، وَتُزال بالحجة والبراهين الواضحة، ومن يَأْب منهما فهو أظلم.(١)

حَتَّى تَفِي ءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ: جُعل الفَيْء إلى أمر الله غاية للمقاتلة، أي يستمر قتال الطائفة الباغية إلى غاية رجوعها عن بغيها والإذعان إلى حكم الله، وأمر الله هو ما في الشريعة من دوام الصلح والكفِّ عن الظلم.

فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ

هذه الجملة جاءت ببيان مفهوم الغاية، وهو الإصلاح بالعدل بين الطائفتين بعد أن تفيء الجماعة الباغية.

والعدل: هو ما يقع التصالح عليه بالتراضي والإنصاف، من غير إلحاق الضرر بإحدى الطائفتين؛ فإن المَتالف التي تلحق كلتا الطائفتين قد تتفاوت تفاوتاً شديداً فتجب مراعاة التعديل.

وقد قُيِّد الإصلاحُ المأمور به ثانياً بعد فيء الطائفة الباغية بقيد (بالعدل) فقال: (فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ)، ولم يقيد الإصلاح المأمور به أولاً بقيد العدل في قوله: (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا)؛ لأنَّ الإصلاح أولاً يكون بإزالة الاقتتال نفسه وذلك يكون بالنصيحة وبالتهديد والزجر،

---

(١) المرجع السابق، ج٢٦/٢٠١.

والإصلاح ثانياً يكون بإزالة آثار الاقتتال بعد انتهائه، وذلك بضمان المتلفات، وضمان المتلفات يكون مبنيَّاً على حُكمٍ، لذلك قال: (بالْعَدْلِ)، فكأنَّه قال: فاحكموا بينهما بعد تركهما القتال بالحق وأَصْلِحُوا بالْعَدْل فيما يكون بينهما؛ لئلا يؤدي إلى ثَوَرَان الفتنة مرة أخرى .(١)

وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ

ذيّلت الآية بالأمر بالعدل العام، بعد الأمر بالعدل الخاص في الصلح بين الفريقين، والإخبار أنَّ الله يثيب العادلين بأحسن الجزاء.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

تتميماً للإرشاد ذكر الله تعالى أنَّ المؤمنين إخوةٌ في الدين والإيمان، والأخوة في الدين أثبت وأقوى من أخوة النسب، فإنَّ أخوّة النسب تنقطع بمخالفة الدِّين، وأخوة الدِّين لا تنقطع بمخالفة النسب، لذا يجب الإصلاح بين كل أخوين متنازعين. وليكن شعار الإصلاح تقوى اللَّه، بالتزام الحق والعدل، وعدم الميل لأحد الأخوين، لأنَّ الإسلام سوّى بين الجميع، بلا تفاضل بينهم ولا فوارق.

والجملة في موقع العلة للإصلاح بين المؤمنين إذا استشرى القتال بينهم، وقد بني هذا التعليل على اعتبار حال المسلمين بعضهم مع بعض كحال الإخوة؛ لأنَّ الإيمان قد عَقَد بين أهله من النسب الموحَى ما لا ينقص عن نسب الأخوة الجسدية.

ولما كان المتعارف بين الناس أنَّه إذا نشبت مشاقّة بين الأخوين لزم بقية الإخوة أن يتناهضوا في إزاحتها والإصلاح بينهما، فكذلك شأن المسلمين إذا حدث شقاق بين طائفتين منهم أن ينهض سائرهم بالسعي بالصلح بينهما.

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج١١١/٢٨.

وهذه الآية فيها دلالة قوية على تقرر الأخوة بين المسلمين؛ لأنَّ شأن (إنَّما) أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزلُ منزلة ذلك،[1] فلذلك كان قوله تعالى: (إنَّما المؤمنون إخوة) مفيد أنَّ معنى الأخوة بينهم معلوم مُقرَّر.

وقد تقرر ذلك عندما آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار حين قدم المدينة وكان ذلك مبدأ الإخاء بين المسلمين.

كما تقرَّر في آيات وأحاديث كثيرة، منها: قوله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ) [سورة الحشر:١٠] وهي سابقة في النزول على هذه السورة.[2]

وأخرج البخاري عن النبيّ ﷺ: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ)،[3] وقوله ﷺ: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ).[4]

وقد عَدل عن أن يقول: (فأصلحوا بين الطائفتين) إلى قوله: (بين أخويكم)؛ لأنَّه لمَّا تقرر معنى الأخوة بين المؤمنين في قوله: (إنَّما المؤمنون إخوة) نشأ عنه وصف جديد تعين إطلاقه على الطائفتين.

وأوثرت صيغة التثنية في قراءة الجمهور (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)؛ لمراعاة التثنية في (طَائِفَتَانِ، بَيْنَهُمَا) فهي توافق لفظ ما قبلها، وهي تعبر عن كل جماعة من الجماعات المقتتلة بالمفرد؛ إشارة إلى الحال الذي ينبغي أن يكون عليه المسلمون، وهو الصلح والسلام الدائمين، فالاقتتال بين المسلمين مرفوض وإن كان بين اثنين فقط من بين جماعات كبيرة.

وفي ذلك إشارة إلى وجوب الإصلاح بين جميع المتخاصمين وإن لم تكن

---

(١) دلائل الإعجاز، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (٤٧١هـ)، تح: د.محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١/١٩٩٥م، ص ٥٢٤.

(٢) التحرير والتنوير، ج٢٦/ ٢٠٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم (٢٣١٠)، ج٢/ ٨٦٢.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه، رقم (١٣)، ج١/ ١٤.

الفتنة عامة؛ لئلا يظن متوهم أنَّ الإصلاح واجب عند اختلاف قوم، أمَّا إذا كان بين اثنين فلا يؤمر بالإصلاح؛ لعدم عموم المفسدة.

ففي قراءة التثنية رعايةٌ لعدد أقل من يقع بينهم القتال، ودلالة على أنَّ الإصلاح في اقتتال ما فوق الاثنين أَولى؛ لأنَّ الفتنة والفساد في قتال الجماعة أوسع وأعم انتشاراً، وتنبيهٌ على أنَّ منشأ اقتتال الجماعات يكون غالباً بين اثنين: هما زعيما طائفتين، ثم يتعصب لهما كثير من الأفراد.

أما قراءة يعقوب: (فأصلحوا بين إخوَتِكم) فتوافق ظاهر الجمع في قوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)، وتوافق معنى الآيات التي جاءت في بيان أحكام القتال بين طوائف المسلمين، وتراعي كل فرد من الطائفتين.(١)

وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ: المخاطب هنا جميع المؤمنين؛ فيشمل الطائفتين الباغية والمبغي عليها، وغيرهما ممن أمروا بالإصلاح بينهما وبمقاتلة الباغية. وتقوى كلٍّ مأمور منهم بالوقوف عند ما أمر الله به كُلّا بما يخصه.

وجزاء التقوى أن تشملهم رحمة الله فتجري أحوالهم على خير وصلاح.

واختيرت الرحمة خاصّةً؛ لأنَّ الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة بين المؤمنين، وشأن تعامل الإخوة الرحمة فيكون الجزاء عليها من جنسها.(٢)

الأساليب البلاغيَّة:

١ _ **الطباق:** بين (اقْتَتَلُوا) وبين (فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما)

٢ _ **جناس الاشتقاق:** في (وَأَقْسِطُوا) و(الْمُقْسِطِينَ)

٣ _ **التشبيه البليغ:** في قوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)، حيث حذف وجه الشبه وأداة التشبيه، وأصله المؤمنون كالإخوة في التراحم. واختار التشبيه البليغ؛

---

(١) انظر: أثر تعدد القراءات في بلاغة النظم القرآني، د. انشراح سويد، ص ٧٩٨ – ٧٩٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/٢٠٣.

لتقرير معنى الأخوة، وكأنَّه لا يحقُّ أن يُقرَن بحرف التشبيه المشعر بضعف صفتهم عن حقيقة الأخُوَّة.

٤ _ **القصر**: في قوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)، لإفادة حصر أحوال المؤمنين بحال الإخوة؛ مبالغةً في تقرير حكم الأخوَّة بين المسلمين فهو قصر ادعائي

المعنى الإجمالي للآيات:

وإنْ جماعتان من المؤمنين تقاتلتا فأصلحوا بينهما بدعوتهما إلى الصلح، وترك النزاع امتثالاً إلى أمر الله، فإن اعتدت إحدى الطائفتين وأبت الإجابة إلى الصلح، فقاتلوها حتى ترجع إلى حكم الله، فإن رجعت إلى حكم الله فأصلحوا بينهما بالعدل والإنصاف، واعدلوا في حكمكم بينهما، إن الله يحبُّ العادلين.

إنَّما المؤمنون إخوة في الإسلام، والأخوة في الإسلام تقتضي الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين كما يتمُّ الإصلاح بين الأخوين من النسب إذا تنازعا، لأنَّ الأخوة تقتضي أن يكون الحب والسلام والتعاون هو الأصل في التعايش، وأن يكون الخلاف أو القتال استثناء يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه. واتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ ليجازيكم الله بالرحمة والصفح عن ذنوبكم.

الفوائد والأحكام:

أولاً: يجب على حكَّام الدول الإصلاح بين الفئات المتقاتلة بالنصح والدعوة إلى الصلح، والتوفيق بين وجهات النظر. فإن لم تستجب إحدى الفئتين وتطاولت وأفسدت في الأرض، وجب قتال فئة الباغية حتى ترضى بالصلح.

ويجب قبل قتالهم دعاؤهم بحرصٍ إلى الرجوع إلى النظام الحاكم وجماعة المسلمين، وتكرير الدعاء، ومهما أمكن إبعاد القتال وجب، وإن أمكن دفع أذى الباغي في الحرب من غير قتله فلا يجوز قتله.[١]

(١) انظر: إعلام الأنام شرح بلوغ المرام، العقوبات والمجتمع، ص ٩٨.

فإن أثيرت شبهة أزيلت بالحجة والبرهان القاطع الدال على الحق، فإن تم الصلح بينها وبين المبغي عليها وجب حمل الفئتين على الإنصاف والعدل.

وكذلك الحكم إذا خرجت على الحاكم العدل فئة باغية ولا حجة لها، حيث يدعوهم الحاكم إلى الطاعة والدخول في الجماعة، وهو الحق الذي دعا اللَّه إليه قبل القتال، فإن أبوا الرجوع والصلح قوتلوا.[١]

ثانياً: أمر الله سبحانه بقتال البغاة في قوله: (فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي)، والأمر في الآية محمولٌ على الوجوب، والوجوب هنا وجوب كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، ويتعين بتعيين الحاكم جيشاً يوجهه لقتالها؛ إذ لا يجوز أن يلي قتال البغاة إلا الحاكم. وهذا الوجوب مطلق في عموم الأحوال، تقيده الأدلة الدالة على عدم المصير إليه إذا علم أنَّ قتالها يجرّ إلى فتنة أشد من بغيها.

وتقدير الأمر في ذلك يعود للحاكم وعلماء الأمَّة، فقد بغى أهل الردة على جماعة المسلمين بغياً بغير قتال فقاتلهم أبو بكر ﷺ، وبغى بغاة أهل مصر على عثمان ﷺ فكانوا بغاةً على جماعة المؤمنين، فأبى عثمان قتالهم وكره أن يكون سبباً في إراقة دماء المسلمين اجتهاداً منه؛ فوجب على المسلمين طاعته لأنَّه وليُّ الأمر، لكنهم لم يَنفُوا عن الثوار حكم البغي.[٢]

ثالثاً: قوله تعالى: (فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي) أصل في قتال البغاة المتأولين من المسلمين، وعليها عوّل الصحابة رضي الله عنهم في المنازعات التي جرت بينهم،[٣]

وهي نصٌّ صريح في إبطال قول من منع من قتال المؤمنين احتجاجاً بحديث: "سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر"[٤] لأنَّ الحديث في حقِّ المسلم المسالم، والآية في حق المسلم الباغي المتأوِّل، وكل نصٍّ له موضعه الذي يُحمل

---

(١) انظر: التفسير المنير، ج٢٦/ ٢٤٠ –٢٤٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/٢٠٠.

(٣) انظر: تفسير القرطبي، ج١٦/٣١٧.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله، رقم (٤٨)، ج١/٢٧.

عليه ويُعمَلُ به.

رابعاً: ذهب جمهور العلماء إلى أنَّه لا يجوز وصف البغاة بالفسق أو الكفر بسبب بغيهم، والدليل قوله تعالى: (وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا). وقوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)، فاللَّه تعالى سماهم إخوة مؤمنين، مع كونهم باغين، فدلَّ على أنَّ البغي لا يزيل اسم الإيمان.

وقد سئل عليٌّ بن أبي طالب ﷺ عَنْ أَهْلِ الْجَمَلِ أَمُشْرِكُونَ هُمْ؟ قَالَ: مِنَ الشِّرْكِ فَرُّوا. قِيلَ: أَمُنَافِقُونَ هُمْ؟ قَالَ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً. قِيلَ: فَمَا هُمْ؟ قَالَ: "إِخْوَانُنَا بَغَوْا عَلَيْنَا." [1]

ولذلك لا يجوز أن ينسب إلى الصحابة خطأ مقطوع به، وقد أُمِرنا بالكفِّ عمَّا شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بخير، لنهي النبي ﷺ عن سبّهم.[2]

خامساً: أحكام قتال البغاة تخالف أحكام جهاد الكفَّار؛ لأنَّ قتال البغاة يجري بين طائفتين من المؤمنين، ولذلك لا يقتل أسيرهم، ولا يُطلَبُ هاربهم، ولا يجهز على جريحهم ولا تسبى نساؤهم وذراريهم، ولا تغنم أموالهم.

والدليل: حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: «يَا ابْنَ مَسْعُودٍ أَتَدْرِي مَا حُكْمُ اللَّهِ فِيمَنْ بَغَى مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ؟». قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَنْ لاَ يُتْبَعَ مُدْبِرُهُمْ وَلاَ يُقْتَلَ أَسِيرُهُمْ وَلاَ يُذَفَّفَ عَلَى جَرِيحِهِمْ، وَلاَ يُقْسَمَ فَيْؤُهُمْ»[3]

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب قتال أهل البغي، باب الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ الْفِئَةَ الْبَاغِيَةَ مِنْهُمَا لاَ تَخْرُجُ بِالْبَغْيِ عَنْ تَسْمِيَةِ الإِسْلاَمِ، رقم (١٧١٥٨)، ج٨/ ١٧٣.

(٢) انظر: تفسير القرطبي، ج٣٢١/١٦.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب قتال أهل البغي، باب أهل البغي إذا فَاءُوا لَمْ يُتْبَعْ مُدْبِرُهُمْ وَلَمْ يُقْتَلْ أَسِيرُهُمْ وَلَمْ يُجْهَزْ عَلَى جَرِيحِهِمْ، رقم (١٧٢٠٢)، ج١٨٢/٨.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)

[سورة الحجرات: ١١ –١٣]

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن بيّن اللَّه سبحانه آداب التعامل مع النبي ﷺ، بين في هذه الآيات آداب تعامل الأفراد بعضهم مع بعض، مبتدئاً ببيان قواعد التثبُّت من أخبار السوء، من أجل الحفاظ على وحدة الأمَّة ومثنيَّاً بالنهي عن السخرية والهمز واللمز والتنابز بالألقاب، وإساءة الظَّنِّ وتتبع عيوب الناس، والغيبة والنميمة، انتهاء ببيان قاعدة المساواة بين البشر، ومعيار التفاضل والتمييز بينهم، وهو التقوى والصلاح وكمال الأخلاق.(١)

وفي الآيات السابقة رتّب اللَّه تعالى وقوع النزاع والاقتتال بين الطوائف والأفراد على أنباء الفاسقين، وفي هذه الآيات نهى عن الأخلاق المذمومة التي ينشأ عنها النزاع، من أجل الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية، وجعلها مثالاً يحتذي في

(١) انظر: التفسير المنير، ج ٢٦/ ٢٥١.

التعامل مع الأمم والشعوب الأخرى. [1]

في الآيات السابقة ذكر الله أنَّ المؤمنين أخوة، والحفاظ على الأخوَّة يقتضي حسن المعاملة بين أفرادهم، لذا جاءت هذه الآيات منبهة على أمور من حسن المعاملة قد تقع الغفلة عن مراعاتها؛ لكثرة تفشّيها.[2]

أسباب النزول:

أولاً: أسباب نزول قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ)

عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في ثابتِ بنِ قيسِ بنِ شِماس كان في أُذُنهِ وَقْرٌ، فكان إذا أتى رسول الله ﷺ أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه، فيسمع ما يقول، فجاء يوماً وقد أخذ الناس مجالسهم فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا، تفسحوا، فقال له رجل: قد أصبت مجلساً فاجلس، فجلس ثابت مغضباً، فغمز الرجل فقال: من هذا؟ فقال: أنا فلان، فقال ثابت بن فلانة؟ وذكر أماً كانت له يعير بها في الجاهلية، فنكس الرجل رأسه استحياءً، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ صفيّة بنت حييّ بن أخطب رضي الله عنها أتت رسول اللَّه ﷺ، فقالت: يا رسول اللَّه، إنَّ النساء يعيّرنني، ويقلن لي: يا يهودية بنت يهوديّين! فقال رسول اللَّه ﷺ: «هلَّا قلت: إنَّ أبي هارون، وإنَّ عمي موسى، وإنَّ زوجي محمد ﷺ» فأنزل اللَّه هذه الآية.

وعن أنس رضي الله عنه: أنَّها نزلت لما عَيّرت بعض أزواج النبي ﷺ أمَّ سلمة بالقِصَر.[3]

---

(١) انظر: نظم الدرر، ج٧/ ٢٣٢، والتفسير المنير، ج ٢٦ / ٢٥١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/٢٠٥.

(٣) أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (٤٦٨هـ)، دار الاتحاد العربي ومؤسسة الحلبي وشركاه، =

ثانياً: أسباب نزول: (وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ)، (وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً) (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى)

أخرج الترمذي عن أبي جبيرة بن الضحاك ﷺ قال: كان الرجل منا يكون له الاسمين والثلاثة فيدعى ببعضها فعسى أن يكره، فَنَزَلَتْ: (وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)[1]

وأخرج الحاكم عن أبي جبيرة بن الضحاك ﷺ قال: كانت الألقاب في الجاهلية فدعا النبي ﷺ رجلًا منهم بلقبه فقيل له: يا رسول الله إنَّه يكرهه، فأنزل الله: (وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ)[2]

وعن ابن جريج قال: نزلت في سلمان الفارسي ﷺ أكل ثم رقد، فذكر رجل أكله ورقاده، فنزلت (وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً).

وعن ابن أبي مليكة قال: لما كان يوم الفتح، رقي بلال ﷺ على ظهر الكعبة، فأذّن، فقال بعض الناس: أهذا العبد الأسود يؤذّن على ظهر الكعبة؟ فقال بعضهم: إن يُردِ اللَّه شيئاً يغيره، فأنزل اللَّه: (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى)، فدعاهم النبي ﷺ وزجرهم على التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء.[3]

معاني المفردات:

لا يَسْخَرْ: السّخرية: الاستهزاء، وتكون: بمحاكاة القول أو الفعل.

قَوْمٌ: اسم جمع: يطلق على جماعة الرجال خاصة من غير النساء.

القاهرة، د.ط./١٣٨٨هـ-١٩٦٨م، ص٢٦٣-٢٦٤.

(١) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الحجرات، رقم (٣٢٦٨)، ج٣٨٨/٥. وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحجرات، رقم (٣٧٢٤)، ج٥٠٣/٢، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وتابعه الذهبي.

(٣) أسباب النزول، للواحدي، ص ٢٦٥. ولباب النقول في أسباب النزول، للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ)، دار إحياء العلوم، بيروت، د.ط. د.ت.، ص ١٨٢.

وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ: واللمز: التنبيه إلى العيب بإشارة باليد أو العين.

وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ: التنابُزُ: التداعِي من النَّبْزِ، ويختص بلقب السوء، وأصلُه من الرَّفْعِ كأنَّ النَّبْزَ يَرْفَعُ صاحبَه فيشاهَدُ، واللَّقَبُ: ما أَشْعَرَ بضَعَة المُسَمَّى أو رِفْعَتِه. والمعنى: لا تدعوا بعضكم بعضاً بلقب سوءٍ.

الظَّنِّ: هو ما يطرأ للنفس بسبب شبهة أو أمارة قوية أو ضعيفة.

وَلا تَجَسَّسُوا: التجسُّس: البحث بوسيلة خفيّة، مشتق من الجسِّ، ومنه سمي الجاسوس. والمراد هنا البحث عن المعايب، وكشف ما ستره الناس.

وَلا يَغْتَبْ: الغيبة: ذكرك أخاك بما يكره في غيبته، وإن كان العيب فيه.

والفرق بين الغيبة والإفك والبهتان: أنَّ الغيبة أن تقول في أخيك ما هو فيه، والإفك: أن تقول فيه ما بلغك عنه، والبهتان: أن تقول فيه ما ليس فيه.

مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى: من آدم وحواء عليهما السلام.

شُعُوباً وَقَبائِلَ: الشُّعوب: جمع شَعْب وهو أعلى طبقاتِ الأنسابِ، وطبقاتِ النَّسَبِ هي: الشَّعْبُ والقبيلة والعِمارة والبَطْنُ والفَخِذُ والفَصيلةُ، وكلُّ واحدٍ يَدْخُل فيما قبله.

وسُمِّيَ الشَّعبُ شعباً لتشَعُّبِ القبائلِ منه، والقبائل جمع قبيلة: وهي ما دون الشعب، سُمِّيَتْ بذلك لتقابُلِها.(١)

والأمة العربية ترجع إلى عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام، وتنقسم إلى شعوب كثيرة، منها مُضر، وربيعة، وأنمار، وإياد. وشعب مضر يتشعب إلى قبائل، منها: كنانة وقيس وتميم، وتحت القبيلة العمارة مثل قريش من كِنانة، وتحت العمارة البطن مثل قصيّ من قريش، وتحت البطن الفخِذ مثل هاشم وأمية من قَصي، وتحت الفخذ الفصيلة مثل أبي طالب والعباس.

---

(١) انظر: الدر المصون، ج١٣/ ١٥٢ –١٥٣.

الإعراب:

عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ: جملة معترضة لا محل لها من الإعراب.

مَيْتاً: نصبٌ على الحالِ من (لحم) أو (أخيه).

فَكَرِهْتُمُوهُ: جملة معطوفة على فعل محذوف تقديره: عَرَضَ عليكم ذلك، فكرِهْتموه، والمعنى: يَعْرَضُ عليكم فتكرهونه.(١)

الأساليب اللغوية:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

في هذه الآية يرشد الله عباده المؤمنين إلى التحلّي بأخلاق الإسلام وآدابه العالية، إذ ينهى عن الاستهزاء بالناس واحتقارهم، أو التنبيه إلى عيوبهم بقول أو إشارة خفية، أو دعوتهم بالألقاب التي يكرهونها.

وقد افتتحت الآية بإعادة النداء؛ للاهتمام بمضمونها، حيث ورد عقب النداء النهي عن أمورٍ تندرج في باب إساءة معاملة المسلمين بعضهم لبعض مما فشا بين الناس في عهد الجاهلية التساهلُ فيها.(٢)

لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ: لا ينبغي أن يقع بين المؤمنين احتقار بعضهم لبعض.

وكلمة (قوم) تختص بالرجال بحسب اللغة، وهذا التخصيص غير مراد هنا، لأنَّ المراد النساء والرجال والأفراد والجماعات، لكنه ذكر جماعة الرجال على طريقة التغليب. والدليل على شمول النهي جميع الناس أنَّ علة النهي عامة،

---

(١) انظر: التبيان في إعراب القرآن، ج١١٧١/٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/ ٢٠٥.

فتفيد عموم الحكم لعموم العلة، ولأنَّ المقام مقام التشريع، والأصل فيه التساوي في الأحكام إلا ما اقتضى الدليل تخصيص أحد الأصناف به.

وخصَّ جماعة الرجال بالذكر، ولم يقل: لا يسخر رجل من رجل؛ للنهي عما كان شائعاً بين العرب من سخرية القبائل بعضها من بعض.(١)

ثم قال: **(وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ)** فخصَّ النساء بالذكر مع كونهنَّ يدخلن عادة في الخطاب التشريعي مع الرجال؛ دفعاً لتوهم تخصيص النهي بسخرية الرجال، وتأكيداً لنهي النساء عن السخريَّة بأسلوب التخصيص نفسه الذي ورد في نهي الرجال.(٢)

وتنكير (قومٌ من قومٍ) في الموضعين لإفادة العموم؛ لئلا يتوهم نهي قوم معينين من الاستهزاء بقوم معينين.

وإيثار صيغة الجمع في (قوم، نساء)؛ لأنَّ أغلب السخرية تكون في مجامع الناس.(٣)

وجملة (**عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ**) (**عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ**) جملة معترضة لبيان العلة الموجبة للنهي، أي: لا يسخر أحد من أحد فقد يكون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر، ولا يعلم خفايا الناس إلا الله.(٤)

ولا يصح تقدير الجملة في موضع الصفة لـ(قومٍ) (نساءٍ)، وإلا صار النهي عن السخرية خاصاً بما إذا كان المسخور به خيراً من الساخر.(٥)

وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ: أي لا يعب بعضكم بعضاً بقول أو فعل أو إشارة. واللمز: ذكر ما يَعُده الذاكر عيباً لأحد مواجهةً، ويكون بحالٍ بين الإشارة والكلام

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي، ج ٥ / ٢١٧، والتحرير والتنوير، ج٢٦/ ٢٠٥ –٢٠٦.

(٢) انظر: التفسير المنير، ج٢٦/ ٢٥٢.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي، ج ٥ / ٢١٧.

(٤) انظر: البحر المحيط، ج١١٢/٨.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/ ٢٠٦.

بتحريك الشفتين بكلام خفيّ يعرِف منه المواجه به أنَّه يذمّ أو يتنقص باحتمالات كثيرة، وهو غير الغِيبة.(١)

وقد ذمَّ الله سبحانه صفة اللمز، وأنزل سورة خاصَّة لبيان قبحها، فقال: (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ) [سورة الهمزة: ١].

وقد جعل اللَّه لمز المؤمنين لمزاً للنفس؛ لأنَّ الإنسان إذا عاب غيره، فقد حمله على ذكر عيوبه انتقاماً لنفسه، فيكون بفعله حاملاً للغير على عيبه، إذ لا يوجد إنسان يخلو من عيب، فيصبح بذكر عيوب غيره كأنَّه يلمز نفسه.(٢)

أو لأنَّ المؤمنين كالنفس الواحدة، فهم كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائره بالسهر والحمى، وهذا مثل قوله تعالى: (وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) [سورة النساء: ٢٩].(٣)

وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ: أي لا يلقّب بعضكم بعضاً لقب سوء، واللقب: ما أشعر بخسّة أو شرف، والمراد هنا الألقاب المكروهة.(٤)

بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ: في هذا التذييل تعريض بأنَّ ما نُهوا عنه فسوق يعاقب عليه ولا تزيله إلا التوبة. و(الاسم) هنا بمعنى الذكر، أي التسمية. والمعنى: بئس الذِكر أن يذكر أحد بالفسوق بعد أن وُصِف بالإيمان.

وإيثار لفظ الاسم هنا مشاكلة معنوية لما ورد سابقاً من النهي عن ذكر الناس بالأسماء الذميمة.

وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ: لمَّا كانت السخرية واللمز والتنابز معاصي يجب التوبة منها، جاء تذييل الآية بالتنبيه على أنَّ من لم يتب ويقلع عن

---

(١) انظر: المرجع السابق، ج٢٦/ ٢٠٦.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ج٥٤٧/١٧.

(٣) انظر: البحر المحيط، ج١١٢/٨.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٠٧/٢٦.

تلك المعاصي فهو ظالم: لأنَّه ظلم الناس بالاعتداء عليهم، وظلم نفسه بأن رضي لها عقاب الآخرة مع التمكن من التوبة عن ذلك.

وقد جاءت الجملة (وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) بالإشارة إليهم بـ(أولئك)، والإتيان بصيغة القصر؛ لبيان قبح صفاتهم، وتنبيهاً على أنَّهم استحقوا قصر الظلم عليهم، لأجل تلك الأوصاف على سبيل المبالغة.(١)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا

في هذه الآية تحذير من الظنون السيئة، وما ينشأ عنها من التناحر والتفرُّق والمكائد والاغتيالات والمبادأة بالقتال حذراً من اعتداء مظنون ظناً باطلاً.

وقد أعيد النداء خامس مرة بـ **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)**؛ للاهتمام بمضمون ما يأتي بعد النداء؛ لأنَّ المنهيات المذكورة بعده من جنس المعاملات الخفية التي لا يتفطن لها من عومل بها، ولا يقدر أن يزيلها من نفس من عامله بها.

ومعنى **(اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ)**: الأمر بالابتعاد عن الاسترسال في الظَّنّ، والتشكيك في ثبوته حتى يتبين موجب صدقه، بالنظر والتأمل والتمييز بين حقه وباطله. فالمطلوب هو تعاطي وسائل الاجتناب؛ لأنَّ الظَّنَّ يحصل في خاطر الإنسان اضطراراً عن غير اختيار، فلا يعقل التكليف باجتنابه.(٢)

إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ: ثم بيَّن الله أنَّ بعض الظَّنّ إثم، وبعضه ليس إثماً، وبيَّن الظَّنَّ المأمور باجتنابه وهو الظَّنُّ الذي يترتَّب عليه ذنب يستحق صاحبه العقاب، وهو ما لا يعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر، كظنّ السوء أو الفجور بمن ظاهره الصلاح.(٣)

والمراد هنا الظنُّ المتعلِّق بأحوال الناس، وحذف متعلّق الظَّنّ؛ للحثِّ على

---

(١) انظر: المرجع السابق، ج٢٦/ ٢٠٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/ ٢١٠.

(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ج١١٣/٨.

المبالغة في الاحتياط من الظنون السيئة، والتأمل في آثارها.

وقد أسند الإثم إلى الظَّنِّ السيئ لما يترتَّب عليه من الاعتقاد أو العمل المفضي إلى الإثم، فإنَّ آثار الظَّنِّ إما:

أ _ عملٌ يأثم فاعله، كالغيبة أو التجسُّس، وقد يجول الظَّنُّ الباطل في النفس حتى يحملها على فعل المحذور الذي ذكره الله بقوله: (أن تُصِيبُوا قوماً بجهالة فتُصبحُوا على ما فعلتم نادمين) [سورة الحجرات: ٦].

ب _ أو اعتقاد آثم، يتعلَّق بصفات الله، وهو افتراء على الله، أو يتعلَّق بأحوال الناس، بأن يظنَّ بأحدٍ ما ليس فيه، ويخسر الانتفاع بمن ظنَّه ضاراً، أو الاهتداء بمن ظنَّه ضالاً، أو تحصيل العلم ممن ظنَّه جاهلاً ونحو ذلك.(١)

وَلَا تَجَسَّسُوا: نهى الله المؤمنين عن البحث عن خفايا الناس وعيوبهم.

وجاء النهي عن التجسُّس بعد النهي عن الظَّنِّ السيء؛ لأنَّ التجسُّس من آثاره؛ فالظنُّ يبعث الظانَّ على سلوك طريق التجسُّس؛ لتحقيق ما ظنَّه سرَّاً، لذا حذر الله من سلوك هذا الطريق للتحقق.

وسبب النهي عن التجسُّس:

أ _ ما يترتَّب عليه من الاطلاع على العورات؛ وثلم الأخوة الإسلامية؛ لما ينشأ عليه من الأحقاد، وإظهار العداوة إذا اطلع المتجسِّس على ما يسوؤه.

ب _ وقد يطَّلع المتجسَّس عليه على تجسُّس الآخر، فينشأ في نفسه كره له، وهذا يؤدي إلى تنازعهما، وقد يبعث على انتقام كليهما من أخيه.

ولما كان النهي عن التجسُّس من فروع النهي عن الظن قُيِّد النهي بالتجسُّس الذي يفضي إلى الإثم وهو التجسُّس الذي لا ينجرّ منه نفع للمسلمين أو دفع ضر عنهم، أو الذي يترتب عليه مفسدة عامة. أما التجسُّس على الأعداء،

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/٢٠٩ - ٢١٠.

واللصوص فغير مشمولٍ بالنهي.[1]

وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ

الاغتياب: ذكر أحدٍ بما لا يُحبُّ أن يُذكَر به حال غيابه، إذا لم يكن ما ذكره به مما يثلم العِرض وإلا صار قذفاً.

وقد شبَّه الله اغتياب المسلم أخاه وهو غائب بحالِ المولوع بأكل لحم أخيه الميِّت، للتنفير من الغيبة والإغلاظ على المغتابين.

وفي هذا التشبيه إشارة إلى أنَّ عِرْضَ الإنسان كَدمِهِ ولَحْمِهِ؛ لأنَّ الإنسان يتألمُ قلبه من قرض العرض كما يتألم جسمه من قطع اللحم، وكما لا يحسن من العاقل أكل لحوم الناس، كذلك لا يحسن منه قرض عرضهم.

وفي تشبيه الغائب بالميِّت معنى لطيفٌ وهو أنَّ لحم الآدميّ ميتاً لا يحل أكله إلا للمضطر وبقدر الحاجة إذا لم يجد غيره كلحم الشاة الميتة، وكذلك المغتاب إن وجد لحاجته مدفعاً غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب.[2]

والاستفهام في قوله: (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ)، تقريري، لأنَّ كل أحد يقرُّ بأنَّه لا يحبُّ ذلك؛ لإباء البشرية جحود الكره المتأصِّل في طباعها لأكل لحم الميتة.

والمعنى: تعيّن إقراركم بكراهة لحم الميت، وليتحقق أن تكرهوا نظيره من الغيبة والطعن في أعراض المسلمين.[3]

وضمير الغائب في قوله: (فكرهتموه) عائد إلى (الأكل)، أو إلى (لحم)، أو إلى (ميتاً). والتقدير: أيُحِبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً متغيراً فكرهتموه.

وفي هذا التعبير مبالغة في التحذير من الغيبة، فإنَّ الميت إذا أَنْتَنَ وتغيَّر

---

(١) انظر: المرجع السابق، ج٢١٢/٢٦.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ج ١٧ / ٥٥١.

(٣) انظر: الكشاف، ج٤/ ٣٧٦.

أوجب النُّفْرة إلى حدٍ لا يشتهي الإنسان أن يبيت في بيتٍ توجد فيه جثة ميّت، ولا يرغب أن يقربه، فكيف يمكن أن يأكله وهو على هذه الحال من الكراهة الشديدة، وكذلك ينبغي أنْ يكون نفور المؤمن من الغيبة.(١)

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ

عطف الله الأمر بالتقوى على ما تقدم من الأوَامِر والنواهي. والتقوى هي فعل الأوامر وترك المنهيَّات، وذلك لحمل المؤمنين على الامتثال بما يشبه التأكيد بهذا التذييل: فمن كان سالماً من التلبس بتلك المنهيات، فالأمر بالتقوى يجنبه التلبس بشيء منها في المستقبل. ومن كان متلبساً بها أو ببعضها فالأمر بالتقوى يعني الأمر بالكف عما هو متلبس به منها.

إنَّ الله تواب رحيم: يبالغ في قبول التوبة وإفاضة الرحمة، ويجعل التائب كمن لم يذنب، ولا يخصُّ بذلك أحداً، بل يعمُّ الجميع وإن كثرت ذنوبهم.(٢)

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

لما أمر الله تعالى المؤمنين بأن يكونوا إخوة وأن يصلحوا بين الطوائف المتقاتلة ونهاهم عما يثلم الأخوة وما يَغِين على نُورها في نفوسهم من السخرية واللمز والتنابز والظَّنّ السوء والتجسُّس والغيبة، ذكَّرهم بأصل الأخوة في الأنساب التي أكدتها أخوة الإسلام ووحدة الاعتقاد ليكون ذلك التذكير عوناً على تبصرهم في حالهم.

وقد أعيد النداء في هذه الآية للاهتمام بالغرض الذي تضمنه الكلام بعده، إذ كان إعجابُ كل قبيلة بفضائلها وتفضيل قومها على غيرهم فاشياً في

---

(١) انظر: اللباب، ج٥٥٢/١٧.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي، ج٢١٩/٥ ، وتفسير أبي السعود، ج١٢٢/٨.

الجاهلية، وكان ذلك يجرّ إلى التنازع والتقاتل، وتتفرع عليه السخرية واللمز والنبز والظنُّ والتجسُّس والاغتياب، فجاءت هذه الآية لتأديب المؤمنين على اجتناب ما كان في الجاهلية؛ لاقتلاع جذوره الباقية في النفوس، خاصَّة بعد كثرة الداخلين في الإسلام، واختلاط طبقات المؤمنين بعد سنة الوفود.

وقد جعل الله الإنسانيَّة عنوان النداء في هذه الآية، فقال: (يا أيها الناس) ولم يقل: (يا أيها الذين آمنوا)؛ رعياً لمضمون الآية وغرضها، وهو التذكير بأن أصل الناس واحد، وأنَّهم في الخلقة سواء، ليتوسل من عنوان الإنسانية إلى أنَّ التفاضل والتفاخر بين الناس يكون بالفضائل، وأنَّ التفاضل في الإسلام يكون بزيادة التقوى.

والمراد بالذَكَر والأنثى: آدم وحواء، بقرينة قوله: (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) فإن الشعوب والقبائل والبشر جميعاً منهما.(١)

وقد بيَّن اللَّه أنَّه خلق الخلق من الذكر والأنثى، ولو شاء لخلقه من غيرهما كخلقه لآدم، أو من غير أم كخلقه حواء، أو من غير أب كخلقه عيسى عليه السلام، لكنه أراد أن يكون الخلق من ذكر وأنثى، ليبيَّن أنَّ التفاضل بين الناس لا يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة، فالناس سواء في المنشأ الإنساني، وفي الحقوق والواجبات. واكتساب الفضائل هو الأمر الذي يرفع بعض الناس على بعض؛ لأنَّ التقوى هي ميزان التفاضل بين الناس.

والشعوب: جمع شعب، وهو مجمع القبائل التي ترجع إلى جد واحد من أمة مخصوصة، وتحت القبيلة العمارة مثل قريش من كِنانة، وتحت العمارة البطن مثل قصيّ من قريش، وتحت البطن الفخِذ مثل هاشم وأمية من قَصي، وتحت الفخذ الفصيلة مثل أبي طالب والعباس وأبي سفيان.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/٢١٥.

واقُتصر على ذكر الشعوب والقبائل؛ لأنَّهما أعلى طبقات النسب، وهما أعم مما يدخل تحتهما، ولأنَّهما أقصى ما يسهل على الآدمي معرفته، ولأنَّ ما دونهما أولى منهما بالدخول في علَّة الحكم.

وتجاوز عن ذكر الأمم؛ جرياً على المتداول في كلام العرب في تقسيم طبقات الأنساب، إذ كانوا لا يدركون إلا أنسابهم.(١)

وقد اقتصر على ذكر النسب من جملة أسباب التفاخر، ولم يذكر المال، لأنَّ الأمور التي يفتخر بها في الدنيا وإن كانت كثيرة، لكن النسب أعلاها، لأنَّ المال قد يحصل للفقير فيبطلُ افتخار المفتخر به عليه، والسنّ والحسن وغير ذلك لا يدوم، ولكن النسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له ذلك، فاختاره الله للذكر وأبطل اعتباره بالنسبة إلى التقوى، ليعلم منه بطلان غيره بطريق الأولى.(٢)

لِتَعَارفُوا: أي: ليعرفَ بعضُكم بعضاً في قُرْب النسب وبعده، وليعرف كل إنسان من يقاربه في النسب فيصل رحمه.(٣)

والتعارف بين الناس يحصل طبقة بعد طبقة متدرجاً إلى الأعلى، فالعائلة الواحدة متعارفون، والعشيرة متعارفون إذ لا يخلون عن انتساب ومصاهرة، وهكذا تتعارف العشائر مع البطون والبطون مع العمائِر، والعمائِر مع القبائل، والقبائل مع الشعوب؛ لأنَّ كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها.

وهذا التقسيم جعله الله نظاماً محكماً لربط أواصر الناس من غير مشقة؛ فإنَّ التعارف بين عدد كبير من الناس يكون بتحصيله بين العدد القليل، ثم بين طوائف من ذلك العدد القليل، ثم بينه وبين جماعات أكثر، وعلى هذا الناموس تمَّ تعارف الحضارات.

---

(١) انظر: المرجع السابق، ج٢٦/٢١٦.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٨/١١٨، واللباب، ج١٧/٥٥٤.

(٣) انظر: نظم الدرر، ج٧/٢٣٦.

وجملة (لتعارفوا) لبيان علة التشعب ليوقف عندها، والتحذير مما فعله الناس من تحريف الفطرة، باستعمال التشعيب في فاسد لوازمه وإهمال صالح ما جعل له وهو التعارف والتواصل، وقلب موازين الحكمة الإلهيَّة بجعل اختلاف الشعوب سبباً للتنافر والتنازع والتفاخر بالأنساب والأعراق، وغير ذلك من الأمور التي تتعارض مع وحدة المنشأ الإنساني.(١)

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ: هذه الجملة تنزل من جملة (إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى) منزلة البيان، وهي مستأنفة استئنافاً ابتدائياً، وإنَّما أُخِّرت في النظم عن جملة (إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)، لتكون تلك الجملة السابقة كالتوطئة لهذه، وتتنزل منها منزلة المقدمة، لأنهم لما تساوَوا في أصل الخلقة من أب واحد وأم واحدة، كان الشأن ألا يفضُل بعضهم بعضاً إلا بالكمال النفساني الذي يرضاه الله لهم، والذي جعل التقوى وسيلته.

والمعنى: إنَّ أشرفكم منزلة عند الله تعالى هو الأتقى الأصلح لنفسه وللجماعة، فإن حدث تفاخر فليكن بالتقوى التي هي التزام المأمورات واجتناب المنهيات.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ: أي يعلم ظواهركم وأنسابكم، ولا تخفى عليه بواطنكم وأسراركم فاجعلوا التقوى زادكم. وهذا التذييل في موضع الترهيب والترغيب، فإنَّ الله يعلم ما في النفوس ويحاسب عليه.

وجملة (إنَّ الله عليم خبير) تعليل لمضمون (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ). أي: إنَّما كان أكرمكم أتقاكم، لأنَّ الله عليم بالكرامة الحق، ومعيار الكرامة عند الله هو التقوى، وأنتم جعلتم المكارم في غير ذلك من البطش وإفناء الأموال في غير وجوه الحقّ، والله خبير بمقدار حظوظ الناس من التقوى، وهي عنده حظوظ الكرامة، فالأكرم هو الأتقى، (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) [سورة

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/٢١٧.

النجم: ٣٢] أي هو أعلم بمراتبكم في التقوى، التي هي معيار التزكية الحق.

وقوله: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) لا ينافي أن تكون للناس مكارم أخرى في المرتبة الثانية بعد التقوى مما شأنه أن يكون له أثر تزكية في النفوس مثل حسن التربية ونقاء النسب، والعلم وحسن السمعة في الأمم، وغير ذلك. فإنَّ للتهذيب والتربية آثاراً جمّة في تكميل النفوس أو تقصيرها، وللعوائد والتقاليد آثارها في الرفعة والضعة، وكل هذه وسائل لإعداد النفوس إلى الكمال الحقيقي الذي تخططه التقوى.(١)

الأساليب البلاغيَّة:

١ _ **تشبيه تمثيلي:** في قوله: (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً)، مثّل المغتاب بمن يأكل لحم الإنسان الميت. وقد ضرب المثل لثلم العرض بأكل اللحم؛ لأنَّ اللحم ستر على العظم، والشاتم لأخيه يكشف ما عليه من ستر.

وشبَّه الغائب بالميِّت؛ لأنَّ الميت لا يحس، وكذلك الغائب لا يسمع ما يقول فيه المغتاب، والغيبة تشبه في حكم التحريم أكل لحم الميت.

٢ _ **الطباق:** بين (أيحب) وبين (فكرهتموه).

٣ _ **أساليب المبالغة في قوله:** (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً):

أ _ الاستفهام التقريري الذي لا يقع إلا على أمر مسلّم لا ينكره المخاطب.

ب _ جعل ما هو شديد الكراهة مفعولاً لفعل المحبة، للإشعار بفظاعة حال من ارتضاه لنفسه، إذ لم يقل: (أيَتحمل أحدكم أن يأكل لحم أخيه)، بل قال: (أيحبُّ أحدكم).

ج _ إسناد الفعل إلى (أحد)؛ للإشعار بأن لا أحد يحبُّ ذلك.

د _ لم يقتصر على تمثيل الغيبة بأكل لحم الإنسان بل جَعل الإنسان أخاً.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/٢١٩.

هـ _ لم يقتصر على كون المأكول لحم الأخ، بل جعل الأخَ ميتاً.[1]

المعنى الإجمالي للآيات:

أيها المؤمنون الذين شرفت نفوسكم بالإيمان، أنتم أبناء المجتمع الفاضل الذي يمتاز بالأدب الرفيع، ويحفظ لكل فرد كرامته.

لذا لا ينبغي أن يهزأ بعضكم من بعض؛ فلربما كان المهزوء به عند الله خيراً من الهازئ؛ لنظافة قلبه وصفاءِ نفسه، وقد يسخر الغني من الفقير، والقوي من الضعيف، لما يرونه من تباعد بينهما في القيم الظاهرة، متغافلين عن ميزان الله الذي يرفع ويخفض بغير الموازين الأرضيَّة، ولذلك لا ينبغي أن يعيب بعضكم بعضًا، بالقول أو الإشارة أو نحوهما، فإنَّ المؤمنين كنفس واحدة، فإذا لمزتَ أخاك وعبتهُ فكأنَّما لمزت نفسك وعبتها، ولا يَدْعُ بعضكم بعضًا بما يكره من الألقاب، إذ إنَّ حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويزري به، ومن أدب المؤمن ألا يؤذي أخاه بما يسوء سماعه. بئس الوصف أن يتصف المرء بالفسوق بعد أن وُصِفَ بالإيمان، فإن ذلك أمر لا يليق بالمؤمنين، وحقُّ الإيمان أن يعصم الناس عن أن يعيب بعضهم بعضاً، ومن لم يتب من الاستهزاء بغيره وتنقيصه بالعيب فيه، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم ولإخوانهم المؤمنين.

يا أيها الذين آمنوا بالله، ابتعدوا عن التهم التي لا تستند لما يوجبها من أسباب وقرائن، ولا تتركوا نفوسكم نهباً لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك؛ فإنَّ بعض الظَّنِّ إثمٌ لا ينبغي أن تلوثوا به قلوبكم، واحفظوا ضميركم نقياً بريئاً من الهواجس والشكوك، ولا تتبعوا عورات المؤمنين، ولا يذكر أحدكم أخاه بما يكره، فإنّ ذِكْره بما يكره مثل أكل لحمه، أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا؟! فاكرهوا اغتيابه، واتقوا الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، إنَّ الله تواب على من تاب من عباده، رحيم بهم.

---

(١) انظر: البحر المحيط، ج٨/ ١١٤.

أيها الناس، إنَّا خلقناكم من ذكر واحد هو أبوكم آدم، وأنثى واحدة هي أمكم حواء، فنسبكم واحد، فلا يفخر بعضكم على بعض في النسب، وصيّرناكم بعد ذلك شعوبًا كثيرة وقبائل منتشرة، والغاية من جعلكم شعوباً وقبائل ليست التناحر والخصام، إنَّما التعارف والوئام، أما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والمواهب، فتنوع يقتضي التعاون للنهوض والوفاء بجميع الحاجات. وليس للون والجنس واللغة والوطن من حساب في ميزان الله، فإنَّ معيار التفاضل والتمايز عند الله هو التقوى. إنَّ الله عليم بأحوالكم، خبير بما تكونون عليه من كمال ونقص، لا يخفى عليه شيء من ذلك.

الفوائد والأحكام:

أولاً: الألقاب أمرٌ مألوف مشتهر بين العرب، وهي نوعان:

أ _ الألقاب الحسنة: وهي التسمية أو الكنية التي يستحسنها المدعو بها، وهي من السنة والأدب الحسن، وقد لقَّب النبي ﷺ أبا بكر الصديق، وعمر الفاروق، وحمزة أسد اللَّه، وخالداً سيف اللَّه رضي الله عنهم.

ب _ الألقاب المكروهة: وهي الألقاب السيئة التي يكرهها المدعو بها، وهي المقصودة بالنهي والتحريم في قوله تعالى: (ولا تنابزوا بالألقاب).

ويستثنى من حرمة التنابز بالألقاب، اللقب الذي صار كالاسم لصاحبه، فلم يعد يعرف إلا به، ولم يكن فيه قصد الذمّ أو الاستخفاف أو الأذى. وقد لقَّب النبي ﷺ عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه أبا هريرة واشتهر بهذا اللقب، واشتهر بعض المحدثين بألقابهم: كاشتهار عبد الرحمن بن هرمز بلقب (الأعرج)، واشتهار سليمان بن مَهران بلقب (الأعمش).[1]

ثانياً: يدل قوله تعالى: (اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) على

(١) انظر: البحر المحيط، ج٨ /١١٢، والمجموع، ج٨/ ٤٤١.

أنَّ الظنون أنواع مختلفة، والمأمور باجتنابه هو الظنُّ المحكوم عليه بأنَّه إثم، وهو الظنُّ الذي لا يعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر يقوي ثبوته، كظن السوء بمن ظاهره الصلاح.

ومفهوم المخالفة يدلّ على أنَّ الظنَّ الذي لا يترتب عليه الإثم لم نؤمر باجتنابه؛ لذا يجب على المُسلم أن يكون معيارُه في تمييز أحد الظنين من الآخر أن يعرضه على مقاصد الشريعة، وما جاء في الكتاب والسنة وإجماع العلماء، وما أفاده الاجتهاد الصحيح.(١)

وقد ذكر العلماء للظنِّ أربعة أحكام بحسب اختلاف متعلَّقه وأماراته:(٢)

الأول: الظنُّ الواجب: ويشمل:

أ _حسن الظَّنِّ باللّه تعالى، جاء في حديثٍ قدسيٍّ أخرجه البخاري: "أنا عند ظن عبدي بي"،(٣) وأخرج مسلم عن النبي ﷺ: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظنَّ باللّه"(٤)

ب _حسن الظَّنِّ بالمؤمنين: وينبني عليه قبول شهادة العدول في أمور الدين، والمعاملات والجنايات، كتحري القبلة، ورؤية الهلال، وتقويم المستهلكات وأروش الجنايات غير المقدرة شرعاً.

ج _ الظنُّ المستند إلى الدليل الحاصل من دلالة الأدلة الشرعية، فإن أكثر التفريعات الشرعية حاصلة من الظَّنِّ المستند إلى الأدلة. وينبني عليه استنباط الأحكام الشرعيَّة الفرعيَّة العمليَّة بالاجتهاد.

د _ سوء الظَّنِّ بالعدو، وينبني عليه الحَذر من مكائد الأعداء في الحرب.

---

(١) انظر: أحكام القرآن، لابن العربي، ج٧/ ٢٢٠.

(٢) انظر: أحكام القرآن، للجصاص، ج٥/ ٢٨٧ –٢٨٩، والتفسير المنير، ج ٢٦/ ٢٦٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله: (ويحذركم الله نفسه)، رقم (٦٩٧٠)، ج٦/ ٢٦٩٤.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، ج٤/ ٢٢٠٥.

الثاني: الظنُّ المحظور المحرَّم: وهو ظنُّ السوء باللّه، وبأهل الصلاح من المسلمين، وقد ذمَّ الله الذين يتبعون الظنون الكاذبة، لما ينشأ عليها من العقائد الضالة والمذاهب الباطلة. قال تعالى: (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَالْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ) [سورة آل عمران: ١٥٤] وعليه يحمل قول النبي ﷺ: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ).(١)

الثالث: ظنٌّ مندوب إليه: ويشمل حسن الظَّنِّ بالمسلم مستور الحال، وإساءة الظَّنِّ بمن يجاهر بالفجور، شريطة ألا يكون لسوء الظَّنِّ أثر يتعدى إلى الغير، وألا يرتِّب على ظنِّه معصية، كقذف عرضه. وإنما يقتصر على القدر اللازم لاتقاء شرِّه، وترك الاقتداء بمن ليس أهلاً للتأسي.

الرابع: الظنُّ المباح: ومنه ظنُّ السوء بمن لا يحرص على نفسه من إساءة الظَّنِّ به باجتناب مواضع الريبة ومواقف التهم.

ثالثاً: دلَّ النهي في قوله تعالى: (وَلَا تَجَسَّسُوا) على تحريم التجسُّس، وهو البحث عن الأمور المخفيَّة التي لا يترتَّب على معرفتها جلب نفع للمسلمين أو دفع ضرٍّ عنهم. أما التجسُّس الذي يفضي إلى حصول مفسدة عامة، كالتجسُّس على المسلمين لمن يبتغي الضُرّ بهم فهو من الكبائر.

ويستثنى من حرمة التجسُّس: ما أدى إلى تحصيل منفعة، أو دفع ضرر عن المسلمين، كالتجسُّس على الأعداء، وتجسُّس الشُرَطة على اللصوص.(٢)

رابعاً: دلَّت الآية على تحريم الغيبة، ونصَّت الأحاديث الصحيحة على حرمتها، ومن ذلك قول النبي ﷺ في خطبة الوداع: "فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِى شَهْرِكُمْ هَذَا فِى بَلَدِكُمْ هَذَا"(٣)

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا)، رقم (٥٧١٩)، ج٥/ ٢٢٥٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/٢١١ -٢١٢.

(٣) صحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم =

وقوله ﷺ: "كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ مَالُهُ وَعِرْضُهُ وَدَمُهُ حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ"(١)

والغيبة من كبائر الذنوب عند الجمهور، لأنَّ فيها اشتغال الإنسان بما لا يعنيه من أحوال الناس وترك الاشتغال بالمهم النافع له، ولأنَّها تشتمل على مفسدة ضُعف في أخوة الإسلام، ولما يترتَّب عليها من العداوة بين المغتاب والغائب إذا بلغه ما قيل عنه.(٢)

وذهب الشافعية إلى أنَّ الغيبة من الصغائر؛ لأنَّ الكبيرة في اصطلاحهم: فِعلٌ يؤذن بقلة اكتراث فاعله بالدين ورقة الديانة. وضابط ذلك أن يكثر في الناس كثرةً بحيث يصير غير دالّ على استخفاف بالوازع الديني فحينئذٍ يفارقها معنى ضعف الديانة الذي جعله الشافعية جزءاً من ماهية الغِيبة.(٣)

ويجب التوبة من الغيبة بالإقلاع عنها والعزم على ألا يعود، واختلف العلماء في وجوب الاستحلال ممن اغتابه، والجمهور على التفصيل بين حالين:

أ _ إذا لم تبلغ الغيبة المغتاب يكفيه النَّدم والتوبة، ولا يجب إعلامه، وخاصةً إن علم أنَّ إعلامه يوغر صدره، ويرتِّب مفسدة أعظم من حرمة الغيبة.

ب _ إن بلغته وجب بيانُ كلِّ ما اغتابه به، والاستحلال، وإن علم أنَّ إعلامه يثير فتنة أكبر ومفسدة أعظم فليتب إلى الله ويستغفر لنفسه ولمن اغتابه، وأن يثني عليه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسب طاقته.(٤)

(١٦٧٩)، ج٣/ ١٣٠٥.

(١) سنن أبي داوود، كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم (٤٨٨٤)، ج٤/ ٤٢٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/٢١٤.

(٣) انظر: حاشية إعانة الطالبين، لأبي بكر المشهور بالسيد البكري ابن السيد محمد شطا الدمياطي، على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرة العين بمهمات الدين، لزين الدين بن عبد العزيز المليباري الفناني، دار الفكر، بيروت، ط١٤١٨/١هـ - ١٩٩٧م، ج٢/ ٢٥٠.

(٤) انظر: إعلام الأنام، (المجتمع)، ص ٥٦٦ –٥٦٧.

ويستثنى من حرمة الغيبة أمور تجوز فيها الغيبة إذا كان الغرض منها تحصيل غرضٍ شرعي، لا يتوصَّل إلى تحصيله إلا بها، ومن ذلك:[١]

١ _ التظلُّم عند ولاة الأمور والقضاة، ومن له قدرة على إنصافه من الظالم، لقوله تعالى: (لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ) [سورة النساء: ١٤٨]. وقول النبيّ ﷺ: "ليّ الواجد يحلّ عرضه وعقوبته"[٢]

٢ - الاستفتاء: بأن يبيّن المستفتي للمفتي ما وقع عليه من ظلم فلان له، لمعرفة طريق الوصول إلى حقه، ومنه حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ هِنْدَ بِنْتَ عُتْبَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ. فَقَالَ: "خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ"[٣]

٣ _ التحذير من الفسّاق وأرباب البدع. وقد قال النبي ﷺ لما استؤذن عنده لعُيينة: "ائذنوا له بئس أخو العشيرة"[٤] وكان يومئذ معرِضاً عن الإسلام.

٤ – تجريح الشهود ورواة الحديث، والنصيحة للمستشير في مخالطة أو شراكة، أو مصاهرة، بشرط ألا يتجاوز الحد الذي يحصل به وصف الحال المسؤول عنه. ومنه قوله ﷺ لفاطمة بنت قيس وقد خطبها معاوية وأبو الجهم: "أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له"[٥]

٥ _ التعريف بلقب لا يُعرَف الإنسان إلا به، كالأعمش والأعرج، وغيره مما هو معروف في أسماء بعض العلماء، وكُنى بعض النَّاس.[٦]

---

(١) انظر: إعانة الطالبين، ج٣/ ٢٦٩.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأقضية، باب في الْحَبْسِ فِي الدَّيْنِ وَغَيْرِهِ، رقم (٣٦٣٠)، ج٣/ ٣٤٩.

(٣) صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها من معروف، رقم (٥٠٤٩) ج٥/٢٠٥٢.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد، رقم (٥٧٠٧)، ج٥/ ٢٢٥٠.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها، رقم (١٤٨٠)، ج٣/ ١١١٤.

(٦) انظر: إعلام الأنام، العقوبات والمجتمع، ص ٥٤٢ –٥٤٣.

خامساً: احتجَّ الإمام مالك بقول الله تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) على أنَّ الكفاءة تراعى في الدّين فقط، ولا يشترط الكفاءة في الحسب والمال.[1] وخالفه جمهور الفقهاء؛ استناداً إلى دِلالة أحاديث صحيحة تؤيّد اعتبار الكفاءة في النسب وغيره، ومراعاةً للأعراف، وتحقيقاً لهدف الزواج وهو الدوام والاستقرار.[2]

(١) انظر: بداية المجتهد، ج٢/ ١٤.

(٢) انظر: المبسوط، ج٤/ ٥٤، والمجموع، ج١٦/ ١٨٢، والمبدع في شرح المقنع، ج٧/ ٥٣.

قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (١٨)

[سورة الحجرات: ١٤ _ ١٨]

مناسبة الآيات لما قبلها:

أمر الله سبحانه في الآيات السابقة بإجلال رسوله ﷺ، وحفظ رابطة الأخوة التي تربط أبناء أمته، ونهى عن التفاخر الذي يفضي إلى التقاطع والتناحر، ثم ذكر قصَّة الأعراب الذين زعموا بألسنتهم أنَّهم قد آمنوا ولما تؤمن قلوبهم بعد، ليبيّن أنَّ الإيمان لا يُعتدُّ به إن لم يقترن بالإخلاص، وكذلك لا يعتد بفعل شيء مما أمر الله به أو نهى عنه في الآيات السابقة إلا مع الإخلاص.(١)

وفي الآيات السابقة امتنَّ الله على المؤمنين بتزيين الإيمان في قلوبهم، فقال: (ولكن الله حبب إليك الإيمان وزينه في قلوبكم)، ثم أمر بالتقوى وبيَّن أنَّها ميزان التفاضل بين الناس، وفي هذه الآيات بيَّن علامات الإيمان الصحيح ودلائل التقوى، وهي: التصديق باللّه ورسوله، والإخلاص في القلب، والجهاد بالنفس

(١) انظر: نظم الدرر، ج٧/٢٣٧.

والمال في سبيل اللَّه. وعرَّض بأنَّه لا ينبغي لمؤمن أن يمنَّ على الرسول ﷺ بإيمانه، لأنَّ حبَّ الإيمان وتزيينه في قلب المؤمن فضل ونعمة من الله.

أسباب النزول:

نزلت الآيات في أعراب أسدٍ بن خُزيمة، قدموا على رسول الله ﷺ المدينة في سنة جدب فأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون للنبيِّ ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال طوعاً، ولمْ نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة، وجعلوا يمنون عليه، فأنزل الله فيهم هذه الآيات.(١)

معاني المفردات:

الْأَعْرابُ: سكان البادية من العَرب، وهو اسم جمع لا مفرد له، والواحد منه (أعرابيّ) بياء النسبة.

آمَنَّا صدّقنا بما جئت به بألسنتنا وقلوبنا. والإيمان: التصديق بالقلب.

أَسْلَمْنَا: استسلمنا بإظهار الإسلام، ونطق الشهادتين، وترك المحاربة.

لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ: لا ينقصكم من ثواب أعمالكم.

ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا: لم يحدث لهم ريبة أو شك في صدق ما آمنوا به.

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا: يعدون إسلامهم من غير قتال نعمةً مسداةً إليك.

القراءات والإعراب:

وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ: جملة في موقع الحال من ضمير (لم تؤمنوا).

لا يلتكم: قرأ الجمهور (يلتكم)، وقرأ أبو عمرو ويعقوب (يألتكم) بالهمز.(٢)

وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ: حال من مفعول (تعلِّمون)

---

(١) انظر: أسباب النزول، للواحدي، ص ٣٨٥، ولباب النقول في أسباب النزول، ص ١٨٢.

(٢) النشر في القراءات العشر، ج٢/ ٤١٦.

تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ: منصوب بنزع الخافض أي بإسلامكم.

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ: قرأ الجمهور (تَعْمَلُونَ) بتاء الخطاب، وقرأه ابن كثير (يَعْمَلُونَ) بياء الغيبة.(١)

الأساليب اللغوية:

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

يبيّن الله سبحانه في هذه الآيات أنَّ الإيمان الصحيح هو التصديق مع طمأنينة القلب، والوثوق الكامل بالله، واتفاق القلب واللسان والعمل، أما الانقياد الظاهري الذي لا يصحبه الإخلاص، فهو استسلام لأحكام الإسلام، فإن أعقبه امتثالٌ وطاعةٌ وإخلاصٌ لله، فقد حاز المسلم ثواب أعماله لا ينقص منها شيئاً، لأنَّ الله يغفر الزَّلاَّت إذا تاب العبد منها، ولا يعذِّب على ذنب قد غَفَره.

وتعريف الأعراب في الآية تعريف العهد وليس الجنس، لأنَّ المقصود أعراب بني أسد، والقول المذكور في الآية لم يقله غيرهم؛ لذا فإنَّ حكم الآية لا يشمل جميع سكان البوادي.

قالت أعراب بني أسد: (آمنا) فزعموا أنهم مصدِّقون بما جاء به النبيُّ ﷺ تصديقاً كاملاً، وذلك قبل أن ينتفي الشك الذي كان في قلوبهم، لذا أمر الله نبيَّه ﷺ أن يخبرهم أنَّ الإيمان الصحيح هو طمأنينة القلب مع التصديق الجازم بما آمنوا به،(١) وأما ما في قلوبهم فإنَّه الإسلام وليس الإيمان، قال تعالى: (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)، أي: استسلمنا خوف القتل، وحذراً من الحرب، وطمعاً بأن تشملنا أحكام الإسلام من حقن الدماء وحفظ الأموال والأعراض.(٢)

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/ ٢٢١.

(٢) انظر: حول تفسير سورة الحجرات، ص ٣٤١ –٣٤٣.

وجاء الاستدراك بحرف (لكن)؛ لرفع ما يتوهم من قوله: (لم تؤمنوا) أنَّهم جاؤوا مضمرين الغدْر بالنبي ﷺ. ولبيان الفرق بين الإيمان والإسلام، فإنَّ الأعراب لما أظهروا الإسلام كانت قلوبهم غير مطمئنة لعقائد الإيمان؛ لأنَّهم حديثو عهد به، لذا أخبرهم الله أنَّه لا يعتدّ بالإسلام إلا إذا قارنه الإيمان، فلا يغني أحدهما عن الآخر، فالإيمان من غير إسلام عناد، والإسلام من غير إيمان نفاق، ويجمعهما طاعة الله ورسوله ﷺ.

ومقتضى الظاهر في الكلام أن يتحقق التوافق بين المستدرك عنه والاستدراك بحسب النظم المتعارف في المجادلات، فيقال: (قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا)، لكن القرآن عدل عن مقتضى الظاهر، فقال: (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)، لأنَّ النظم الموافق لمقتضى الظاهر (قل لا تقولوا آمنا) مُؤدّاه النهي عن الإعلان بالإيمان، وهذا المعنى غير مقصودٍ؛ لأنَّهم مطالبون بأن يؤمنوا ويقولوا آمنا قولاً صادقاً لا كاذباً.(١)

ثمَّ قال: (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) وهذه الجملة في موقع الحال من ضمير (لم تؤمنوا)، ليبيّن أنَّ انتفاء الإيمان عنهم في قوله: (لم تؤمنوا) ليس انتفاء التصديق باللسان، لكنه انتفاء رسوخه في القلب؛ إذ كان فيهم بقية من ارتياب كما أشعر به قوله: (ثم لم يرتابوا).

وآثر التعبير بالدخول، للدلالة على تزلزل الإيمان في قلوبهم، وعدم تمكُّنه واستقراره؛ فإنَّ الداخل إلى المكان يتمكن ويَسْتقر، والخارج عنه يكون سريع المفارقة له، متأَّهِباً للانصراف عنه.

وقوله: (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) ليس تكريراً مع قوله: (لم تؤمنوا)، لأنَّ النظم هنا نفى الإيمان بحرف (لمّا)، الذي يدلُّ على استمرار النفي حتى زمن التكلم، وتوقُّع حصول المنفي بها في المستقبل، وهذا النظم يؤذن أنَّ هؤلاء قد

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/ ٢٢١.

آمنوا فيما بعد.[1]

وقوله: (وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا) إرشاد إلى أنَّ علاج ضعف الإيمان هو طاعة الله ورسوله ﷺ، والإقبال على تعلُّم عقائد الإيمان من رسول الله ﷺ مدة إقامتهم بالمدينة، عوضاً عن الاشتغال بالمَنّ والتعريض بطلب الصدقات.[2]

وضمير الرفع في (يلتكم) عائد إلى اسم الله، ولم يقل: (لا يَلِتَاكم) بضمير التثنية؛ لأنّ الله هو متولي الجزاء، وليس الرسول ﷺ.

والمعنى: إن أخلصتم الإيمان كما أمركم الله تقبَّل أعمالكم، ومنها دخولكم في الإسلام من غير قتال، وأثابكم عليها من غير أن ينقص من أجوركم شيئاً.

وجملة (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ترغيب في إخلاص الإيمان، بإعلامهم أنَّ الله يتجاوز عن كذبهم إذا تابوا، ويجازيهم على الأعمال الصالحة الواقعة في حال الكفر، وكأنَّها حصلت بعد الإيمان، وذلك من فرط رحمته بعباده.

وترتيب (رحيم) بعد (غفور)؛ لأن الرحمة أصل للمغفرة، وشأن العلة أن تورد بعد المعلَّل بها.[3]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

بعد أن ميَّز الله بين الإيمان والاستسلام في الآية السابقة، شرع ببيان الدلائل الباطنة والظاهرة التي تؤكّد حقيقة الإيمان لدى المؤمن، فقال: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا) أي: لم تكونوا مؤمنين؛ لأنَّ الإيمان ينافيه الارتياب. وهذه الجملة بمنزلة التعليل لقوله: (لم تؤمنوا) وهي من

(١) انظر: الكشاف، ج٤/ ٣٨٠، والتحرير والتنوير، ج٢٦/ ٢٢١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/ ٢٢٢.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٢٢/٢٦.

جملة ما أُمِر الرسول ﷺ بأن يقوله للأعراب.

و(إنَّما) للحصر، والقصر هنا إضافيٌّ، غرضه: إثبات الوصف لغير المقصور؛ لإخراج المتحدث عنهم عن أن يكونوا مؤمنين. والمعنى: المؤمنون الذين هذه صفاتهم غير أولئك الأعراب، الذين انتفى عنهم الإيمان؛ لانتفاء هذه الصفات.

والقصر الإضافيّ لا يقتضي أنَّ حقيقة الإيمان لا تتقوم إلا بمجموع تلك الصفات؛ لأنَّ عدَّ الجِهاد في سبيل الله ضمن دلائل الإيمان يمنع من ذَلك؛ لأنَّ الذي يقعُد عن الجهاد لا ينتفي عنه وصف الإيمان.

والمقصود من ذكر الجهاد التنويه بفضل المؤمنين المجاهدين، وتحريض الذين دخلوا في الإيمان على الاستعداد للجهاد. قال تعالى: (قل للمخلفين من الأعراب ستُدْعَون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يُسلمون) [سورة الفتح: ١٦][١]

ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا: حرف (ثمَّ) حرف عطف يفيد التراخي الزماني الرتبي، وقد آثر النظم هذا الحرف في العطف على حرف (الواو) الذي يقتضي التغاير مجرَّداً عن معنى التراخي، فقال تعالى (ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)، ولم يقل: (ولم يرتابوا)، وجعل عدم الارتياب متراخياً عن الإيمان مع أنَّه لا ينفك عنه؛ للدلالة على أنَّ انتفاء الريب هو الأصل في الإيمان، وهو أعلى رتبةً من الإيمان، إذ به قوامُ الإيمان، وللإشعار بأنَّ اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان ليس في حال إنشائه فقط، بل ينبغي أن يبقى في القوة والثبات والاستمرار متجدداً متزايداً في جميع الأزمنة، وللتنبيه على أنَّ المؤمن الحقيقي ينبغي ألا يعتريه ضعف في الأزمنة المتطاولة، كما يعتري الضعفاء بعد حين.[٢]

وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: أي: بذلوا أموالهم وأرواحهم تقرُّباً إلى الله، والمفعول محذوف، والتقدير: جاهدوا المشركين والكفار، لأنَّه دليل

(١) انظر: المرجع السابق، ج٢٦/٢٢٣.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، ج٨/١٢٤، وروح المعاني، ج٢٦/١٦٨.

على صحة الإيمان. ويبعد أن يريد جهاد أهواء النفس، لقرينة ذكر المال، فإنَّ جهاد أهواء النفس لا يستلزم بذل المال.[1]

وقدَّم المال على النفس؛ لحرص كثير من الناس عليها، حتى أنَّهم يهلكون أنفسهم بسببها، ومن أجل التعريض بالأعراب الذين لم يكتفوا بترك الجهاد بأموالهم، بل أظهروا الإسلام حباً للمغانم، وطمعاً بالصدقات.[2]

أولئك هُمُ الصَّادِقُونَ: تعريف طرفي الجملة يفيد القصر، وهو قصر إضافيٌّ لا يقتضي نفي الإيمان عن غيرهم، وإنَّما القصر باعتبار الإضافة إلى إيمان الأعراب، أي هم المؤمنون لا الأعراب.[3]

والمعنى: الذين اتصفوا بهذه الصفات هم المؤمنون الصَّادِقُونَ في إيمانهم، لأنَّ أفعالهم جاءت مصدِّقة لأقوالهم، وليس الأعراب الذين قالوا: آمنا بألسنتهم، ولم يخلصوا في أعمالهم.

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

مضمون هذه الآية من تتمة الكلام الذي أُمِر النبي ﷺ أن يقوله للأعراب، ومبدؤه من قوله تعالى: (لم تؤمنوا). فهذه الجملة متصلة بجملة مقول القول الأول، ولذلك لم تعطف جملة الاستفهام على ما قبلها، وأعيد فعل (قل)، لطول الفصل بالجمل المتتابعة، وجملة (قل) معترضة.

أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ: هل تخبرون الله أنَّكم مؤمنون بقولكم (آمنا).

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ: والحال أنَّ علم الله محيطٌ

---

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ج٣/٧٣.

(٢) انظر: روح المعاني، ج٢٦/١٦٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/ ٢٢٣.

بجميع ما يظهر وما يَخفى في السماء والأرض، ومن جملتها ما أخفوه من الكفر عند إظهار الإيمان.

وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ: وعلم الله لا يقتصر على علوم الأرض والسماء، بل يشمل جميع الموجودات التي هي أعظم من السماء والأرض، كالعلم بصفاته، والعلم بعوالم العرش.

وفي هذا تجهيل لهم وتوبيخ؛ إذ حاولوا إخفاء باطنهم عن المطّلع على كل شيء، ولذلك جاء الكلام بأسلوب الاستفهام لغرض التوبيخ.(١)

والتعليم بمعنى الإعْلام، وصيغة التفعيل تقتضي المبالغة، وتدل على الجهد الذي بذلوه في الاستدلال على صدق إيمانهم، ليقنعوا الرسول ﷺ الذي أبلغهم أنَّ الله نفى عنهم رسوخ الإيمان، وهذا يشتمل على رغبةٍ قويةٍ بإعلام الله بما يعلم خلافه.(٢) وهو مَظهر من مظاهر جهلهم بالله، إذ لو علموا أنَّ الله يعلم دقائق الأمور في السماء والأرض لما اجتهدوا في إعلامه بما يطلع على حقيقته.

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

عدَّ الأعرابُ إسلامَهم من غير إكراهٍ بغزوٍ نعمةً قد أنعموا بها على الرسول ﷺ، حيث قالوا له: لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، لذا أمر الله نبيه ﷺ أن يأمرهم بالكفِّ عن المنِّ بإسلامهم الذي زعموه إيماناً، لأنَّه لو كان إيماناً صادقاً كما يزعمون فالمِنَّة لله وحده الذي هداهم إليه، لكنهم لم يُسلموا حبَّاً لرسالة الإسلام، ولم يكونوا صادقين في دعوى الإيمان، وقد علم الله ما تخفيه قلوبهم، لأنَّه سبحانه عليم بما يغيب في السماء والأرض، مطَّلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، ومنها أعمال القلوب.

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي، ج٥/٢٢١، والتحرير والتنوير، ج٢٦/٢٢٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/٢٢٥.

ومقصود الآية إبطال ما أظهره الأعراب من دخول الإسلام حباً وطواعية.

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ: المَنَّة في اللغة: النعمة الثقيلة التي لا يُطلَب لها عوض.(١) وهذا المعنى غير مراد، لأنَّ مقالة الأعراب كانت مشتملة على طلب الصدقات تصريحاً وتعريضاً. والمراد هنا ذكر النعمة والإحسان، ليحصل الذاكر على عوضٍ من المحسَن إليه.(٢)

وقد سمى الله ما زعموه إيماناً فيما سبق عندما قالوا: (آمنَّا) سمَّاه هنا إسلاماً، فقال: (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ) ليوافق قوله: (ولكن قولوا أسلمنا) [سورة الحجرات: ١٤]، وليبيَّن أنَّ الذي مَنُّوا به إسلامٌ، وليس إيماناً.

قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ: فإن كان ما مَنُّوا به إسلاماً حقاً موافقاً للإيمان فالفضل والمنّة لله الذي هداهم إليه.

وليس في هذه الآية ما يناقض قوله تعالى: (قل لم تؤمنوا)؛ لأنَّ الله لم يقل: بل الله يمن عليكم أن رزقكم الإيمانَ، بلْ قال: (أنْ هَدَاكُمْ للإِيمان)، فإنَّ إرسال الرسول بالآيات البينات هدايةٌ، والهداية لا تستلزم الاهتداء،(٣) ولأنَّ المقصود بالإيمان هنا إسلامهم الذي زعموه إيماناً، وسمَّاه هنا إيماناً مجاراة لزعمهم؛ لأنَّ المقام مقام كون المنّة لله، ويناسبه مجاراة زعمهم أنَّهم آمنوا، أي: لو كنتم آمنتم كما تزعمون، فإنَّ إيمانكم نعمة أنعم الله بها عليكم. ولذلك ذيله بقوله: (**إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)؛ لينفيَ أن يكون ما يمنّون به هو الإيمان حقاً.

وقد أضيف الإسلام إلى ضميرهم، فقال: (لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ)؛ لأنَّ ما لديهم يسمى إسلاماً، وليوافق قوله: (ولكن قولوا أسْلَمْنا).

وأُتي بالإيمان معرّفاً بلام الجنس (أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ)؛ لأنَّ الإيمان حقيقة

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، دار القلم، ج٢/ ٣٨٨، وتفسير البيضاوي، ج٢٢١/٥، وتفسير أبي السعود، ج١٢٤/٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٢٦/٢٦.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ج١٢٤/٢٨، وتفسير أبي السعود، ج١٢٤/٨.

في حدّ ذاته.

وآثر التعبير بصيغة الفعل المضارع في (يمنون) مع أنَّ منَّهم بذلك حصل فيما مضى؛ لاستحضار حال منّهم بما لم يفعلوا.(١)

إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

ذيَّل الله الآداب العظيمة التي وردت في هذه الآية وما قبلها، بهذا التذييل، ليعلِّم الناس أن ليس بمقدور البشر كتمان شيء عن الله، أو الكذب على نبيّه ﷺ؛ لأنَّ الله سبحانه يعلم كُلَّ غائبة في السماء والأرض.

وأكَّد الخبر بـ(إنَّ)؛ لأنَّهم بحال من ينكر أنَّ الله يعلم الغيب، إذ كذبوا على النبي ﷺ مع علمهم أنَّه مرسل من الله، فكان كذبهم عليه كالكذب على الله.

وهذه الجملة تأكيد لمضمون جملتي (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وتصريح بأنَّ الله يعلم الأمور الغائبة؛ لئلا يتوهم أحدٌ أنَّ العموم في الجملتين قبلها عموم عرفيٌّ قياساً على عِلم البشر.

وجملة (وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) معطوف على جملة (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) عطف الخاص على العام؛ لأنَّه لما ذكر أنَّه يعلم الغيب، وكان شأن الغائب ألا يُرى، عطف عليه علمه بالمبصرات؛ لئلا يتوهّموا أنَّ الله يعلم الغيب، ولا يعلم المشاهدات، ولهذا أوثر هنا وصف (بَصِيرٌ).(٢)

الأساليب البلاغية:

١ _ **طباق السلب:** بين (آمَنَّا)، (قُلْ: لَمْ تُؤْمِنُوا).

٢ _ **استعارة تصريحية:** في قوله تعالى: (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم)، استعار الدخول، للتمكن وعدم التزلزل، لأنَّ الداخل إلى المكان يتمكن ويَسْتقر، والخارج عنه يكون سريع المفارقة له، مستعدَّاً للانصراف عنه.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/٢٢٦ -٢٢٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦/٢٢٨.

٣ ـ **القصر**: في قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا) وقوله: (أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) والقصر إضافي، والغرض منه إلاّ إثبات الوصف لغير المقصور، لإخراج المقصور عن ثبوت الوصف له.

المعنى الإجمالي للآيات:

قال بعض الأعراب لما قدموا على النبي ﷺ: آمنّا بالله وبرسوله إيمانًا كاملاً، قل لهم أيها النبيُّ: لا تدَّعوا لأنفسكم الإيمان الكامل، ولكن قولوا: أسلمنا استسلاماً، ولم يدخل الإيمان في قلوبكم بعدُ، ويُتوقع له أن يدخل.

وإن تطيعوا الله ورسوله في ابتغاء الإيمان وتأكيده بالعمل الصالح، لا ينقصكم الله شيئاً من ثواب أعمالكم، فالله غفور لمن تاب، رحيم بعباده لا يعذِب من تاب منهم.

إنمَّا المؤمنون الصادقون الذين آمنوا بالله وبرسوله إيماناً ثابتاً لا يتزعزع ولا يضطرب، ولا يخالطه شكٌّ، ولا ارتياب. وهم الذين يترجمون إيمانهم جهاداً بالمال والنفس في سبيل الله، وأفعالاً تدلُّ على تحقيق حقيقته في واقع الحياة؛ لتحقيق المطابقة بين الصورة الإيمانية الوضيئة التي في القلب، والصورة الواقعية في الحياة.

أولئك المتصفون بتلك الصفات هم الصادقون في عقيدتهم وإيمانهم، ومن غيرها يكون الإيمان مجرَّد ادِّعاء لا أثر له خارج اللسان.

قل - أيها النبي - لهؤلاء الأعراب: أتُخَبِّرون الله بدينكم وبما في ضمائركم، والله يعلم ما في السموات وما في الأرض علماً حقيقياً شاملاً لحقائقها وماهياتها، علماً محيطاً بظواهرها وخفاياها وآثارها.

والله لا يخفى عليه ما في قلوبكم من الإيمان أو الكفر، والبر أو الفجور، ولا يحتاج إلى إعلامكم إياه بدينكم.

يَمُنُّ هؤلاء الأعراب عليك - أيها النبي – بإسلامهم. قل لهم: لا تَمُنُّوا عليَّ دخولكم في الإسلام؛ فإنَّ نفع ذلك يعود عليكم، ولله المنة عليكم أنْ وفقكم

للإيمان به وبرسوله ﷺ، إن كنتم صادقين في إيمانكم.

إن الله يعلم ما يغيب في السماوات، ويعلم ما يغيب عن حواسكم في الأرض، لا يخفى عليه شيء منه، والله بصير بما تعملون، لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، وسيجازيكم عليها.

الفوائد والأحكام:

أولاً: دلَّت الآيات على أن الإيمان أخص من الإسلام، وأعلى رتبةً منه.

والتحقيق أنَّ مسمى الإسلام والإيمان يتواردان عند إفراد أحدهما بالذِّكرِ، ويراد بكل واحدٍ منهما أمور الدين كله من الاعتقاد والأقوال والأعمال التكليفيَّة، أمَّا إذا اقترن ذكر الإسلام والإيمان في نص الكتاب والسنَّة فيكون بينَهما فَرقٌ، كما في قوله تعالى: (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)، إذ يختصُّ الإيمان بالعقائد القلبيَّة، ويختصُّ الإسلام بالأقوال والأعمال التكليفيَّة.

ويشهد لذلك حديث جبريل عليه السلام حين سأل النبيَّ ﷺ عن الإسلام، ثم عن الإيمان.(١)

ثانياً: لا يجوز للإنسان أن يدَّعي منزلة لم يبلغها، وإن كان يجتهد في تحصيلها، سواء في أمور الدين كالإيمان والتقوى، أو أمور الدنيا كالشهادات العلميَّة، لذا لا ينبغي لطالب علمٍ أن يدَّعي أنَّه عالم، وإن كان في طريق الطلب.

ثالثاً: نفع الإيمان يعود للمؤمن نفسه، فلا ينبغي لأحد أن يمتن بإسلامه على أحد، بل يجب عليه أن يقرَّ بفضل اللّه الذي هداه وأرشده للإيمان، وأن ينسب الهداية إليه سبحانه، ويشكره على هذه النعمة.

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، لأبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ)، دار المعرفة، بيروت، ط١/ ١٤٠٨هـ، ص ٢٩، وانظر: حول تفسير سورة الحجرات، ص ٣٤٤.

تفسير سورة الحشر

تعريفٌ عامٌّ بسورة الحشر:

سورة الحشر مدنيَّة بالاتفاق، نزلت عقب إخراج بني النضير من بلادهم سنة أربع من الهجرة. عدد آياتها أربع وعشرون آية.

واشتهرت تسمية هذه السورة سورة الحشر، لورود لفظ (الحشر) فيها. في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ). وهذه التسمية وردت عن النبيِّ ﷺ في الحديث الذي أخرجه الترمذي عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ (أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)، وَقَرَأَ الثَّلَاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ، وَكَّلَ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُمْسِيَ، وإِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَاتَ شَهِيدًا، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي كَانَ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ"(١)

وتسمى هذه السورة أيضاً سورة بني النضير، لاشتمالها على قصة إجلاء يهود بني النضير عن المدينة المنورة.

وهذه التسمية وردت عن ابن عباس رضي الله عنهما، كما أخرج البخاري في صحيحه عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رضي الله عنه قَالَ: "قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ سُورَةُ الْحَشْرِ قَالَ: قُلْ سُورَةُ النَّضِيرِ"(٢) أي سورة بني النضير. ولعل ابن عباس رضي الله عنهما قال ذلك؛ لأنه لم يبلغه تسمية النبي ﷺ إياها سورة الحشر، أو ربما أراد أن لها اسمين، والأمر في قوله: (قل) للتخيير.(٣)

---

(١) سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب سورة الحشر، رقم (٢٩٢٢)، ج١٨٢/٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير، رقم (٣٨٠٥)، ج٤/ ١٤٧٨.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ٥٦ –٥٧.

أهداف سورة الحشر ومقاصدها:

أولاً: بيان حكم أموال بني النضير بعد الانتصار عليهم، وتعيين مستحقيها.

ثانياً: الكشف عن تأييد الله لرسوله ﷺ ونصره على أعدائه، وإن عظمت قوتهم، ولم يكن في الحسبان إمكان هزيمتهم.

ثالثاً: تعظيم شأن المهاجرين والأنصار، ومن يأتي بعدهم من المؤمنين.

رابعاً: كشف دخائل المنافقين، وفضح ما هم عليه من الكذب والخوف، وتفرّق الكلمة، والتحذير من وعودهم الكاذبة التي تشبه وعود الشيطان الذي يغري الإنسان بالسوء والضلال، ثم يتخلى عنه يوم القيامة.

خامساً: الأمر بالتقوى، والتحذير من أحوال أصحاب النار.

سادساً: بيان عظمة القرآن الكريم، وما يقتضيه من الخشوع عند تدَّبُّر معانيه.

سابعاً: بيان بعض الصفات الإلهية، وما تقتضيه من التسبيح، والتعظيم.(١)

مناسبة سورة الحشر لما قبلها:

ذكر الله في سورة المجادلة عقوبة الذين يعادون الله ورسوله في مواضع متعددة، فقال: (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ) [سورة المجادلة/٥]، وقال: (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) [سورة المجادلة: ٢٢]، ثمَّ أكد هذا المعنى في سورة الحشر تعريضاً عن طريق بيان ما حلَّ بيهود بني النَّضير من الذلّ، وتصريحاً بقوله: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [سورة الحشر: ٤]

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ٥٧.

وفي سورة المجادلة نسب الله الغلبة والعزَّة والنصر لنفسه، فقال: (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) [سورة المجادلة: ٢١]، وأكَّد ذلك في سورة الحشر، فقال: (فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) [سورة الحشر: ٢] وفي سورة المجادلة ذكر الله مصير حزب الشيطان وأتباعه الذين استسلموا لوساوسه فقال: (اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) [سورة المجادلة: ١٩]. وأكَّد في سورة الحشر أنَّ وعود الشيطان كاذبة، فهو يغري أتباعه بالضلال، ثم يتنصَّل من وعوده يوم القيامة، ويتركهم في مواجهة الأهوال التي أغراهم بالسلامة منها. يقول الله تعالى: (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِين) [سورة الحشر: ١٦ –١٧]

UNIVERSITY OF ALEPPO

إجلاء يهود بني النضير

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ (٢) وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ (٣) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (٤) ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ (٥)

[سورة الحشر: ١ – ٥]

مناسبة الآيات لما قبلها:

في ختام سورة المجادلة وعد الله رسله ومن معهم من المؤمنين بالنصر، وتوعَّد الكافرين المعاندين بالهزيمة والإذلال، فقال: (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ، كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) [سورة المجادلة: ٢٠ – ٢١] ثمَّ افتتح بذكر بعض الأمثلة العمليَّة التي تبيّن تحقُّق وعد الله بنصر أنبيائه، وهزيمة أعدائهم، فساقت السورة قصَّة يهود بني النضير، وما أعدَّه الله لهم من الذلّ والهوان، ومفارقة الديار.

وفي ختام سورة المجادلة ذكر الله من صفاته القوَّة والعزة، فقال: (إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)، وأكَّد ذلك في مطلع سورة الحشر فقال: (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

أسباب النزول:

أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سُئِلَ عن سورة الحشر

فقال: (نزلت في بني النضير)[1]

وأخرج أيضاً عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول اللﷺ حرَّق نخل بني النضير وقطع وهي البويرة، فأنزل الله تعالى: (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ)[2]

وأخرج الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كانت غزوة بني النضير - وهم طائفة من اليهود - على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أنَّ لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة - يعني السلاح - فأنزل الله فيهم: (سبح لله ما في السموات وما في الأرض) إلى قوله: (لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا)، فقاتلهم النبي ﷺ، حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا، وكان الله قد كتب عليهم ذلك، و لولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي، وأما قوله: (لأول الحشر)، فكان جلاؤهم ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام)[3]

وأخرج عبد الرزاق بسنده عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: أنَّ كفار قريش كتبوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول ومن كان يعبد الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر يقولون: "إنكم آَوَيتم صاحبنا وإنكم أكثر أهل المدينة عدداً، وإنا نقسم بالله لتقتلنه أو لتخرجنه أو لنستعن عليكم العرب ثم لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم، فلما بلغ ذلك ابن أبي ومن معه من عبدة الأوثان تراسلوا، فاجتمعوا وأرسلوا وأجمعوا لقتال النبي ﷺ وأصحابه، فلما بلغ

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة الحشر، رقم (٤٦٠٠)، ج٤/ ١٨٥٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة الحشر، رقم (٤٦٠٢)، ج٤/ ١٨٥٢.

(٣) المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحشر، رقم (٣٧٩٧)، ج٢/ ٥٢٥. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

ذلك النبي ﷺ فلقيهم في جماعة فقال: "لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت لتكيد بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم"، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش وكانت وقعة بدر، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: "أنكم أهل الحلقة والحصون وأنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء، وهو الخلاخل، فلما بلغ كتابهم اليهود أجمعت بنو النضير على الغدر، فأرسلت إلى النبي ﷺ: "اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، ولنخرج في ثلاثين حبراً حتى نلتقي في مكان كذا نصف بيننا وبينكم، فيسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبراً من يهود، حتى إذا برزوا في براز من الأرض، قال بعض اليهود لبعض: "كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه كلهم يحب أن يموت قبله"، فأرسلوا إليه كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلاً، اخرج في ثلاثة من أصحابك، ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فليسمعوا منك فإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدَّقناك، فخرج النبي ﷺ في ثلاثة نفر من أصحابه، واشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى ابن أخيها، وهو رجل مسلم من الأنصار فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ، فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبي ﷺ، فسارَّه بخبرهم قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم، فرجع النبي ﷺ، فلما كان من الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحاصرهم، وقال لهم: "إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب وترك بني النضير، ودعاهم إلى ان يعاهدوه فعاهدوه فانصرف عنهم وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم ،حتى نزلوا على الجلاء وعلى أنَّ لهم ما أقلَّت الإبل إلا الحلقة، _ والحلقة السلاح _ فجاءت بنو النضير واحتملوا ما أقلَّت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها، فيحملون ما وافقهم من خشبها، وكان جلاؤهم

ذلك أول حشر الناس إلى الشام، وكان بنو النضير من سبط من أسباط بني اسرائيل لم يصبهم جلاء منذ كتب الله على بني إسرائيل الجلاء، فلذلك أجلاهم رسول الله ﷺ، فلولا ما كتب الله عليهم من الجلاء لعذبهم في الدنيا كما عذبت بنو قريظة، فأنزل الله: (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) حتى بلغ (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وكانت نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة فأعطاه الله إياها وخصه بها، فقال: (وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ) يقول: بغير قتال قال: فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين، وقسمها بينهم ولرجلين من الأنصار كانا ذوي حاجة لم يقسم لرجل من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ في يد بني فاطمة)[1]

وقال الواحدي: (نزلت هذه الآية في بني النضير، وذلك أنَّ النبي ﷺ لما قدم المدينة صالحه بنو النضير على أن لا يُقاتلوه ولا يُقاتلوا معه، وقبل رسول الله ﷺ منهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً وظهر على المشركين قالت بنو النضير: "والله إنَّه النَّبيُّ الذي وجدنا نعته في التوراة لا تُردُّ له راية"، فلما غزا أحداً وهُزم المسلمون نقضوا العهد، وأظهروا العداوة لرسول الله ﷺ والمؤمنين، فحاصرهم رسول الله ﷺ ثم صالحهم عن الجلاء من المدينة.)[2]

وأخرج ابن إسحاق عن يزيد بن رومان قال: "لما نزل رسول اللّه ﷺ ببني النضير، تحصَّنوا منه في الحصون، فأمر بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟ فنزلت: (ما قطعتم من لينة أو تركتموها).[3]

وذكر أصحاب المغازي والسَير في السبب المباشر لنقض عهد بني النَّضير

---

(١) مصنف عبد الرزَّاق، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢/ ١٤٠٣هـ، كتاب المغازي، باب وقعة بني النَّضير، رقم (٩٧٣٣)، ج٥/ ٣٦١.

(٢) أسباب النزول، للواحدي، ص ٢٧٨.

(٣) لباب النقول، ص ٢٠٩.

وحصارهم: أن رسول الله ﷺ ذهب مع جماعة من كبار أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم إلى بني النضير، يطلب منهم المشاركة في أداء دية قتيلين بحكم ما كان بينه وبينهم أول قدومه إلى المدينة، فاستقبله يهود بني النضير بالبشر والترحيب ووعدوا بأداء ما عليهم، بينما كانوا يدَبِّرون أمراً لاغتيال رسول الله ﷺ ومن معه، وكان ﷺ جالساً إلى جدار من بيوتهم، فقال بعضهم لبعض: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فمن رجل منكم يعلو هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جَحاش بن كعب، فقال: أنا لذلك، فصعد وهَيّأَ الصّخْرَةَ لِيُرْسِلَهَا عَلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَيَحْدُرَهَا، فَلَمّا أَشْرَفَ بِهَا جَاءَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ الْخَبَرُ مِنْ السّمَاءِ بِمَا هَمّوا بِهِ فَنَهَضَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ كَأَنّهُ يُرِيدُ حَاجَةً وَتَوَجّهَ إلَى الْمَدِينَةِ، وَجَلَسَ أَصْحَابُهُ يَتَحَدّثُونَ وَهُمْ يَظُنّونَ أَنّهُ قَامَ يَقْضِي حَاجَةً فَلَمّا يَئِسُوا مِنْ ذَلِكَ خرجوا من محلة بني النَّضير يسألون عنه، فعلموا أنه دخل المدينة، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحرب بني النضير لظهور الخيانة منهم، ثم حاصر بني النضير، وأمهلهم مدَّة للخروج من المدينة على أن يأخذوا أموالهم، لكنَّ المنافقين أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض والمقاومة، فتحصن اليهود في الحصون، فأمر رسولُ الله ﷺ بقطع النخل والتَّحريق فيها.[1] وكان قد سبق هذا اتصالُ بني النَّضير بكفار قريش ليتحالفوا معهم على حرب النبي ﷺ، متجاهلين عهدهم مع النبيّ ﷺ.

معاني المفردات:

سَبَّحَ لِلَّهِ: نزه الله تعالى وقدسه ومجده.

الْعَزِيزُ: القوي القاهر الغالب في ملكه.

---

(١) انظر: السيرة النبويَّة، لابن هشام عبد الملك بن هشام الحميري المعافري (٢١٣هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ط١/ ١٤١١هـ، ج١٠١/٣، وتاريخ الأمم والرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٠٧هـ، ج٢/ ٨٤، والسيرة النبويَّة، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير (٧٤٧هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دارالمعرفة، بيروت، ط١/ ١٣٩٦هـ - ١٩٧١م، ج٣/ ١٤٦.

الْحَكِيمُ: الذي يدبّر الأمور بحكمةٍ، ويضع الأشياء في موضعها المناسب لها.

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: يهود بني النّضير.

مِنْ دِيارِهِمْ: مساكنهم في المدينة.

لِأَوَّلِ الْحَشْرِ: الحشر: الجمع، ومنه: (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ) [سورة النمل/١٧] والمراد بالحشر هنا: جمع يهود بني النضير وإخراجهم من جزيرة العرب إلى أرض غيرها، واللام للتوقيت، والمعنى: عند أول جمع لليهود وإخراجٍ لهم من المدينة.

وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ: مِنَ اللَّهِ: حسبوا أن حصونهم تمنعهم من بأس اللّه وعذابه، والحصون: القصور الشاهقة والقلاع المشيدة، جمع حصن.

فَأَتاهُمُ اللَّهُ: أي جاءهم عذابه وأمره.

لَمْ يَحْتَسِبُوا: الاحتساب، والحسبان: الظنُّ، أي لم يظنُّوا، ولم يخطر لهم ببال.

قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ: ألقى في قلوبهم الفزع والخوف الشديد.

يُخْرِبُونَ: يهدمون.

فَاعْتَبِرُوا: اتعظوا، وانظروا في حقائق الأشياء ودلالاتها وما يستفاد منها.

كَتَبَ: قضى، وقدر لهم تقديراً قويّاً يشبه الكتابة في تحقيق مضمونه.

الْجَلاءَ: الخروج الجماعي من الوطن مع الأهل والولد.

شَاقُّوا: خالفوا وعادوا أَشَدَّ العداء، حتى كأنهم في شقٍّ ومن عادوه في شق آخر.

لِينَةٍ: اختلف المفسرون معنى اللينة، وجمهور المفسرين: أنَّ اللينة نوع من التمر يسميه أهل المدينة الألوان وهو ما عدا العجوة والبرنيَّة من النخل، وهما أجود أنواع النخيل.

وقيل: النخل كله لينة، وقيل: هي النخلة الكريمة. وقيل: هي أغصان الأشجار للينها، وقيل: هي النخلة القصيرة.

عَلَى أُصُولِهَا: على سوقها.

وَلِيُخْزِيَ الفَاسِقِينَ: لِيُذِلَّ الكافرين من بني النَّضير.

القراءات والإعراب:

مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: الجار متعلق بحال من الواو في (كفروا)

لأَوَّلِ الْحَشْرِ: الجار متعلق بـ (أخرج)، وهي لام التوقيت أي: عند أول الحشر.

مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا: مستأنفة، وأن وما بعدها سدَّت مسدَّ مفعولي ظنَّ.

وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ: جملة معطوفة على جملة (ما ظننتم)، و(حصونهم) فاعل (مانعتهم)، (من الله) متعلق بـ (مانعتهم)،

حَيْثُ: ظرف في محل جر متعلق بـ (أتاهم)

يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ: جملة مستأنفة.

وقد قرأ أبو عمرو (يُخَرِّبُونَ) بالتشديد، وقرأ الباقون (يُخْرِبُونَ) بالتخفيف.(١)

وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ: جملة الشرط مستأنفة، و(أَنْ) مصدريَّة، وهي وما بعدها في تأويل مصدر مبتدأ خبره محذوف تقديره: موجود، أو كائنٌ.

وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ: جملة مستأنفة، غير معطوفة على جملة الجواب.

والجار متعلق بحال من (عذاب)

مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ: (ما) اسم شرط مفعول به مقدَّم.

قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا: حال من الهاء، والجار متعلق بـ (قائمة)

فَبِإِذْنِ اللَّهِ: الفاء رابطة، وهي جزاء الشرط، فلا بد من حذف، والتقدير: فقطعها بإذن الله، فيكون الجار (بإذن الله) متعلق بخبر محذوف لمبتدأ محذوف.

الأساليب اللغوية:

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

افتتح الله السورة بالإخبار عن تمجيد المخلوقات له؛ إذعانا لعظمته.

---

(١) النشر في القراءات العشر، ج٢/ ٤٢٦.

وفائدة هذا الافتتاح تحفيز المؤمنين على تسبيح الله؛ شكراً له على ما أنعم به عليهم من فتح بلاد بني النضير، والتعريض بالذين نزلت السورة فيهم، بأنهم أصابهم ما أصابهم؛ لتكبرهم عن تسبيح الله، بالإعراض عن النظر في دلائل رسالة النبي ﷺ.

وآثر الإخبار عن تسبيح الله بفعل الماضي (سَبَّحَ لِلَّهِ)؛ لأن التسبيح المُخبَر عنه هو تسبيح شكرٍ عن نعمة مضت قبل نزول السورة، وهي نعمة إخراج يهود بني النضير من المدينة.

وكرَّر الاسم الموصول في قوله: (وَمَا فِي الْأَرْضِ)؛ لتقرير المعنى، والتنبيه على استقلال كل من الفريقين بالتسبيح، وليخص أهل الأرض بالذكر؛ تذكيراً لهم بنعمةٍ يرى المؤمنون أثرها في الأرض، وهي نعمة خذلان بني النضير.(١)

والمعنى: سبحوا لله شكراً كما مجَّده أهل السماء وأهل الأرض، ولا تكونوا من المعرضين عن تقديسه وتمجيده؛ لئلا يحلَّ عليكم عذاب الله الذي أعدَّه للمتمردين عن طاعته؛ فإنَّ الله عزيز في انتقامه ممن يعصيه، غالب لا يقهره إعراضكم، حكيم في تدبيره وحكمه، يضع الأشياء في موضعها اللائق بها.

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ

جملة (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا) في موضع التعليل لما تضمنه الخبر عن تسبيح ما في السماوات وما في الأرض؛ لتذكير المؤمنين بما أنعم به عليهم من النصر على يهود بني النَّضير، وما يقتضيه هذا النصر من التسبيح والشكر.

وتعريف طرفي الجملة بالضمير والموصول؛ لإفادة القصر، أي: إنَّ الله هو الذي أخرج الذين كفروا من ديارهم، ولا يعتدُّ بسعي المؤمنين في إخراجهم

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨ / ٥٨.

بمعالجة بعض الأسباب كتخريب ديار بني النضير، ولذلك جاءت جملة (مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا) بمنزلة التعليل لجملة القصر.

وجملة (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ) عطف على العلة، أي: وظنَّ اليهود أيضاً أنَّ المسلمين لا يغلبونهم.

وقد عدل النظم عن تعليق ظنِّ اليهود بالخروج من الديار، إلى تعليقه بمناعة الحصون، فقال تعالى: (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ)، ولم يقل: (وظنُّوا أن لا يخرجوا)، مع أنَّ الكلام على خروجهم؛ استغناء عن ذكر المظنون بذكر علة الظن. والتقدير: وظنُّوا أن لا يخرجوا، لأنَّهم تمنعهم حصونهم.(١)

والمراد بـ (الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) بنو النَّضير، وهم قبيلة من اليهود من ذرية هارون عليه السلام استوطنوا بلاد العرب، وأقاموا لأنفسهم قرى حول يثرب المدينة، وبنوا لأنفسهم حصوناً وقرية، وصاروا أهل زرع وأموال. وكان بينهم وبين الأوس والخزرج حلف ومعاملة. وسموا بـ (الَّذِينَ كَفَرُوا)؛ لأنهم كفروا بمحمد ﷺ، وهو ما أخبر به الله بقوله: (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) [سورة البقرة:٨٩]

ولذلك فإنَّ (من) في قوله: (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) بيانية؛ لأن المراد هنا خصوص اليهود أي الذين كفروا برسالة محمد ﷺ، وهم أهل كتاب، ولذلك قال: (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)؛ لئلا يُظنَّ أنَّ المراد بـ (الَّذِينَ كَفَرُوا) المشركون بمكة أو بقية المشركين بالمدينة فيُظنَّ أنَّ الكلام وعيد.(٢)

لِأَوَّلِ الْحَشْرِ: اللام لام التوقيت التي تدخل على أول الزمان الذي يكون ظرفاً لعمل، كقوله تعالى: (لِدُلُوكِ الشَّمْسِ) [سورة الإسراء: ٧٨] أي: عند مبدئ

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ٥٩.
(٢) انظر: المرجع السابق، ج ٢٨ / ٦٠.

الحشر المقدر لهم.

والحشر: الجمع للتوجيه إلى ناحية مّا. والتعريف للعهد. والمراد به هنا: جمع يهود بني النضير وإخراجهم من جزيرة العرب إلى أرض غيرها.

وقيل: هو حشر رسول الله ﷺ الكتائب لقتالهم، وهو أول حشر منه لهم، وأول قتال قاتلهم إياه.(١)

وليس المراد به: حشر يوم القيامة؛ إذ لا مناسبة له هنا ولا يلائم ذكر لفظ (أول)؛ لأن أول كل شيء يكون متحد النوع مع ما أضيف هو إليه.

وكلمة (أول) تقتضي أن يكون له ثانٍ، وهذا إيماء إلى أنَّ الله قدر أن يخرجوا من جميع ديارهم في بلاد العرب، وجعل خروجهم في عهد النبوَّة وقتاً لأول الحشر؛ إيذاناً بأن حشرهم يتعاقب حتى يكمل إخراج جميع اليهود.

وذلك ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أجلى اليهود من جميع بلاد العرب، فكان ذلك هو الحشر الثاني.(٢)

مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ: الخطاب للمسلمين؛ إذ كان اليهود يتخذون حصوناً يأوون إليها عندما يغزوهم العدو، وكان ظنُّ المسلمين أنَّ اليهود لا يمكن إخراجهم من ديارهم؛ لعظم قوتهم ومتانة حصونهم، وكثرة عَدَدِهم وعُدَدِهم، ولم تكن آمالهم تنتهي الى أنهم يخرجون ويدعون أموالهم لهم.

وإنما ذكر الله تعالى ذلك تعظيماً لهذه النعمة؛ فإن النعمة إذا وردت على المرء والظنُّ بخلافه تكون أعظم، فالمسلمون ما ظنُّوا أنَّهم يصلون إلى مرادهم في خروج اليهود والتخلُّص من ضرر مكايدهم، فلما تيسر لهم ذلك كان توقع هذه النعمة أعظم.(٣)

---

(١) انظر: البحر المحيط، ج٨/٢٤٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨ / ٦١ -٦٢.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٤٣.

وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ: وظنَّ أهل الكتاب أنه يتعذَر إخراجهم من قريتهم، وأنه لا ينال منهم أحدٌ؛ لحصانة حصونهم.

مِنَ اللَّهِ: أي: من أمر اللَّهِ، أو من حرب الله وبأسه، أو من جنده، وحزبه. وفي تركيب الآية على طريقة حذف المضاف تشريفٌ عظيم لرسول الله ﷺ؛ فإنها تدلّ على أنَّ معاملتهم مع رسول الله ﷺ هي عين المعاملة مع الله.(١)

وقد نُظِمَت جملة (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ) على هذا النظم، من غير أن يقال: (وظنُّوا أنَّ حصونهم مانعتهم)، فقُدِّم (مانعتهم) وهو وصف على (حصونهم) وهو اسم، والاسم أولى بالتقديم من الوصف؛ لأن القصد الإخبار عن الحُصُون، والإشارة إلى فرط وُثُوقهم بمنعها إياهم، ولذلك كانت بمحل التقديم في استحضار ظنّهم. ولأنَّ في تقديم الوصف فائدة: هي أن يكون الابتداء بضميرهم؛ للإشارة إلى اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة، بحيث لا يُكترَث بأحد يتعرض إليهم، وليس ذلك في قولك: حصونهم تمنعهم.(٢)

وقد سلَّط النظم ظنَّ المؤمنين على أن الناصبة للفعل؛ لأنَّه لما كان منفياً أجري مجرى نفي الرجاء والطمع، فتسلَّط على (أن) الناصبة كما يتسلَّطُ الرجاء والطمع. ولما كان ظنُّ اليهود قوياً جداً يكاد أن يلحق بالعلم تسلَّط على (أنَّ) المشددة التي يصحبها غالباً فعل التحقيق؛ لإجراء ظنّهم مجرى اليقين؛ لشدَّته وقوَّته، فكأنَّه بمنزلة العلم.(٣)

فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ

الضمير في قوله: (فَأَتَاهُمُ اللَّهُ، يَحْتَسِبُوا) يحتمل:

أ _ أن يعود إلى يهود بني النَّضير، وتقدير المعنى: جاءهم عذاب الله من موضع لم

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٤٣.

(٢) انظر: الكشاف، ج٤/ ٤٩٩.

(٣) انظر: البحر المحيط، ج٨/ ٢٤٢.

يخطر ببالهم، ولم يظنُّوا أنَّه يكون سبب هزيمتهم، إذ قصروا استعدادهم على التحصُّن والمنعة، ولم يخطر ببالهم أنَّ للهزيمة أسباباً أخرى سوى نقص العتاد، وقلَّة الحصون.

ب _ ويحتمل أن يعود إلى المؤمنين، وتقدير المعنى: أتاهم نصر الله، بعد أن غلب على ظنِّهم أنَّهم لا ينتصرون على اليهود؛ لقوة بأسهم.(١)

والأول أرجح؛ لعطف جملة (وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) على ما سبقها؛ فالظاهر أنَّ ضمير (في قلوبهم) يعود إلى ما عاد إليه ضميرا (فَأَتَاهُمُ، يَحْتَسِبُوا).

وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ: جعل الله الخوف في قلوبهم فأسرعوا بالاستسلام. والقذف: الرمي باليد بقوَّة. واستعير للحصول على أمرٍ عاجل من غير سبق سبب، والرعب: شدة الخوف والفزع. أي: حصل الفزع في قلوبهم فجأة من غير سابق إنذار، ولا حصول سببٍ للخوف، وهذا معنى قول النبي ﷺ: (نصرت بالرُّعب)(٢) أي: برُعب أعداء الدين.

وتخصيص الرُّعب بالذكر؛ للتعجيب من صنع الله. وعطفه على (أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) عطف خاص على عام؛ للاهتمام.(٣)

وقيل: حصل الرعب بسبب مقتل رئيسهم كعب بن الأشرف على يد أخيه غيلة؛ مما أضعف قوتهم وفتت عضدهم، ونزع من قلوبهم الأمن والطمأنينة، وهذا كله لم يكن في حسبانهم، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ.(٤)

يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ

ذكر المفسرون في (تخريب بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين) أربعة وجوه:

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي، ج ٥/ ٣١٧، وتفسير أبي السعود، ج٨/٢٢٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التيمم، رقم (٣٢٨)، ج١/ ١٢٨.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج ٢٨ / ٦٣.

(٤) انظر: البحر المحيط، ج٨/ ٢٤٢، وتفسير أبي السعود، ج٢/ ٢٢٦.

الأول: أنَّهم لما أيقنوا بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا مساكنهم ومنازلهم فجعلوا يخربونها من الداخل؛ ضنَّاً بها على المسلمين أن يسكنوها، وأخذ المسلمون بهدمها من الخارج نكايةً بهم.

الثاني: أنَّ المنافقين أغروا اليهود بعدم الخروج وتحصين الأزقة، فكان المؤمنون يخربون حصونهم من الخارج ليدخلوا، وكان اليهود يهدمون بيوتهم من الداخل؛ ليبنوا بأخشابها ما خرب من حصونهم.

الثالث: أنَّ المسلمين كانوا كلما ظهروا على دار من دورهم هدموها؛ ليتسع موضع القتال، وكان اليهود يتأخرون إلى ما وراء بيوتهم وينقبونها من أدبارها للانتقال إلى التي بعدها ليتحصنوا فيها.

الرابع: أنَّ المسلمين كانوا يخربون ظواهر البلد، واليهود لما أيقنوا بالجلاء كانوا ينزعون من بيوتهم الأخشاب والأبواب، ويحملونها على الإبل.[1]

وجمهور القرَّاء يقرؤون الآية بتخفيف (يُخْرِبُونَ) من الإخراب، وقراءة أبي عمرو البصري (يُخَرِّبُونَ) بالتشديد من التخريب. وهما بمعنى واحد عند جمهور اللغويين والمفسرين، لأنَّ المقصود تعدية الفعل، وقد حصل بالتضعيف في قراءة أبي عمرو، وبالهمزة في قراءة الجمهور.

وخالف أبو عمرو البصري جمهور اللغويين ففرَّق بين معاني القراءتين، فقال: "خرّب بالتشديد: هدم وأفسد، وأخرب بالهمزة: ترك الموضع خراباً وذهب عنه، وإنَّما اخترت التشديد؛ لأنَّ الإخراب ترك الشي خراباً بغير ساكن، وبنو النضير لم يتركوها خراباً وإنَّما خربوها بالهدم، يؤيده قوله تعالى: (بأيديهم وأيدي المؤمنين)"[2] وإلى هذه التفرقة في المعنى ذهب الفرَّاء أيضاً.

وبناء على هذا القول فإنَّ معنى الآية يختلف باختلاف القراءتين،

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٤٤، وتفسير القرطبي، ج١٨/ ٤ –٥.

(٢) انظر: تفسير القرطبي، ج١٨/ ٤.

فالإخراب: التعطيل أو ترك الشيء خراباً، والتخريب النقض والهدم.[1]

ومعنى الآية على قراءة التخفيف (يُخْرِبُونَ): يغادرون بيوتهم ويتركونها خاويةً، بسبب جلائهم عنها بأمر المؤمنين. وبذلك يكون إخراب البيوت بأيدي أصحابها حقيقة، وبأيدي المؤمنين مجاز عقلي في إسناد الإخراب الذي أخربه بني النضير إلى المؤمنين باعتبار أنَّ المؤمنين عرَّضوهم لذلك، وكانوا السبب في خواء البيوت التي تركها بنو النضير، فصاروا كأنَّهم أمروهم به وكلفوه إياهم.

ومعنى الآية على قراءة التشديد: يهدمون أبنيتهم؛ لينقلوا معهم ما يصلح من الأخشاب والأبواب مما يقبل النقل، ليبنوا به منازلهم في المهجر، أو ليسدوا بما نقضوا منها من الخشب والحجارة أفواه الثغور التي ينقبها المسلمون، أو لئلا يتركوا بيوتهم مساكن للمسلمين بعد جلائهم. وأمَّا التهديم بفعل المؤمنين؛ فهو لإزالة متحصنهم، وتوسيع مجال القتال، ونكايةً الأعداء. وتخريب البيوت بأيدي اليهود وأيدي المؤمنين حقيقة في الفعل.[2]

فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ

الاعتبار مأخوذ من العبور والمجاوزة من شيء إلى شيء، ولهذا سميت الدمعة عَبرة؛ لأنَّها تنتقل من العين إلى الخد، وسميت الألفاظ عبارات؛ لأنَّها تنقل المعاني من لسان القائل إلى عقل المستمع.

والاعتبار: النظر في دلالة الأشياء على لوازمها وعواقبها وأسبابها وجهات دلالتها ليُعرَف بالنظر فيها شيءٌ آخر من جنسها.[3]

والمعنى: اتعظوا بما جرى عليهم من إخراجهم من ديارهم من غير قتال على وجه لا تكاد تهتدى إليه الأفكار، ولم يكن يخطر بالبال، واتقوا الكفر الذي أودى

(١) انظر: البحر المحيط، ج٨/ ٢٤٢، واللباب، ج١٨/ ٥٦٦.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٢٦.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٤٥.

بهم إلى ذلك المصير، أو انتقلوا من حال الفريقين الى حال أنفسكم فلا تغتروا بالأسباب الظاهرة، ولا تعتمدوا على غير الله.[1]

ومعنى الآية والخطاب يحتمل وجهين:

أ _ أن يكون الخطاب موجهاً إلى غير معين. والمراد: به أصحاب العقول والألباب والبصيرة. وأوثر ذكر الأبصار، ولم يقل: (أولوا الألباب)؛ ليشير إلى أنَّ كل ذي بصر يرى مواقع ديارهم بعدهم، له عبرة في قدرة الله تعالى على إخراجهم من غير قتال. وفي انتصار الحق على الباطل.[2]

ب _ أن يكون الخطاب موجَّهاً إلى معيَّن، والمراد: من عاين الواقعة المذكورة، والمعنى: العبرة بحال بني النضير واضحة لكل ذي بصر ممن شاهد ذلك.[3]

وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا

(لولا) حرف امتناع لوجود، تفيد امتناع جوابها، لوجود شرطها، فقضاء الله بجلائهم هو سبب انتفاء تعذيبهم في الدنيا بعذاب آخر غير الجلاء.

وليس القصد من تقدير الجلاء لهم اللطف بهم وكرامتهم، وإنَّما قدر الله لهم الجلاء من بين العقوبات الدنيويَّة؛ لمصلحة اقتضتها حكمته، وهي أن يأخذ المسلمون أرضهم وديارهم، من غير وقوع شهداء من المسلمين، لأنَّ الله أراد استبقاء قوة المسلمين لما يستقبل من الفتوح.[4]

والجلاء: الخروج من الوطن بنية عدم العودة.

والفرق بين الجلاء والإخراج:

أ - أنَّ الجلاء يكون مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٢٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج ٢٨ / ص ٦٥.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٤٥.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج ٢٨ / ٦٦.

ب - أنَّ الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون للجماعة أو الواحد.[1]

لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا: المراد بالتعذيب: الألم المحسوس بالأبدان بالقتل والجرح والأسر والإهانة، وإلا فإنَّ الإخراج من الديار نكبة ومصيبة لكنها لا تدرك بالحس وإنَّما تدرك بالوجدان.[2] ومعنى الآية: لو لم يعاقبهم الله بالجلاء من أرضهم وديارهم، لعذّبهم في الدنيا بجوع الحصار وفتح ديارهم عنوة ثمَّ بالقتل والأسر؛ لأنَّهم استحقوا العقاب. لكنَّ الله رفع العذاب عنهم في الدنيا بالقتل، وجعل عذابهم في الدنيا الجلاء.[3]

وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ

الجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً، وليست معطوفة على جواب (لولا)، إذ يلزم من العطف على الجواب انتفاء عذاب الآخرة؛ لأنَّ (لولا) تقتضي انتفاء الجزاء لحصول الشرط، وهذا المعنى غير مقصود. فإنَّ عذاب النار ليس منتفياً عنهم، ولن ينجوا منه في الآخرة.[4] والقصد من الاستئناف بهذه الجملة:

أ _ الاحتراس من توهم أنَّ الجلاء بدل من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة.

ب _إفساد فرحتهم بالجلاء الذي وجدوه أهون على أنفسهم من القتل.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

الإشارة بـ (ذلك) إلى جميع ما ذكر من: إخراجهم من ديارهم، وقذف الرعب في قلوبهم، وتخريب بيوتهم، وإعداد العذاب لهم في الآخرة. والباء للسببية.

والمشاقة: الخصومة والعداوة، وقد كان بنو النضير يعادون المسلمين،

---

(١) انظر: النكت والعيون، ج٥/ ٥٠١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨ / ٦٦.

(٣) انظر: تفسير الطبري، ج ٢٣ / ٢٦٧.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٤٦.

ويعاهدون المشركين على حرب النبي ﷺ وأصحابه.

والمعنى: أعدَّ الله لهم ما تقدَّم ذكره من العقوبات؛ بسبب ما فعلوه من معاداة النبيِّ ﷺ، وعصيان ربهم فيما أمرهم به من اتباع رسوله ﷺ.

وجملة (وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) تذييل لقصد التحذير، أي: من يشاقق ويعادي اللّه تعالى ورسوله ﷺ بعدم الطاعة، ونقض العهد، فإنَّ اللّه يعاقبه في الدنيا والآخرة أشدَّ العقاب.

وعطف اسم الرسول ﷺ على اسم الجلالة في الجملة الأولى؛ لتعظيم شأن الرسول ﷺ؛ ليعلموا أنَّ طاعته طاعة لله؛ لأنَّه يدعو إلى ما أمره الله بتبليغه. ولم يعطف اسم الرسول ﷺ في الجملة الثانية استغناء بما عُلِم من الجملة الأولى.(١)

مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ

في الآية إشارة إلى ما حدث في حصار بني النضير، وذلك أنَّه لما حاصرهم المسلمون، وكانت حوائطهم خارج قريتهم، عمد بعض المسلمين إلى قطع بعض النخيل، ليوسعوا مكاناً لمعسكرهم، أو لنكاية بني النضير.

وكان ذلك إمَّا بأمر من النبي ﷺ، أو بدون أمره، لكنه لم يُغيّره عليهم. وأمسك بعض الجيش عن قطع النخيل؛ لأنَّه مما أفاء الله عليهم.

ومعنى الآية: أنَّ ما قُطِعَ من النخل أريد به مصلحة إلجاء العدو إلى الاستسلام، وإلقاء الرعب في قلوبهم وإذلالهم، بأن يروا أكرم أموالهم عرضة للإتلاف بأيدي المسلمين، وأنَّ ما أبقي في بقائه مصلحة؛ لأنَّه آيل إلى المسلمين فيما أفاء الله عليهم، فكان في كلٍ من القطع والإبقاء مصلحة، ووجوه المصالح تختلف باختلاف الأحوال، ولما تعارضت المصلحتان كان حكم الله تخيير المسلمين.

ثم بيَّن الله أنَّ القطع والإبقاء كليهما بإذنه، أي: مرضياً عنده.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج ٢٨ / ٦٧.

وأطلق الإذن على الرضى على سبيل الكناية، أو أطلق إذن الله على إذن رسوله ﷺ إن ثبت أنَّ النبي ﷺ أذن بذلك ابتداء، ثم أمر بالكفِّ عنه.

وقد اختلف المفسرون في إذن النبي ﷺ فيه ابتداء. والراجح: أنَّ القطع والامتناع منه كان اختلافاً بين المسلمين، وأنَّ الآية نزلت بتصديق من نهي عن قطعه، وتحليل من قطعه من الإثم.(١)

و(مِنْ) في قوله: (مِنْ لِينَةٍ) بيانيَّة، وهي بيان لما تمَّ قطعه في قوله: (مَا قَطَعْتُمْ)

واللينة: هي النخلة، واختلف المفسرون في تحديد معناها: فإن كانت اللينة من الألوان، فتخصيصها بالقطع؛ لإبقاء العجوة والبرنية لأنفسهم. وإن كانت من كرام النخل؛ فليكون غيظ اليهود بقطعها أشد.(٢)

قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا: الأصول: القواعد. والمراد هنا: سوق النخل. ووصفها بأنَّها (قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا)؛ لتصوير لحسنها، وفيه إيماء إلى أنَّ ترك القطع أولى.

وفي الجملة حذف، والتقدير: قائمة فروعها على أصولها؛ لظهور أنَّ أصل النخلة بعضها. والدليل قوله: (أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ) [سورة ابراهيم: ٢٤].

وضمير (أصولها) عائد إلى (ما) الموصولة في: (مَا قَطَعْتُمْ)؛ لأنَّ مدلول (ما) جمع، وليس عائد إلى (لينة)؛ لأنَّ اللينة ليس لها أصول، بل لكل لينة أصل واحد.

والفاء من قوله: (فَبِإِذْنِ اللَّهِ) مزيدة في خبر المبتدأ؛ لأنَّه اسم موصول، واسم الموصول يعامل معاملة الشرط إذا ضمن معنى التسبب.

وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ: اللام للتعليل. والمراد بالفاسقين هنا: الكافرون وهم يهود النضير. والمعنى: أنَّ الله أذن بذلك؛ ليهين كفار بني النضير ويذلهم، وليزداد

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨ / ٦٨.

(٢) انظر: الكشَّاف، ج٤/ ٥٠١، ومفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٤٦.

غيظهم وتتضاعف حسرتهم؛ بسبب نفاذ حكم أعدائهم في أعز أموالهم.[1]

وعدل عن الإتيان بضميرهم، فلم يقل: (ليخزيهم) إلى التعبير عنهم بوصف الفاسقين، لأنَّ الوصف يؤذن بعلّة ثبوت الحكم، أي: ليخزيهم بسبب فسقهم.[2]

الأساليب البلاغيَّة:

١ – **القصر:** بتعريف طرفي الجملة بالضمير والموصول في قوله: (هو الذي أخرج الذين كفروا من ديارهم)

٢ _ **التشبيه التمثيلي:** في قوله تعالى: (فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا)، مُثِّلت هزيمة اليهود حين يسَّر الله أسباب استسلامهم بعد أن صمموا على الدفاع - وكانوا أهل عدد وعدة - ولم يطل حصارهم بحال من أخذ حذره من عدوه وأحكم حراسته من جهاته، فأتاه عدوه من جهة لم يكن أقام حراسة فيها.

٣ - **طباق السلب:** بين (ما ظَنَنْتُمْ)، (وظَنُّوا).

المعنى الإجمالي للآيات:

تفتتح السورة بالتنزيه والتمجيد والتسبيح لله الذي يمجِّده ويقدِّسه كل شيء في السماوات والأرض، وفي هذه الافتتاحية العظيمة يذكِّر الله المؤمنين بالتسبيح شكراً لله القاهر القادر على نصر أوليائه وسحق أعدائهم، الحكيم في تدبيره وتقديره، فهو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم بينما كانت المؤشِّرات الظاهرية لا تسمح لأذهان المؤمنين أن يتوقَّعوا خروجهم، ولم يكن يخطر ببال اليهود أنَّ الجلاء عن مساكنهم أمر يمكن حدوثه، فقد كانوا من القوة والمنعة في حصونهم بحيث لا يخطر ببال المؤمنين أنَّهم سيخرجون بتلك الطريقة المهينة التي أخرجوا بها، وكانوا من القوَّة بحيث اغتر اليهود بحصونهم حتى نسوا قوة الله التي لا تردها الحصون، فأتاهم بأس الله من داخل كيانهم،

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٤٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨ / ٧٠.

وليس من قبل حصونهم، إذ ألقى الفزع في قلوبهم، وأراهم أنَّهم لا يملكون أنفسهم، ففتحوا حصونهم، وأخذوا يهدمون بيوتهم التي تحصَّنوا بها بأيديهم. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل مكَّنوا المؤمنين من تخريبها معهم. وهذا الأمر يدعوا كل ذي عقل وبصيرة إلى الاتعاظ بأحوالهم، والاعتبار بجزائهم.

ولولا أنَّ الله قدر لهم الجلاء، لوجوه الحكمة التي يعلمها، لعذَّبهم في الدنيا عذاباً آخر، فقد استحقُّوا العذاب بصورته التي وقعت أو بصورة أخرى، فضلاً عمَّا ما أعدَّه لهم من عذاب النار في الآخرة بسبب مجاهرة الإله الذي خلقهم بالعداوة والشقاق، وكفرهم بدين الله الذي جاء به النبيُّ محمد ﷺ، ولذلك استحقوا عقاب الله الشديد؛ لأنَّهم عرَّضوا أنفسهم لغضب الله.

وكان المسلمون قد قطعوا بعض نخل اليهود في أثناء حصارهم، وأبقوا بعضه، فتحرجت صدورهم مما سمعوه من اليهود من تهم الإفساد والتخريب، فأنزل الله قرآناً يطمئن قلوبهم، ويربط ما فعلوه في كلا الحالين بإذن الله، فهو الذي قدَّر ما فعله المسلمون لأنَّه أراد أن يخزي الفاسقين بالحسرة على ما قطع من نخيلهم، والحسرة على ما وقع في أيدي أعدائهم.

الفوائد والأحكام:

أولاً: احتج بعض علماء الأصول بقوله تعالى: (فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ) على أنَّ القياس حجة، إذ معنى الاعتبار العبور والمجاوزة من الشيء إلى نظيره إذا شاركه في العلة، وذلك متحقق في القياس؛ إذ فيه نقل الحكم من الأصل إلى الفرع.(١) ويدلّ على صحة هذا المعنى: ابْتِدَاءُ الآية التي فيها ذِكْرُ الاعتبار، لأنَّه تعالى قال: (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللهِ فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ)، فأخبر

(١) انظر: المستصفى من علم الأصول، للإمام أبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ)، تح: محمد بن سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١/ ١٤١٧هـ -١٩٩٧م، ج١/ ٢٦٦.

عن ظنهم الكاذب أنَّ حُصُونَهُمْ مَانِعَتُهُمْ مِنْ اللهِ، ثم أخبر عما اسْتَحَقُّوهُ مِنْ الْخِزْيِ وَالْعَذَابِ وَالذُّلِّ وَالْخِذْلَانِ بقوله تعالى: (فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا) ثُمَّ قال: (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ). والمعنى: أُحْكُمُوا لِمَنْ فَعَلَ مِثْلَ فِعْلِهِمْ بِاسْتِحْقَاقِ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ مِنْ اللهِ تَعَالى، لِئَلَّا يُقْدِمُوا عَلَى مِثْلِ مَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ، فَيَسْتَحِقُّوا مِثْلَ مَا اسْتَحَقُّوا، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الِاعْتِبَارَ هُوَ أَنْ تَحْكُمَ لِلشَّيْءِ بِحُكْمِ نَظِيرِهِ الْمُشَارِكِ لَهُ فِي مَعْنَاهُ الَّذِي تَعَلَّقَ بِهِ اسْتِحْقَاقُ حُكْمِهِ.(١)

ثانياً: احتج الفقهاء بقوله تعالى: (يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ) [سورة الحشر:٢] على أنَّه يجوز إحراق حصون العدوّ ونصب المنجنيق والمدافع عليها وهدمها، ورميهم بالنبال وغيرها من وسائل القتال الحديثة، لما فيه من قهر العدو، ولأنَّ حرمة الأموال لحرمة أربابها، والكفَّار لا حرمة لأنفسهم ولا لأموالهم.(٢)

ثالثاً: احتجَّ الحنفيَّة بقوله تعالى: (ما قَطَعْتُمْ من لِينَةٍ أو تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً على أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ) [سورة الحشر: ٥] على جواز قطع أشجار العدوّ المثمرة وغير المثمرة، وجواز إفساد زروعهم؛ لما فيه من قهر العدو وإلحاق الغيظ بهم وكسر شوكتهم. ووجه الاستدلال على مشروعيَّة ذلك من الآية: أنَّ الله أذن بقطع النخيل في صدر الآية، ونبه في آخرها أنَّ في ذلك إهانةً وغيظاً للعدو. وثبت في صحيح البخاري أنّ النبيَّ ﷺ حرَّق نخيل بني النَّضير في البويرة.(٣)

وذهب فقهاء (المالكيَّة والشافعيَّة والحنابلة) إلى التفريق بين حالين،

---

(١) الفصول في الأصول، للإمام أحمد بن علي الرازي الجصاص (٣٧٠هـ)، تح: د.عجيل جاسم النشمي، طبع وزارة الأوقاف الكويتية، ط٢/ ١٤١٤هـ -١٩٩٤م، ج٤/ ٣١ –٣٢.

(٢) انظر: الأم، للإمام الشافعيّ، ج٤/ ٣٠٧، وبدائع الصنائع، ج٧/ ١٠٠، وبداية المجتهد، ج١/ ٣٠٩، والشرح الكبير على متن المقنع، لابن قدامة المقدسي، (٦٨٢هـ) على مذهب الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، دار الكتاب العربي، بيروت، ج١٠/ ٣٩٠.

(٣) انظر: بدائع الصنائع، ج٧/ ١٠٠.

وتقييد الجواز بالحاجة إلى فعل ذلك: فإن احتيج إلى حرق الشجر وقطعه؛ للظفر عليهم، ولم يكن في ذلك ضرر على المسلمين جاز القطع والتحريق. وإن كان في بقائه مصلحة، ولم يكن في إتلافه نفعٌ سوى غيظ الكفار، وكان في إتلافه إضرار بالمسلمين؛ لحاجتهم إلى الاستتار به، أو الأكل منه أو علف دوابهم، وغلب على الظن أنَّه سيكون غنيمة لهم، فلا يجوز إتلافه،[1] لما روي عن أبي بكر الصديق ﷺ في وصيته ليزيد: "وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً وَلَا بَعِيرًا إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَحْلًا وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ"[2]

جامعة حلب ١٩٥٨ UNIVERSITY OF ALEPPO

(١) انظر: المجموع، للنووي، ج١٩/ ٢٩٧، والشرح الكبير، للدردير، ج٢/ ١٨٠، والكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل، لابن قُدامة المقدسي، المكتب الإسلامي، بيروت، ج٤/ ٢٧٠.

(٢) موطأ الإمام مالك، كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو، رقم (١٦٢٧)، ج٣/ ٦٣٥.

وَما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ وَلكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (٧) لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جاؤُا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١٠)

[سورة الحشر: ٦ _ ١٠]

مناسبة الآيات لما قبلها:

في هذه الآيات بيان حكم الأموال التي أخذت من بني النَّضير بغير قتال، بعد بيان ما حل بأنفسهم من العذاب العاجل والأجل، وما نال ديارهم ونخيلهم من التخريب والقطع.(١)

أسباب النزول:

أخرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ،

(١) انظر: تفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٢٧.

فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا الْمَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا، فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ: أَنَا، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ أَوْ عَجِبَ مِنْ فَعَالِكُمَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ).(١)

وروى الحاكم عن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما قال: أُهديَ لرجلٍ من أصحاب رسول اللّه ﷺ رأس شاة، فقال: إنَّ أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحدًا إلى آخر حتى تداوله سبعة أهل أبيات حتى رجعت إلى الأول، فنزلت: (وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ).(٢)

وأخرج الواحدي عن يزيد بن الأصم: أنَّ الأنصار قالوا: يا رسول الله، أقسم بيننا وبين إخواننا من المهاجرين الأرض نصفين، قال: "لا، ولكنهم يكفونكم المؤونة وتقاسمونهم الثمرة والأرض أرضكم"، قالوا: رضينا، فأنزل الله تعالى: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ)(٣)

معاني المفردات:

وَمَا أَفَاء اللَّهُ: مَا ردَّ الله إلى رسول الله ﷺ من مال بني النضير، وَالفَيْءُ: مَا أُخِذَ مِنْ أَمْوَالِ الكُفَّارِ من غير قِتَالٍ.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول الله: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)، رقم (٣٥٨٧)، ج٣/ ١٣٨٢.

(٢) المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحشر، رقم (٣٧٩٩)، ج٢/ ٥٢٦. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقال الذهبي: عبيد الله بن الوليد (أحد رجال السند) ضعفوه.

(٣) أسباب النزول، للواحدي، ص ٢٨٠.

فَمَا أَوْجَفْتُمْ: ما حملتم خيلكم ولا إبلكم على الوجيف إليه، والوجيف: حمل الخيل على السير سريعاً؛ للإغارة على العدو.

رِكَابٍ: مَا يُرْكَبُ من الإبل

وَلِذِي الْقُرْبَى: قَرَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَالْيَتَامَى: الأَطْفَالِ الَّذِينَ مَاتَ آبَاؤُهُمْ وهم قبل البلوغ.

والمساكين: أهل الحاجة والفقر.

وَابْنِ السَّبِيلِ: الغريب المسافر الذي نَفِدت نَفَقَتُهُ، وانقطع عنه ماله.

كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ: لئلا يكون المال متداولاً بين الأغنياء وحدهم من غير الفقراء.

تَبَوَّؤُوا الدَّارَ: سكنوا المَدِينَةَ.

مِمَّا أُوتُوا: مما أعطي المهاجرون من فيء بني النضير.

يُؤْثِرُونَ: يقدمون حاجة النَّاس على حاجة أنفسهم.

خَصَاصَةٌ: فقرٌ وحاجة شديدة لا يجدون ما يسدها.

يُوقَ: يُجَنَّبْ.

شُحَّ نَفْسِهِ: الشُّحُّ: الحرص على المال والبخل به.

غِلًّا: حسداً وحِقداً.

القراءات والإعراب:

فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْه: خبر عن (ما) الموصولة قرن بالفاء؛ لأنَّ الموصول كالشرط لتضمنه معنى التسبب. وحرف (على) للتعليل، وليس لتعدية (أوجفتم)؛ لأنَّ الإيجاف لا يتعدى إلى الفيء بحرف الجر، والجر متعلق بمحذوف مصدر (أوجفتم)، أي: إيجافاً لأجله.

من خيلٍ: من زائدة داخلة على النكرة في سياق النفي، في محل نصب مفعول به لـ (أوجفتم) أي: ما سقتم خيلاً ولا ركاباً.

كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً: قرأ الجمهور بنصب (دولةً) خبر لـ (يكون). واسم (يكون) ضمير مقدَّر عائد إلى ما أفاء الله، وقرأه هشام عن ابن عامر، وأبو جعفر برفع (دولةٌ) على أن (يكون) تامَّة بمعنى (يقع) وليست فعل ناقص، و(دولةٌ) فاعله. وقرأ الجمهور (يكون) بالياء. وقرأه أبو جعفر (تكون) بالتاء، وقرأ هشام بالوجهين.(١)

يَبْتَغُونَ فَضْلًا: الجملة حال أو خبر.

وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا: في موضع جر، عطفاً على لِلْفُقَراءِ، أو في موضع رفع على الابتداء.

والْإِيمانَ: مفعول لفعل مقدَّر محذوف. والتقدير: أخلصوا الإيمان.

يُحِبُّونَ: في موضع نصب على الحال من الَّذِينَ. أو في موضع رفع خبر.

الأساليب اللغويَّة:

كانت قرية بني النَّضير تبعد مسافة ميلين من المدينة، ولذلك سار إليها المسلمون مشياً، ولم يركبوا إليها خيلاً، إلا رسول اللّه ﷺ، فقد كان يركب جملاً. ولم يكن هناك قتالٌ، بل جرت بدايات قتال، وجرى الحصار، ثم صالحوا على الجلاء، وتركوا أموالهم إلا ما حملته الإبل. وخصَّ الله تلك الأموال برسول الله ﷺ، من غير المجاهدين؛ لأنَّ المجاهدين لم يكابدوا مشقة تحصيلها، فقسمها النبي ﷺ بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة؛ لشدة حاجتهم، وهم: أبو دجانة وسهل بن حنيف والحرث بن الصُّمَّة، وأعطى سعد بن معاذ سيف أبي الحقيق.(٢) وفي الآيات بيان حكم الأموال الآيلة إلى المسلمين بغير قتال.

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

في هذه الآية إشارةٌ إلى أنَّ بني النَّضير قد عصوا الله بالأموال التي أنعم بها

(١) النشر، ج٢/ ٤٢٦.

(٢) انظر: السيرة النبويَّة، لابن كثير، ج٣/ ١٤٨.

عليهم، وصرفوها بغير وجوه الحقِّ التي جعلها الله مصارف للمال، ولمَّا لم يكونوا جديرين بامتلاك المال الذي كان في أيديهم أعاده الله إليه، وصيَّره ملكاً لرسوله ﷺ. وهذا المعنى مأخوذٌ من الدِّلالة اللغويَّة لـ (أفاء)، من الفيء: وهو الرجوع ومنه رجوع الظلِّ إلى الناحية التي ابتدأ منها.

وعلى هذا المدلول اللغوي بنى الأزهري المدلول الشرعي،[1] فقال: "الفيء: ما ردّ الله تعالى على أَهل دِينه من أَموال مَن خالف أَهل دينه بلا قِتال، ... وأصل (الفيء): الرجوع، كما أعلمتك، سُمّي هذا المال: فيئاً، لأنه رجع إلى المسلمين من أموال الكُفّار عَفْواً بلا قتال"[2]

وبذلك يكون معنى: (وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ) ما ردَّه الله عليه من أموالهم كان حقيقاً بأن يكون له؛ لأنَّ الله خلق الناس لعبادته، ووهب لهم من المال ما يتوسلون به إلى طاعته، فهو جدير بأن يكون ملكاً للمطيعين من خلقه.[3]

والضمير في (منهم) يعود إلى كفار بني النَّضير الذين تقدَّم ذكرهم في قوله: (الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) [سورة الحشر: ٢] والمعنى: ردَّ المال من أيديهم.[4]

فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ: في هذه الجملة امتنان على المسلمين بأنَّ الله ساق لهم أموال بني النضير من غير قتال، مثل قوله تعالى: (وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) [سورة الأحزاب:٢٥].

والخبر يفيد بظاهره إخبار المؤمنين بأنَّهم لم يوجفوا عليه، والمراد: لازم الخبر، وهو أنَّه ليس لهم سبب حق فيه. والمعنى: فما هو من حقكم، فلا تسألوا قسمته؛ لأنَّكم لم تنالوه بقتالكم، ولكن الله أعطاه لرسوله ﷺ بلا مشقة.[5]

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٤٧، وتفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٢٧.

(٢) تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، تح: محمد عوض مرعب، دارإحياء التراث العربي، بيروت، ط١/ ٢٠٠١، ج١٥/ ٤١٥.

(٣) أنظر: تفسير البيضاوي، ج٥/ ٣١٨، وتفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٢٧.

(٤) انظر: تفسير البيضاوي، ج٥/ ٣١٨.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ٧١.

وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ: استدراك على النفي الذي في قوله تعالى: (فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ)؛ لرفع توهم أنَّه لا حق فيه لأحد. والمراد: أنَّ الله سلط عليه رسوله ﷺ. فالرسول أحق به.

وفي الجملة إيجاز حذف؛ والتقدير: ولكن الله سلط عليهم رسوله ﷺ، والله يسلِّط رسله على من يشاء، فلا حق لكم فيه، فيكون من مال الله يتصرف فيه رسوله ﷺ.

ومفعول المشيئة في قوله: (مَنْ يَشَاءُ) محذوف لإفادة العموم؛ والدلالة على أنَّ تسليط الرسل على أعدائهم يشمل المقاتلين منهم، وغير المقاتلين.(١)

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ: والله لا يعجزه شيء، وقدرته لا ترتبط بالأسباب الظاهرة والوسائل المعهودة، فقد سلَّط نبيه ﷺ على اليهود تسليطاً غير معتاد من غير اقتحام الخطوب، ولا مقاساة شدائد الحروب.(٢)

مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ

هذه الآية من مشكلات القرآن إذا نظرت مع الآية التي قبلها ومع آية الغنيمة في سورة الأنفال، فقد اتفق العلماء على أنَّ قوله تعالى: (وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ) نزل فيما صار لرسول الله ﷺ من أموال الكفار بغير قتال، واتفقوا على أنَّ آية الأنفال (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) [سورة الأنفال: ٤١] نزلت فيما صار من أموال الكفار بقتال.

وهذه الآية تذكر المستحقِّين الذين ذكرتهم آية الأنفال، وظاهرها أنَّ الأموال التي تؤخذ من الكفار تكون لله وللرسول ﷺ ولمن ذُكِر بعد ذلك، ولا يخرج

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ٧١.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٢٧.

منها خمس، ولا تقسم على المجاهدين، بخلاف آية الأنفال التي تنصُّ على إخراج الخمس للأصناف المذكورة فيها، وقسمة سائر الغنيمة على المجاهدين.

وقد اختلف العلماء في مضمون هذه الآية من سورة الحشر على أقوال كثيرة، منها:

أولاً: هذه الآية ابتداء كلام قصد منها بيان حكم غير الحكم الذي تضمنته الآية التي قبلها. فمضمون الآية السابقة بيان حكم أموال بني النضير التي خُصَّ بها النبيُّ ﷺ، وهذه الآية الثانية بيان حكم الأفياء التي حصلت عند فتح قرى أخرى بعد غزوة بني النضير. إذ تقسم للأصناف المذكورة في هذه الآية، وإلى ذلك ذهب الشيخ ابن عاشور، واستدلَّ لرجحان هذا القول: بما يقتضيه تغيير أسلوب التعبير بقوله هنا: (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) بعد أن قال في الآية التي قبلها (وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ)؛ وما يقتضيه عود ضمير (منهم) إلى (الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) وهم بنو النضير.(١)

ثانياً: هذه الآية تكملة وبيان للآية التي قبلها، فالآية السابقة اقتصرت على الإعلام بأنَّ الفيء للنبي ﷺ خاصة، وقد كان رسول الله ﷺ ينفق على أهله منه سنتهم، ثم يجعل ما بقي في مصالح المسلمين، فالآية السابقة ذكرت المال الذي خصّ الله به رسوله ﷺ، وهذه الآية خبرٌ عن المال الباقي الذي يُصرف في مصالح المسلمين. وهذا القول هو الذي اختاره الإمام الطبري.(٢)

ثالثاً: الآية الأولى من الحشر في بيان حكم الفيء، وهو ما أخذ من غير قتال، ويكون للنبي ﷺ خاصَّة، والثانية: في بيان حكم أموال الجزية والخراج، وهي أيضاً حاصلة من غير قتال، وتكون للأصناف المذكورة في الآية، وآية الأنفال في بيان حكم الغنيمة، وهو ما أخذ من الكفار بقتال، ويوزَّع خمسه على الأصناف

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ٧٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري، ج٢٣/ ٢٧٨.

المذكورة، والأخماس الأربعة الباقية للمقاتلين.[1]

رابعاً: هذه الآية نزلت في أرض الكفار خاصَّة إذا أُخِذَت عنوة. واستُدِّل لهذا القول بفعل عمر بن الخطاب ﷺ، حيث لم يقسم أرض مصر والعراق بل تركها لمصالح المسلمين. وإلى ذلك ذهب المالكيَّة والحنفيَّة، ثم قالوا إنَّ آية الحشر مخصصَّة لآية الأنفال، فآية الأنفال في المنقولات، وآية الحشر في العقارات، وتقسم الغنائم المنقولات على النحو الذي ذكره اللّه في الأنفال: الخُمُس لمن ذكرت الآية، والباقي للغانمين، وأما الفيء أي الأرض فيكون لكافة المسلمين، ولا يخمَّس، بل يصرف جميعه في مصالح المسلمين.[2]

وقد ضعَّف الطبري التخصيص؛ لعدم وجود دليلٍ يؤيّده، وأما فعل عمر ﷺ؛ فقد كان لمصلحة المسلمين بعد استطابة نفوس الغانمين.[3]

خامساً: هذه الآية فيما أخذ من الكفار بقتال، وهي منسوخة بما في سورة الأنفال من كون الخمس لمن سمي له، والأخماس الأربعة الباقية لمن قاتل. وكان في أول الاسلام تقسم الغنيمة على هذه الأصناف، ولا يكون لمن قاتل عليها شيء.[4] وهذا القول ضعيف؛ لأنَّ سورة الأنفال نزلت قبل سورة الحشر في غنائم بدر، والنصُّ المتقدِّم لا ينسخ المتأخر.

والصحيح أنَّ هذه الآية في حكم الفيء، وليست في حكم الغنيمة، فقد ذُكر هنا لفظ الفيء، وفي الأنفال لفظ الغنيمة، فلا تعارض بينهما، ولا نسخ.[5]

مِنْ أَهْلِ الْقُرَى: تقييد الفيء بفيء القرى لا مفهوم له، وإنَّما جرى على الغالب؛ لأنَّ الغالب ألا تفتح إلا القرى؛ لأنَّ أهلها يحاصرون فيستسلمون إذا

---

(١) انظر: تفسير الطبري، ج٢٣/ ٢٧٦، وتفسير القرطبي، ج١٨/ ١٢.

(٢) انظر التفسير المنير، ج٢٨/ ٨٨.

(٣) انظر: تفسير الطبري، ج٢٣/ ٢٧٦.

(٤) انظر: تفسير القرطبي، ج١٨/ ١٢.

(٥) انظر: المحرَّر الوجيز، ج٢/ ٦٠٥، واللباب، ج١٨/ ٥٧٧، والتحرير والتنوير، ج٢٨/ ٧٥.

اشتد عليهم الحصار، أما البدو فلا يُغلبون إلا بعد إيجاف وقتال.

فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ: أي ملك لله، يعطيه الرسول ﷺ لمن شاء بأمر الله. وحكم تقسيمها يختص بالله والرسول ﷺ. ولا ينبغي الظنُّ أنَّ الله يشارك الأصناف الأخرى المذكورة في اقتسام الفيء؛ لأنَّ الله مالك السموات والأرض وما فيهما.

وقُدِّم اسم الله؛ للتبرُّك، والإعلام بأنَّ المال ليس حقاً للمجاهدين، وإنَّما هو ملك لله يقسِّمه كما يشاء، ويتولى ولي الأمر توزيعه وفق شرع الله؛ تقرباً إلى الله.

وعطف (وللرسول) على اسم الله؛ لأنَّ الفيء للرسول ﷺ يتصرف فيه بإذن الله توفيقاً أو تفويضاً، ولتشمل الآية تصرف الأمراء بعد وفاة الرسول ﷺ؛ لأنَّ ما كان حقاً لله كان التصرُّف فيه لأئمة المسلمين.(١) فذكر الرسول ﷺ لا يعني الاختصاص بذات الرسول، فحقُّه في الفيء يكون لأئمة المسلمين من بعده.(٢)

وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ: إعادة اللام في ذي القربي وهم بنو هاشم وبنو المطلب؛ لتأكيد نصيبهم، ودفع توهم اشتراكهم في سهم النبيِّ ﷺ؛ لمزيد اتصالهم به.(٣)

وقد جعل الله لهم من الفيء نصيباً، كما جعل لهم من خمس الغنائم نصيباً، لأنَّ الصدقات لا تحلُّ لهم، ولا يَرِثُون من مال النبيِّ ﷺ شيئاً، وفيهم الفقراء الذين لا مورد لهم.

كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ: الضمير في (يكون) يعود على (ما) أي: كي لا يكون ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى دولة يتداوله الأغنياء.

وهذه الجملة تعليل لما اقتضته لام التمليك من جعل الفيء ملكاً لأصناف كثيرة من الناس. والمعنى: جعل الله الفيء مقسوماً على هؤلاء؛ لأجل ألا يتداوله

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٩/ ١١.

(٢) انظر: المرجع السابق، ج٢٨/ ٧٤.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود، ج٤/ ٢٢.

الأغنياء فقط، من غير الفقراء وأهل الحاجة.

والمقصود من ذلك جعل الفيء مصروفاً إلى مصارف ترجع فوائدها إلى عامة المسلمين؛ لسدِّ حاجاتهم العامَّة والخاصَّة، وإبطال ما كان معتاداً بين العرب قبل الإسلام من استئثار قائد الجيش بالأشياء الثمينة التي في المغانم، من غير جيشه.(١)

والخطاب في قوله تعالى: (بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ) للمسلمين عامَّة؛ لأنَّهم الذين خوطبوا في ابتداء السورة بقوله: (مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا) وقوله: (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ). والمراد بالأغنياء المجاهدون لأنَّهم مظنَّة الغنى، بالمغانم والأنفال.(٢)

وقال ابن عطية: الخطاب للأنصار، لأنَّ المهاجرين لم يكونوا أغنياء ذلك الوقت.(٣)

وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

هذه الآية جامعة للأمر باتباع ما يصدر من النبي ﷺ من قول وفعل فيندرج فيها جميع أدلّة السنة. والأمر محمول على العموم في جميع الأوامر والنواهي، ويدخل فيها دخولاً أوليّاً ما يدلُّ عليه السياق من قبول ما يعطيهم النبيُّ ﷺ من الفيء، والامتناع عن طلب ما منعهم إياه من مال الفيْ، وترك الغلول منه.(٤)

والقصد من هذا التذييل إزالة ما في نفوس بعض المقاتلين من حزازة حرمانهم مما أفاء الله على رسوله ﷺ من أرض النضير.(٥)

والتذييل بقوله: (إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) تعليلٌ للأمر بالتقوى، والمعنى: واتقوا عقاب الله؛ لأنَّ الله شديد العقاب، أي لمن خالف أمره واقتحم نهيه.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ٧٦.

(٢) انظر: المرجع السابق، ج ٢٨ / ٧٧.

(٣) المحرَّر الوجيز، ج٥/ ٢٦٠.

(٤) انظر: تفسير القرطبي، ج١٨/ ١٧.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ٧٧.

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ: بدل من الأسماء التي دخلت عليها اللام مباشرة وعطفاً في قوله: (وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) وأعيد اللام مع البدل لربطه بالمبدل منه؛ لانفصال ما بينهما بطول الكلام، ولإفادة التأكيد.

ويمتنع الإبدال من (لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ) لأنَّ الله عز وجل أخرج رسوله من عداد الفقراء، فيجب الترفع برسول الله ﷺ عن التسمية بالفقير، ولأنَّ الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عز وجلَّ.(١)

وذهب جمهور المفسرين إلى أنَّ (للفقراء) بدلٌ من قوله: (وَلِذِى الْقُرْبَى) والأسماء المعطوفة عليه، وهذا التفسير يتناسب مع ما هو مقرر في مذهب أبي حنيفة ومالك من اشتراط فقر ذوي القربى لاستحقاق نصيبهم من الفيء، فلا يُعطى ذوو القربى إلا إذا كانوا فقراء؛ لأنَّه عوض لهم عما حرموه من الزكاة. وهذا التفسير يتبناه مفسرو الحنفيَّة والمالكيَّة. والمعنى: ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، للفقراء منهم لا مطلقاً، ويدخل في ذلك المهاجرون والأنصار والذين آمنوا بعدهم.(٢)

والشافعي يرى أنَّ سبب الاستحقاق هو القرابة، فيأخذ ذوو القربى وإن كانوا أغنياء؛ لأنَّ الفيءَ حقٌ لهم لأجل القرابة للنبي ﷺ.(٣)

وذكر المفسرون أقوالاً أخرى في وجوه ارتباط (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ) بما قبلها، فمنهم من جعلها خبر لمبتدأ محذوف. والتقدير: ما أفاء الله على رسوله للمهاجرين الفقراء، وما عطف عليه. ومنهم من جعلها بحذف حرف العطف على

---

(١) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٤.

(٢) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٤، وتفسير البيضاوي، ج٥/ ٣١٩، وتفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٢٨، والتحرير والتنوير، ج٢٨/ ٧٨.

(٣) انظر: البحر المحيط، ج٨/ ٢٤٥.

طريقة التعداد كأنه قيل: فلله وللرسول، وِلِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ، وعلى هذين القولين ينتفي كونها قيد للجملة قبلها. والإبدال أرجح وعليه أكثر المفسِّرين.(١)

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ: هذا الوصف؛ للتنبيه على أنَّ علَّة إعطاء المهاجرين من مال الفيء هي جبرما نكبوا به من ضياع الأموال والديار.

يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ: تفخيم لشأنهم، وتنويه بفضائلهم، وقد ذكرت الآية من فضائلهم: إخلاص الإيمان، ونصرة رسول الله، وتحمل مشقَّة هجر ديارهم وأموالهم؛ نصرة لدين الله.(٢)

أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ: اسم الإشارة لتعظيم شأنهم، وللتنبيه على أنَّ استحقاقهم وصف الصادقين لأجل ما سبق اسم الإشارة من الصفات، وهي الخروج من ديارهم وأموالهم، وابتغاء رضوان الله ونصر رسوله ﷺ؛ إخلاصاً لله؛ فإنَّ ما يلحق العامل المخلص من مشاق وأذى يشهد لإخلاصه؛ والمهاجرون لما هجروا لذات الدنيا، وتحملوا شدائدها لأجل الدين ظهر صدقهم في دينهم.(٣)

وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

هذه الآية في بيان فضائل الأنصار، واختلف المفسرون في العطف على ما قبلها: فقال بعض المفسرين: الجملة ابتداء كلام في مدح الأنصار والثناء عليهم، وهي جملة مستأنفة غير معطوفة على الفقراء أو المهاجرين، مرفوعة بالابتداء، وخبرها (يُحِبُّونَ)، والمعنى: الفيء للفقراء المهاجرين، والأنصار لا يشاركونهم في

---

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ج١٨/ ٥٨٢ –٥٨٣، والتحرير والتنوير، ج٢٨/ ٧٩.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي، ج٥/ ٣١٩، وتفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٢٨.

(٣) انظر مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٤٩.

اقتسامه، لكن يحبونهم ولا يحسدونهم على ما صفا لهم من الفيء. وإليه ذهب القرطبي وأبو السعود.[1] واستدلوا بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم النضير للأنصار: "إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم وديباركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة" فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا، ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها، فأنزل الله عز وجل: "ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة"[2]

وذهب جمهور المفسرين إلى أنَّ (الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ) معطوف على المهاجرين، فيكون بينهم اشتراك فيما يقسم من مال الفيء.[3] واستدلوا بما روي أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ قرأ: (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) حتى بلغ (لِلْفُقَرَاءِ) (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ)، ثم قال: استوعبت هذه الآية المسلمين عامة، فليس أحد إلا له حق، ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي وهو بسَرو حِميَر نصيبهُ فيها، لم يعرق فيها جبينه.[4]

وما ذهب إليه الجمهور أرجح، وأما ما فعله الأنصار فقد كان نزولاً عن حقهم من الفيء لإخوانهم المهاجرين إيثاراً، ولهذا أثنى الله على فعلهم في الآية.

تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ: التبوء: التمكن والاستقرار واتخاذ المكان مسكناً، والمراد بالدار هنا المدينة المنوَّرة، والضمير في (من قبلهم) يعود للمهاجرين. وتقدير الكلام: والذين سكنوا المدينة مِن قَبْلِهِمُ: قبلَ المهاجرين؛ فإنَّ

---

(١) انظر: تفسير القرطبي، ج١٨/ ٢١، وتفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٢٩.

(٢)لم أجده في كتب السنَّة وأسباب النزول.

(٣) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٤، ومفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٠، والبحر المحيط، ج٨/ ٢٤٥، وتفسير ابن كثير، ج٤/ ٤٠٨، والبيضاوي، ج٥/ ٣٢٠، والتحرير والتنوير، ج٢٨/ ٨٠.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره، ج٢٣/ ٢٧٦، وعبد الرزاق في مصنفه، كتاب الجامع للإمام معمر بن راشد الأزدي رواية الإمام عبد الرزاق الصنعاني، باب الديوان، رقم (٢٠٠٤٠)، ج١١/ ١٠١، وذكره الشافعي في المُسند، كتاب قسم الفيء، رقم (١٥١٧)، ج١/٣٢٥.

الأنصار سبقوا المهاجرين في تبوّء دار الهجرة؛ لأنَّها كانت بلدهم.[1]

وجملة (تَبَوَّؤُوا الدَّارَ) توطئة لجملة (يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ).[2]

وفي عطف الإيمان على الدار إشكال؛ لأنَّ (الإيمانَ) لا يصحُّ أن يكون مفعولاً لفعل (تبؤوا)، لأنَّ التبوء يكون في الأماكن.

وقد تأوَّل المفسرون الآية على وجوه:

١_ جعل (الايمانَ) مفعولاً لفعل محذوف غير تبوأ، لأنَّ الإيمان ليس بمكان يُتبوَّأ. والتقدير: تبوّؤا الدار وأخلصوا الإيمان، كقوله: عَلَفْتُها تِبْناً وَمَاءً بَارِداً.

٢_ حمل الكلام على ما دل عليه فعل (تبوأ) من الملازمة، والتقدير: وجعلوا الإيمان مستقراً لهم؛ لتمكنهم منه واستقامتهم عليه، كما جعلوا المدينة كذلك.

٣_ حمل الكلام على حذف المضاف، والتقدير: تبوؤا دار الهجرة ودار الإيمان، حذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه.

٤_ سمى المدينة بالإيمان؛ لأنَّها دار الهجرة ومكان ظهور الإيمان.[3]

٥_ حمل الكلام على المجاز، وتشبيه الإيمان بالمنزل، من حيث اختلاطه بهم وثباتهم عليه، وعلى هذا يكون فعل تبوؤا مستعملاً في حقيقته ومجازه.[4]

٦_ أنَّ الإيمان منصوب على المفعول معه أي: تبوؤوا الدار مع الإيمان.[5]

واقتران ذكر الإيمان بذكر الدار يفيد الثناء على الأنصار بأنَّ دارهم التي آووا إليها المهاجرين دار مؤمنين لا يماثلها يومئذ غيرها. وفيه أيضاً إيماء إلى

---

(١) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٤، ومفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٤٩، وتفسير البيضاوي، ج٥/ ٣٢٠.

(٢) التحرير والتنوير، ج٢٨/ ٨٠.

(٣) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٤، وتفسير القرطبي، ج١٨/ ٢٠ –٢١.

(٤) انظر اللباب، ج١٨/ ٥٨٥، والتحرير والتنوير، ج٢٨/ ٨٠.

(٥) انظر: المحرر الوجيز، ج٥/ ٢٦١، والتحرير والتنوير، ج٢٨/ ٨١.

فضيلة المدينة؛ حيث جعل تبوء المدينة قرين الثناء عليهم بالإيمان.[1]

يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ: موضع هذه الجملة يختلف بحسب الاختلاف في عطف جملة (وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ): فإذا كانت جملة (وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ) مستأنفة غير معطوفة على ما قبلها فإنَّ جملة (يُحِبُّونَ) خبر.[2] وإذا كانت جملة (وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ) معطوفة، فجملة (يُحِبُّونَ) حال من (الذين تبوؤوا)؛ للثناء على الأنصار بما تقرَّر في نفوسهم من أخوة الإسلام ومحبَّة المهاجرين، وكان شأن القبائل أن يتحرجوا من الذين يهاجرون إلى ديارهم؛ لمضايقتهم.[3]

وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا: أي: لا يعلمون في أنفسهم، أطلق اسم الوجدان على الإدراك العقلي، وكنى بانتفاء وجدان الحاجة عن انتفاء وجودها؛ لأنَّها لو كانت موجودة لأدركوها في نفوسهم.[4]

والصدور: المراد بها النفوس، موضع الحواس الباطنة، ومثله القلب.

وضمير (صدورهم) عائد إلى (الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ) أي: الأنصار، وضمير (أوتوا) عائد إلى (مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ). والسامع يرد كل ضمير إلى معاده بحسب السياق.[5]

والحاجة: اسم مصدر بمعنى الاحتياج، وهو الافتقار إلى شيء، وتطلق على الأمر المحتاج إليه، من إطلاق المصدر على اسم المفعول، وهي تحتمل معانٍ:

الأول: أن يحمل لفظ حاجة على استعماله الحقيقي، فإنَّ الحاجة بهذا المعنى يصح وقوعها في الصدور؛ لأنَّها من الوجدانيات والانفعالات.

ومعنى نفي وجدان الاحتياج في صدورهم: أنَّهم لفرط حبهم للمهاجرين

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ٨١.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٢٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ٨٢.

(٤) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٤، والتحرير والتنوير، ج٢٨/ ٨٢.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ٨٣.

صاروا لا يخامر نفوسهم أنَّهم مفتقرون إلى شيء مما أوتي المهاجرون، فهم أغنياء عما أخذه المهاجرون، فلا تستشرف نفوسهم إلى شيء مما أوتوه، فضلاً عن أن يطلبوه.

وتكون (من) في قوله تعالى: (مِمَّا أُوتُوا) للتعليل، أي: حاجة لأجل ما أوتيه المهاجرون، أو ابتدائية، أي: حاجة ناشئة عما أوتيه المهاجرون، فيفيد انتفاء وجدان الحاجة في نفوسهم، وانتفاء أسباب ذلك الوجدان، ومنشِئه المعتاد في نفوس الناس تبعاً للمنافسة والغبطة. والتقدير: أنّ نفوسهم لم تتبع ما أعطوا ولم تطمح إلى شيء منه يحتاج إليه.(١)

الثاني: الحاجة مجاز في المأرب والمراد، كقوله تعالى: (وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ) [سورة غافر: ٨٠]، أي: لتبلغوا في السفر عليها المأرب الذي تسافرون لأجله، وكقوله تعالى: (إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا) [سورة يوسف: ٦٨] أي: مأرباً مهماً. وعليه تكون (من) في قوله: (مِمَّا أُوتُوا) ابتدائية، أي: مأربا أو رغبة ناشئة من فيء أعطيه المهاجرون. والمعنى: لا يخامر نفوسهم تشوُّف إلى أخذ شيء مما أوتيه المهاجرون من فيء بني النضير.(٢)

الثالث: الحاجة كناية عن الحسد والغيظ، وأطلق لفظ الحاجة على الحسد؛ لأنَّه لا ينفك عن الحاجة، فأطلق اسم اللام على الملزوم على سبيل الكناية. والمعنى: لا يحسدون المهاجرين على ما خصوا به من مال الفيء، وفي نظم الآية حذف مضافين؛ لأنَّ المعنى: لا يجدون مسَّ حاجة من فقد ما أوتوا.(٣)

وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ: لا يزال سياق الآية في الثناء على الأنصار بسبب إيثارهم المهاجرين بالفيء، ولا يمتنع أن يدخل فيها سائر مآثر الأنصار في الإيثار كما في قصة الأنصاري مع ضيف الرسول ﷺ، حيث لم يكن لديه إلا طعام

---

(١) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٤، وتفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٢٩، والتحرير والتنوير، ج٢٨/ ٨٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج ٢٨ /٨٣.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٠، وتفسير القرطبي، ج ١٨ / ٢٣.

صبيانه، فأوهم ضيفه أنَّه يأكل حتى أكل الضيف. كما تقدَّم في سبب النزول.[1]

والإيثار: تفضيل وتقديم مصلحة الغير على مصلحة النفس اختياراً، وهذا أعلى درجة مما أفاده قوله: (وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا)، ولذلك عقب به، ولم يذكر مفعول (يؤثرون) لدلالة قوله: (مِمَّا أُوتُوا) عليه.

وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ: (لو) تدل على تعليق جوابها بشرط يدلُّ على استقصاء الأحوال، والتقدير: لو كان بهم خصاصة لآثروا على أنفسهم، فيعلم أنَّ إيثارهم في الأحوال التي دون ذلك أحرى. كقوله: (فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ) [سورة آل عمران: ٩١].[2]

والجملة في موضع الحال، لبيان أنَّ هذا الإيثار ليس غنى عن المال، ولكنه عن حاجة وفقر.

والخصاصة الحاجة التي تختل بها الحال، من خصاص البيت، وهي الفُرَجُ والخُلل التي تكون فيه، وحال الفقير يتخللها النقص، فاستعير لها ذلك.[3] أو من الاختصاص وهو الانفراد بالأمر، فالخصاصة الانفراد بالحاجة.[4]

وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ: التذييل بذكر فضل من يوق شح أنفسهم بعد قوله: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) إشارة إلى أنَّ الإيثار في حال الخصاصة سببه السلامة من شحّ الأنفس، وفيه إشارة إلى أنَّ الأنصار قد اتصفوا بهذه الفضيلة.

وأضيف الشحُ إلى النفس؛ لأنَّه غريزة لا تسلم منها نفسٌ. لكن النفوس تتفاوت في مقداره، فإذا غلب عليها منع المعروف، فذلك مذموم، ويتفاوت ذمُّه

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج ٢٨ / ٨٣.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، -ج ٢٩ / ٢٥٠، واللباب، ج١٨/ ٥٩٢.

(٤) تفسير القرطبي، ج ١٨ / ٢٩.

بتفاوت ما يمنعه. فمن وُقي من أن يكون الشح المذموم خلقاً له، فقد سلم من كل مواقع ذمّه، وحاز من الفلاح بمقدار ما وُقِيَه.

واسم الإشارة (أولئك) عائدٌ إلى (مَنْ) باعتبار معناها العام الشامل للمذكورين شمولاً أوليَّاً؛ لتعظيم هذا الصنف من الناس.

والقصر بضمير الفصل؛ للمبالغة في بيان عظمة الفلاح المترتّب على الوقاية من شح النفس.(١)

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ

يجري على هذه الآية الخلاف الذي ذكر في عطف الجملة التي قبلها، فإن كانت الجملة مستأنفة ابتدائية غير معطوفة، كانت جملة (يقولون) خبر، وإن كانت معطوفة على (المهاجرين)، فجملة (يقولون) حال من ضمير (يحبون). ويجري على هذا الاختلاف خلافٌ في حكم الاشتراك في مال الفيء.(٢)

وَالَّذِينَ جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ: التعبير بالماضي في (جاءوا)؛ للتغليب، والمراد: الذين جاؤوا ويجيئون.(٣) وقد اختلف المفسرون في تعيين المراد على قولين:(٤)

الأول: أنَّهم الذين هاجروا إلى المدينة بعد المهاجرين الأوَّلين حين قوي الإسلام، وضمير (مِن بَعْدِهِمْ) يعود للمهاجرين.

والثاني: أنَّهم التابعون الذين جاءوا بعد الصحابة، ثم من بعدهم إلى قيام الساعة، وضمير (مِنْ بَعْدِهِمْ) عائد إلى مجموع الفريقين (المهاجرين والأنصار)، وهذا القول هو الراجح، وبذلك تكون هذه الآيات قد شملت جميع المسلمين أبد

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٢٩، والتحرير والتنوير، ج ٢٨ / ٨٥.

(٢) انظر: اللباب، ج١٨/ ٥٩٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج ٢٨ / ٨٦.

(٤) انظر: تفسير الطبري، ج٢٣/ ٢٨٧، والكشاف، ج٤/ ٥٠٥، وتفسير البيضاوي، ج٥/ ٣٢٠.

الدهر؛ لأنَّ المؤمنين إما المهاجرون أو الأنصار أو الذين جاءوا من بعدهم. ومما يدلُّ على رجحان هذا القول:

أ _ ما جاء في الحديث الصحيح: أنَّ النبي ﷺ خرج إلى المقبرة فقال: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ إِخْوَانَنَا)، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَسْنَا بِإِخْوَانِكَ؟ قَالَ: (بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ).[1] فقد بيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ إخوان المهاجرين والأنصار كل من يأتي بعدهم، وليس الذين هاجروا بعد ذلك.[2]

ب _ فهم عمر بن الخطاب ﷺ للآية، فقد روى البخاري عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: (قال عمر ﷺ لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلا قسمتها بين أهلها أي الفاتحين كما قسم النبي ﷺ خيبر.)[3]

وروِيَ أنَّ عمر بن الخطَّاب ﷺ تلا (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) إلى قوله: (رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) ثم قال: استوعبت هذه الآية المسلمين عامة.[4]

يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ: تحتمل وجهين:

الأول: أنَّهم يستغفرون لمن سبق هذه الأمة من مؤمني أهل الكتاب.

والثاني: يستغفرون لمن سبقهم من المهاجرين والانصار،[5] وهو الأرجح لدلالة السياق.

وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ: تدلُّ هذه الآية: على فضيلة الدعاء للمهاجرين والأنصار، وانطواء الضمائر على محبتهم وانتفاء البغض لهم. وفيها إشارة إلى أنَّ حقَّ المهاجرين والأنصار على المسلمين

---

(١) موطأ الإمام مالك، كتاب الطهارة، باب جامع الوضوء، رقم (٥٨)، ج١/ ٢٨.

(٢) تفسير القرطبي، ج ١٨ / ٣٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم (٣٩٩٥)، ج٤/ ١٥٤٨.

(٤) انظر: تفسير الطبري، ج٢٣/ ٢٧٦.

(٥) تفسير القرطبي، ج ١٨ / ٣٣.

بعدهم أن يعظِّموا شأنهم، وأن يذكروهم بالخير، أمَّا من ذكرهم بسوء كان خارجاً من جملة أقسام المؤمنين بحسب نص هذه الآية.(١)

الأساليب البلاغية:

١ ـ في قوله تعالى: (وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) مقابلة. وفيه أيضاً استعارة، استعير الإيتاء لتبليغ الأمر والشريعة إليهم، كإيتاء شيء بأيديهم، واستعير الأخذ أيضاً لقبول الأمر والعمل به.

٢ ـ في قوله تعالى: (تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ) استعارة مكنية بتشبيه الإيمان المستقر في نفوسهم بالمنزل، الذي ينزله فيه الإنسان ويتمكن منه. وفعل تبوؤوا مستعملٌ في حقيقته ومجازه، وهذا وفق أحد وجوه تأويل الآية.

٣ ـ في قوله تعالى: (أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)، وقوله: (فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) أسلوب قصر بتوسيط ضمير الفصل بين طرفي الجملة الاسميَّة، وهو قصر ادعائي؛ للمبالغة في وصفهم بالصدق الكامل، كأنَّ صدق غيرهم ليس صدقاً في جانب صدقهم. وللمبالغة في وصفهم بالفلاح، كأنَّ جنس الفلاح مختصٌّ بمن وُقِيَ الشحَّ، حتى كأنَّ لا أحد مفلحٌ غيرهم.

المعنى الإجمالي للآيات:

هذه الآيات تذكر حكم الله في الأموال التي خلَّفها بنو النضير وراءهم، وتبيّن للمسلمين أنَّ أحكامها تخالف أحكام الأموال التي حصلوا عليها في غزوة بدر، فأموال بني النَّضير لم يركبوا لتحصيلها خيلا ولا إبلاً، ولكن الله سلَّط رسوله على أعدائه، فاستسلموا بلا قتال. والله على كل شيء قدير لا يعجزه شيء.

ولذلك فإنَّ الفيء لا يوزَّع كالغنيمة التي أعطاهم الله أربعة أخماسها، واستبقى خمسها فقط لله والرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج ٢٩ / ٢٥٠، والتحرير والتنوير، ج ٢٨ / ٨٧.

السبيل، كما في غنائم بدر، بل الفيء كله لله ولرسوله. والرسول ﷺ هو الذي يتصرف فيه في مصالح المسلمين العامة، ويعطي منه لأقرباء النبيّ ﷺ، ولليتامى الفقراء الذين مات آباؤهم، ولذوي الحاجة، وللغريب المسافر الذي نَفِدت نفقته وانقطع عنه ماله، وقد حكم الله بذلك حتى لا يكون المال ملكًا متداولاً بين الأغنياء وحدهم، ويحرم منه الفقراء والمساكين. فاحرصوا على فعل ما يأمر به النبي ﷺ، وترك ما ينهى عنه، واتقوا الله المُطَّلع على السرائر والأعمال، وإليه المرجع للحساب، والله شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره ونهيه.

وكذلك يُعطى من المال الذي أفاءه الله على رسوله الفقراء المهاجرون، الذين اضطرهم كفار مكة إلى الخروج من ديارهم، ففارقوا الأوطان مُكرَهين تاركين ديارهم وأموالهم يطلبون من الله أن يتفضل عليهم بالرزق والرضوان في الدنيا والآخرة. ومع أنَّهم كانوا قليلون مستضعفون لكنهم نصروا دين الله ونصروا رسوله بقلوبهم التي أحبته، وبسيوفهم التي جاهدت في سبيل الله، أولئك الذين صدَّقوا قولهم بفعلهم هم الصادقون في الإيمان المخلصين لله بالأعمال.

ويعطَى من الفيء أيضاً الأنصار الذين استوطنوا المدينة، وآمنوا من قبل هجرة المهاجرين إلى ديارهم، الذين أثبتوا صدقهم في حبِّ المهاجرين، إذ كانوا يواسونهم بأموالهم بسخاء ورضى، ولا يخامر نفوسهم تشوُّف إلى أخذ شيء مما أوتيه المهاجرون من الفيء، ولا يجدون في قلوبهم حسدًا لهم مما أعطاه الرسول ﷺ لهم، بل كانوا يُقَدِّمون المهاجرين وذوي الحاجة على أنفسهم، ولو كان بهم حاجة وفقر، ومن سَلِم من البخل المعوِّق عن فعل كل خير، سارع إلى العطاء والبذل، وهذا هو الفوز في حقيقة معناه، ومن فعل ذلك فهو من الفائزين.

وفي مال الفيء نصيبٌ للمسلمين الذين آمنوا والذين يؤمنون من عهد التابعين إلى قيام الساعة؛ لأنَّ المؤمنين يجمعهم الإيمان من وراء فواصل الزمان والمكان، والجنس والوطن والعشيرة، ولذلك تجدهم يسألون الله المغفرة لأنفسهم ولأسلافهم الذين سبقوهم بالإيمان، ويطلبون من الله براءة القلب من الحسد

والأحقاد والغش للمؤمنين جميعاً، متطلّعين أن تشملهم جميعاً رحمة الله الرؤوف الرحيم.

الفوائد والأحكام:

أولاً: لا خلاف بين العلماء أن الآية الأولى: (وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ) خاصة بأموال بني النضير، وقد كانت خاصة برسول الله ﷺ، فأخذ منها النبيُّ ﷺ نفقة أهله لسنة، وصرف باقي المال بما رآه المصلحة، وأعطى المهاجرين، ولم يعطِ إلا ثلاثة رجالٍ من الأنصار لشدَّة حاجتهم. واستدلُّوا بالحديث الذي أخرجه البخاري عن عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: "كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، مِمَّا لَمْ يُوجِفْ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَتِهِ، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي السِّلَاحِ وَالْكُرَاعِ عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ."(١)

وقد اختلف العلماء في حكم أموال الفيء التي تكون بغير قتال، فقال جمهور العلماء: كل ما فتح الله على الأئمة مما لم يوجف عليه فهو فيء قياساً على فيء بيني النَّضير، فيكون للأئمة خاصة، يأخذ منه الإمام ما يشاء، ويصرف منه ما يشاء في مصالح المسلمين، من غير تخميس، لقوله تعالى: (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) وقالوا إنَّ الأصناف الأربعة الذين يصرف لهم الفيء تشملُ المهاجرين، والأنصار، ومن يأتي بعدهم من المسلمين.

واستدلُّوا بالحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: "أَيُّمَا قَرْيَةٍ أَتَيْتُمُوهَا وَأَقَمْتُمْ فِيهَا فَسَهْمُكُمْ فِيهَا، وَأَيُّمَا قَرْيَةٍ عَصَتِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ خُمُسَهَا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ثُمَّ هِيَ لَكُمْ."(٢) فقد بيَّن النبيُّ ﷺ حكم الأموال

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة الحشر، رقم (٤٦٠٣)، ج٤/ ١٨٥٢.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسيَر، باب حكم الفيء، رقم (٤٧)، ج٣/ ١٣٧٦.

التي لم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، بل جلا عنها أهلها، أو صالحوا عليها فجعل للمسلمين سهمهم فيها، أي: حقهم من العطايا كما بيَّنت آيات سورة الحشر، إذ عمت كل ذي حاجة من الفقراء وذوي القربى، واليتامى والمساكين وابن السبيل، والمراد بالقرية الثانية: ما أخذ عنوة بدليل قوله (عصتِ الله ورسوله)، فيكون غنيمة يخرج منه الخمس، وباقية للغانمين.

كما استدلوا بالحديث الذي أخرجه البخاري عن عمر بن الخطَّاب ﷺ أنَّه قال: (لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلا قسمتها بين أهلها _ أي الفاتحين - كما قسم النبي ﷺ خيبر.)[1] فقد فهم عمر بن الخطاب ﷺ أنَّ آيات الفيء في سورة الحشر تعمُّ المسلمين جميعاً حتى آخر الزمان، ولذلك لم يرى قسمتها على الفاتحين حفظاً لحقِّ المسلمين.

ولذلك ذهب المالكيَّة والحنفيَّة إلى التفصيل في أموال الغنائم بين الأموال المنقولة والعقارات، فقالوا بتخميس الأموال المنقولة، وتخيير الإمام في التصرُّف بالعقارات بما يراه أصلح إن شاء قسمها كالغنائم، وإن شاء جعلها وقفاً على مصالح المسلمين، كما فعل عمر بن الخطاب ﷺ في أراضي العراق ومصر، وبذلك تكون آية الحشر عندهم مخصِّصة لآية الأنفال.

وذهب الشافعية والحنابلة: إلى تخميس جميع أموال الحرب، وحمل آية الحشر على حكم آية الأنفال بالتخصيص. فقالوا: ما حصل من أموال الكفار بغير قتال يقسم على خمسة أسهم، أربعة منها للنبي ﷺ، والخمس الباقي على خمسة أسهم: سهم لرسول الله ﷺ أيضاً، وسهم لذوي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل. وما حصل بقتال، فخمسه للنبي ﷺ، وذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والأخماس الأربعة الباقية

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم (٣٩٩٥)، ج٤/ ١٥٤٨.

للغانمين.[1] وبعد وفاة النبيِّ ﷺ يصرف سهمه في سدِّ الثغور، وإصلاح البلاد، ومصالح المسلمين عامَّةً

ثانياً: بيَّن الله تعالى أنَّ علة قسمة الفيء على النحو المذكور في الآية هي جعل المال متداولاً بين جميع الناس، لئلا يختص به الأغنياء، كما كانوا يستأثرون بالغنيمة، وبذلك قضى الإسلام على الطبقية وتجمع الثروة في يد فئة قليلة، وحرمان الأكثرية من سيولة المال.[2] وهذا يدلُّ على أنَّ من مقاصد الشريعة أن يكون المال الذي لا يجري عليه ملك أحدٍ؛ كالفيء، والموات، ومال الميراث، وما ألقاه البحر، متداولاً بين أفراد الأمة الإسلامية على نظام محكم في انتقاله.[3]

ثالثاً: يدلُّ قوله تعالى: (وَالَّذِينَ جاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ) على وجوب محبة الصحابة رضي الله عنهم، لأنَّ الله تعالى جعل لمن بعدهم حظّاً في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم. ومن أبغضهم أو سبّهم، أو أبغض واحداً منهم، أو اعتقد فيه شرًّا، فلا حقَّ له في الفيء.[4] وقد رويَ عن الإمام مالك رحمه الله أنَّه قال: من كان يبغض أحداً من أصحاب محمد ﷺ أو كان قلبه عليه غل فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ (وَالَّذِينَ جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ).

كما تدلُّ الآية على أنَّ المؤمنين مأمورون بالاستغفار للمهاجرين والأنصار، وأن يذكروا محاسن أصحاب رسول اللّه ﷺ حتى تألف عليهم القلوب، وألا يذكروا ما شجر بينهم من الخلاف، لئلا يتجسّر الناس عليهم.

أما من يلعن بعض الصحابة فهو فاسق بعيد عن أدب الإسلام وأخلاقه،

---

(١) انظر: تفسير القرطبي، ج١٨/ ١٢.

(٢) انظر: التفسير المنير، ج٢٨/ ٨٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ٧٦.

(٤) انظر: اللباب، ج ١٨ / ٥٩٦.

وروح الدين وصفائه، متنكر لأهل الفضل والسبق، فإنَّ القرآن الكريم أمر بالاستغفار للصحابة، ونهى عن الحقد والحسد لجميع المؤمنين والمؤمنات.[1] وبذلك يتبيَّنُ أنَّ شأن الأمة الإسلاميَّة أن ترتبط أولها بآخرها برباط المحبَّة والتعاطف، فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بالحبِّ والخير والدعاء بعد القرون المتطاولة، وبالمقابل يحفظ السلف حقِّ الخلف من مال الفيء والغنائم، وقد ثبت أنَّ الصحابة حفظوا حقَّ المسلمين المتأخِّرين من أموال الفيء والغنائم إلى آخر الزمان، ومن حقِّهم أن يذكرهم المؤمنون بالخير إلى قيام الساعة.

جامعة حلب ١٩٥٨ UNIVERSITY OF ALEPPO

(١) انظر: التفسير المنير، ج٢٨/ ٩٢.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧)

[سورة الحشر: ١١ – ١٧]

مناسبة الآيات لما قبلها:

في الآيات السابقة أثنى الله على المؤمنين الصادقين الذين برهنوا على صدق إيمانهم بالهجرة والإيثار والاجتهاد في الدعاء، وفي هذه الآيات أخرج المنافقين من عداد المؤمنين؛ لأنَّهم لم يأتوا بأفعال تؤكِّد صدق إيمانهم كما فعل المهاجرون والأنصار، بسبب عدم رسوخهم في الإيمان الحامل على تحمل المشاق في سبيل الله.(١)

وفي الآيات السابقة ذكر الله مصير يهود بني النضير، وحكم الأموال التي

(١) انظر: نظم الدرر، ج ٧/ ٥٢٨.

تركوها، وفي هذه الآيات ذكر اللّه تعالى العلاقات المشبوهة بين المنافقين واليهود، فقد كان المنافقون في الظاهر من الأنصار، ولكنهم كانوا يوالون اليهود في السر، ويشاركونهم في معاداة المؤمنين.(١)

أسباب النزول:

ذكر السيوطي أنَّ الآية: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ...) نزلت في عبد اللّه بن أبي بن أبي سلول، ورفاعة بن زيد، وعبد اللّه بن نبتل وقوم من منافقي أهل المدينة، وجماعة ممن أسلم من بني قريظة بعثوا إلى بني النضير: (أن اثبتوا وتمنعوا فإنَّا لا نُسلِّمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم) فتربَّصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا، فأنزل الله الآية.(٢)

معاني المفردات:

أَلَمْ تَرَ: هل تعلم أخبارهم.

نافَقُوا: أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر.

لَنَنْصُرَنَّكُمْ: لنعاوننكم، والنصر يطلق على المعاونة على المُعادي.

لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ: سوف يهربون منهزمين.

رَهْبَةً: خوفاً.

لا يَفْقَهُونَ: لا يدركون الحقائق الخفية. والفقه إدراك الأشياء الدقيقة، وفهم ما يحتاج إلى إعمال فكر.

قُرًى مُحَصَّنَةٍ: ممنوعة ممن يريد أخذها بأسوار أو خنادق.

جُدُرٍ: الأسوار والحيطان، جمع جدار.

---

(١) انظر: التفسير المنير، ج ٢٨/ ٩٦.

(٢) انظر: الدر المنثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط/ ١٩٩٣، ج٨/ ١١٥، ولباب النقول في أسباب النزول، ص ٢١٠.

بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ: عَدَاوَتُهُمْ وحربهم بعضهم لبعض.

تَحْسَبُهُمْ: تظنُّهم.

وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى: متفرقة مختلفة.

وَبَالَ أَمْرِهِمْ: سُوءَ عَاقِبَةِ كُفْرِهِمْ. وأصل الوبال: وخامة المرعى المستلذ به للماشية، يقال: كلأ وبيل، أي أخضر تهش إليه الإبل، فإذا أكلت منه مرضت.

القراءات والإعراب:

يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ: جملة(يقولون) حال من الذين.

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: الجار متعلق بحال من الواو في (كفروا)

لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ: الجملة مقول القول في محل نصب، واللام موطئة للقسم.

وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ: لَنَنْصُرَنَّكُمْ: جملة جواب القسم المقدَّر؛ لأنَّ قبل (إن) لام موطئة، حذفت للعلم بمكانها.

لا يَخْرُجُونَ ... لا يَنْصُرُونَهُمْ: جملة جواب القسم، ولذلك رفعت الأفعال ولم تجزم، وحذف جواب الشرط لدلالة جواب القسم عليه.

لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ: اللام للابتداء، (رهبةً) تمييز، والجار نعت لرهبة.

لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا: جملة مستأنفة، و(جميعاً)حال من فاعل يقاتلون.

مِنْ وَراءِ جُدُرٍ: الجار متعلِّقٌ بـ (يُقَاتِلُونَكُمْ)، وقرأ جمهور القرَّاء (جُدُرٍ) بضمتين جمع جدار، وقرأه ابن كثيروأبو عمرو (جدار) على الإفراد، والمراد الجنس.[1]

بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ: جملة مستأنفة، (بَيْنَهُمْ) متعلق بـ (شديد)

تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً: جملة مستأنفة، (جميعاً) مفعول ثانٍ، أي: مجتمعين.

وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى: الجملة حال من ضمير (تحسبهم)، أو مستأنفة (مبتدأ وخبر).

كَمَثَلِ الَّذِينَ: الجار متعلق بخبر محذوف لمبتدأ محذوف أي: مثلهم مثل هؤلاء.

---

(١) النشر، ج٢/ ٤٢٦.

قَرِيبًا: ظرف زمان متعلق بصلة (الذين)، والتقدير: الكائنين قبلهم في زمن قريب، أو: متعلق بـ (ذاقوا)، أي: ذاقوا في زمن قريب.

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ: الجار متعلق بخبر لمبتدأ محذوف أي: مثلهم مثل الشيطان.

إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ: جملة مقول القول في محل نصب.

فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ: جملة (فكان) مستأنفة، (عاقِبَتَهُما) منصوب خبر كان، وجملة (أَنَّهُمَا فِي النَّارِ) في موضع رفع اسم (كان).

خَالِدَيْنِ فِيهَا: حال منصوب من الضمير المستتر في خبر (أَنَّهُمَا) المحذوف، وتقديره: كائنان في النار خالدين فيها. وجملة (ذلك جزاء) مستأنفة.(١)

الأساليب اللغويَّة:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا: الاستفهام للتعجيب من اغترار اليهود بما وعدهم المنافقون من النصر، مع علمهم بأنَّ المنافقين لا يعتقدون ديناً ولا كتاباً.(٢) والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد ممن يعقل هذا الخطاب.(٣)

ومعنى نافقوا: أظهروا خلاف ما أضمروا، والنفاق مصطلح إسلامي لم تكن العرب تعرفه قبله، وهو استعارة من فعل الضب في نافقائه (جحره) وقاصعائه (ما يسدُّ به نقوب جحره).(٤)

---

(١) انظر: مشكل إعراب القرآن، مكيّ بن أبي طالب القيسي (٤٣٧هـ)، تح: ياسين محمد السوَّاس، دار المأمون للتراث، ج٢/ ٣٦٧ –٣٦٨. والبحر المحيط، ج٨/ ٢٤٧ –٢٤٨.

(٢) انظر: تفسير القرطبي، ج١٨/ ٣٤.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود، ج ٨ / ٢٣٠.

(٤) انظر: نظم الدرر، ج ٧ / ٥٢٩.

والمخبر عنهم هنا هم فريق من الخزرج من المنافقين، منهم: عبد الله بن أبي بن سلول، وعبد الله بن نبتل، ورفاعة بن زيد، بعثوا إلى بني النضير حين حاصرهم جيش المسلمين يقولون لهم: أثبتوا في حصونكم، فإنَّا لا نُسلِّمكم.

يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: جملة استئنافيَّة لبيان المتعجب منه. وصيغة المضارع في (يَقُولُونَ)؛ للدلالة على استمرارا قولهم، وتكرر ذلك منهم على سبيل التأكيد، لا على سبيل الخاطر المعدول عنه، أو لاستحضار صورته.(١)

واللام في قوله: (لإخوانهم)، للتبليغ، والمراد بإخوانهم بنو النضير.

وإنَّما وصفهم بالإخوة لهم؛ بسبب توافقهم في الكفر بمحمد ﷺ، أو بسبب صداقتهم وموالاتهم، أو بسبب ما بينهما من الاشتراك في عداوة النبيِّ ﷺ.(٢)

وفي وصف إخوانهم بـ (الَّذِينَ كَفَرُوا) إيماءٌ إلى أنَّ جانب الأخوة بينهم هو الكفر.(٣)

لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ: اللام في قوله: (لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ) موطئة للقسم، أي: قالوا لهم حالفين ومؤكِّدين وعودهم بالقسم: لئن أخرجتم من دياركم ومنازلكم قسراً، لنخرجن معكم تاركين ديارنا؛ مواساة لكم. وإنَّما وعدوهم بالخروج معهم؛ ليطمئنوا لنصرتهم. وإلا فإنَّهم لا يرضون أن يفارقوا بلادهم.(٤)

وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً: أي: لا نطيع أحداً يأمرنا بقتالكم أو خذلانكم، ويطلب إلينا ترك نصرتكم. وهذه الحال على سبيل التقدير وفرض؛ لأنَّ دعوتهم إلى خذلان اليهود مما لا يمكن صدوره عن رسول الله ﷺ حتى يدَّعوا عدم طاعتهم

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، ج ٨ / ٢٣٠.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج ٢٩ / ٢٥١.
(٣) التحرير والتنوير، ج ٢٨ / ٨٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج ٢٨ / ٨٩.

فيها، لأنَّها لو حصلت فإنَّها ستكون عند إظهار كفرهم، ولا شكَّ في أنَّ ما يفعله النبيُّ ﷺ عند ذلك هو أن يقتلهم، لا أن يدعوهم إلى ترك نصرتهم. وأما الخروج معهم فليس بهذه المرتبة من إظهار الكفر، فقد يزعمون أنَّ خروجهم معهم لما بينهم من الصداقة الدنيوية، لا للموافقة في الدين.(١)

وهذه الجملة معطوفة على جملة (لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ) فهي من المقول لا من المقسم عليه، وقد خلت هذه الجملة من المؤكِّدات؛ لأنَّ بني النضير يعلمون أنَّ المنافقين لا يطيعون الرسول ﷺ والمسلمين، فكان المنافقون في غنية عن تأكيد هذا الخبر بأدوات التأكيد.

ومعنى (فيكم) في شأن إيذائكم، وإيصال الضرِّ إليكم، ويعرف هذا بقرينة المقام، إذ لا يخطر بالبال أنَّهم لا يطيعون من يدعوهم إلى موالاة إخوانهم.(٢)

وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ: إن قاتلكم المسلمون سنكون عوناً لكم على أعدائكم.

وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ: قد أعلم الله رسوله ﷺ بأنَّهم كاذبون في وعودهم المؤكدة بالأيمان الكاذبة؛ لعلمه بأنَّ نيتهم ألا يفوا بما وعدوا به، أو لعلمه أنَّهم لا يقع منهم ما قالوا.(٣)

وسمى الخبر شهادة؛ لأنَّه خبر عن يقين فهو بمنزلة الشهادة التي لا يشكُّ المخبر في شأنها، وفي ذلك تطمين للنبيِّ ﷺ؛ لئلا يتوجس من بأس المنافقين.(٤)

لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ

لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ: هذه الجملة فيها

(١) انظر: تفسير أبي السعود، ج٨/ ٣٢٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج ٢٨ / ٨٩.
(٣) انظر: التفسير المنير، ج٢٨/ ٩٦.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج ٢٨ / ٨٩.

تكذيب للمنافقين في كل واحد من أقوالهم على التفصيل، بعد تكذيبهم في الكل على الإجمال في قوله: (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ). وقد سلك في هذا البيان طريق الإطناب بعد الإجمال؛ لزيادة تقرير كذبهم.(١)

واللام موطئة للقسم، وهذا تأكيد من الله تعالى لرسوله ﷺ أنهم لن يضروه شيئاً؛ لكيلا يعبأ بما بلغه من مقالتهم.

وضميرا (أخرجوا) و(قوتلوا) يعودان إلى (الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) الذين لم يخرجوا ولما يقاتلوا وهم قريظة وخيبر، أما بنو النضير فقد أخرجوا قبل نزول هذه السورة، فهم غير معنيين بهذا الخبر المستقبل. والمعنى: لئن أخرج بقية اليهود في المستقبل لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم.(٢)

وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ: جاءت هذه الجملة بعد الإخبار بأنَّ المنافقين لا ينصرون اليهود؛ لاستقصاء جميع الاحتمالات الممكنة، على سبيل الفرض والتقدير، والارتقاء في تكذيبهم على ما وعدوا به إخوانهم.

والمعنى لو فُرِضَ أنَّ المنافين نصروا اليهود مكرَهين، فسوف ينهزم المنافقون ويلوذون بالفرار ثم لا يُنصرون بعد ذلك؛ لأنَّهم سيُهلكون بعد ظهور كفرهم، ولن ينفعهم نفاقهم، أو سوف ينهزم اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين لهم.(٣)

والمقصود تثبيت رسول الله ﷺ والمسلمين، وتأمينهم من بأس المنافقين؛ حتى لا يرهبوهم ولا يخشوا مساندتهم لأعداء المسلمين.(٤)

لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ

في هذه الآية أخبر الله المؤمنين بأنَّ الكفَّار يخشونهم خشية شديدة وصفت

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، ج٨/ ٣٢١، والتحرير والتنوير، ج٢٨/ ٩٠.

(٢) انظر: روح المعاني، ج٢٨/ ٥٧، والتحرير والتنوير، ج٢٨/ ٩٠.

(٣) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٦، ومفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥١، وتفسير أبي السعود، ج٨ / ٢٣١.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ٩٠.

شدتها بأنَّها أشد من خشيتهم الله، فإنَّ خشية جميع الخلق من الله أعظم خشية، فإذا بلغت الخشية في قلب أحد أن تكون أعظم من خشية الله فذلك منتهى الخشية. والقصد من هذا الإعلام: تثبيت المسلمين؛ ليعلموا أن عدوهم يخاف منهم، فيزدادوا إقداماً في محاربتهم؛ إذ ليس سياق الكلام للتسجيل على المنافقين واليهود قلة رهبتهم من الله، بل المقصود إعلام المسلمين بأنَّهم أرهب عندهم من أعظم الرهبات.(١)

لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ: الخطاب للنبي ﷺ ومن معه من المسلمين. والرهبة: مصدر بمعنى اسم المفعول، أي: أنتم مرهوبون.

والصدور يراد بها: النفوس والضمائر. وجعلُ الصدورِ مقراً للرهبة دليل على تمكُّنها منهم، بحيث صارت صدورهم مقراً لها.

والضمير في (صُدُورُهُمْ). يحتمل أن يعود إلى (الَّذِينَ نَافَقُوا). وقوله: (فِي صُدُورِهِمْ) دلالة على نفاقهم، فهم يظهرون في العلانية رهبة شديدة من الله، لكنهم يخافون المؤمنين في سرهم أشدّ من خشيتهم الله التي يظهرونها للمؤمنين.

ويحتمل أن يعود ضمير (صُدُورُهُم) إلى (الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ). والمعنى: أنَّ اليهود يخافون المؤمنين في صدورهم أشدّ من خوفهم من الله؛ لكنهم كانوا يتشجعون أمام المؤمنين، مع إضمار الخشية منهم في صدورهم.(٢)

ووجه وصف الرهبة بأنَّها في صدورهم الإشارة إلى أنَّها رهبة خفية جداً، لأنَّهم يتظاهرون بالاستعداد لحرب المسلمين ويتطاولون بالشجاعة؛ ليرهبهم المسلمون، وما هم بتلك المنزلة من الشجاعة والبأس، فأطلع الله رسوله ﷺ على ضمائرهم.

والصحيح أنَّ ضمير (صدورهم) عائد إلى المنافقين، واليهود؛ إذ ليس أحد

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨ / ٩١.

(٢) انظر: الكشاف، ج ٤ / ٥٠٦.

الفريقين أولى بعود الضمير إليه مع صلاحية الضمير لكليهما، ولأنَّ المقصودين بالقتال هم اليهود، والمنافقون أعوانٌ لهم.[1] وفي هذا بشارة للنبي ﷺ والمسلمين بأنَّ الله أوقع الرعب منهم في قلوب أعدائهم.

وفي الآية إخبارٌ أنَّ اليهود والمنافقون من شأنهم أن يخشوا الله: أمَّا اليهود فلأنَّهم أهل دين فهم يخافون الله ويحذرون عقاب الدنيا والآخرة. وأمَّا المنافقون فهم مشركون يعترفون بأنَّ الله هو الإله الأعظم، وأنَّه أولى الموجودات بأن يخشى؛ لأنَّه رب الجميع، لكنهم لا يُثبتون البعث، فخشيتهم الله قاصرة على خشية عذاب الدنيا من خسف وقحط واستئصال ونحوذلك.

مِنَ اللَّهِ: الكلام على حذف مضاف، أي من رهبة الله، أو من رهبتهم الله.

وقد نُظِمت الآية نظماً بديعاً يخالف المألوف من كلام العرب؛ فإنَّ المألوف في أداء هذا المعنى أن يقال: لرهبتهم منكم في صدورهم أشد من رهبتهم من الله. لكنه عدل عن النظم المألوف إلى النظم الذي نسج عليه الآية؛ لأسباب، منها:

أ _ ليتأتى الابتداء بضمير المسلمين، اهتماماً بهم.

ب _ ليكون متعلق الرهبة ذوات المسلمين، بالنظر إلى توقع بطشهم.

ج - ليأتي التمييز (رهبةً) بصيغة المصدر لما فيه من الإجمال مع التفصيل.

د _ ليتأتى حذف المضاف في تركيب (مِنَ اللَّهِ)، إذ التقدير: من رهبة الله، والمضاف لا يحسن حذفه إلا إذا كان موقعه متصلاً بلفظ (رهبة)، إذ لا يحسن أن يقال: لرهبتهم أشد من الله.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ: الإشارة بـ (ذلك) إلى مضمون قوله: (لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ)، وجاء باسم الإشارة ليتميز المشارُ إليه؛ لغرابته.

وإقحامُ لفظ (قوم)؛ للإيذان بأنَّ عدم فقه أنفسهم أمر عُرفوا به جميعاً

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨ / ٩١.

وصار من مقومات قوميَّتهم، ولا يخلو عنه أحدٌ منهم.[1]

والباء للسببية والمجرور خبر عن اسم الإشارة، أي سبب خوفهم من المؤمنين أكثر مما يخافون الله هو انتفاء فقه نفوسهم، وقلَّة إدراكهم، ولو فقهوا لخافوا الله أشد من خشيتهم الناس، لكنهم لا يعلمون عظمة الله حتى يخشوه حق خشيته، ولا يعلمون أنَّه الحقيق بأن يخشى.[2] لأنَّهم يتوقعون من المؤمنين عاجل شرهم، ولا يتوقعون عذاب الله؛ لعدم إيمانهم، وقلة إدراكهم.[3]

لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ

هذه الجملة بدل اشتمال من جملة (لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ)؛ لأنَّ شدة الرهبة من المسلمين تشتمل على شدة التحصن لقتالهم، أي: كلهم لا يقدرون على قتالكم مجتمعين إلا إذا كانوا في قرى محصنة بالأسوار والخنادق، أو من وراء الحيطان من غير أن يخرجوا إليكم.[4]

لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ: الضمير المرفوع في (يقاتلونكم) عائد إلى (الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ).

وقوله: (**جميعاً**) يحتمل أن يكون بمعنى كلهم؛ لشمول اليهود والمنافقون، أي: اليهود والمنافقون لا يقدرون على التحالف من أجل قتال المسلمين مجتمعين متفقين كلهم، بل يقاتلونهم وهم محاصرون في قراهم؛ دفاعاً عن أنفسهم.

ويحتمل أن يكون بمعنى مجتمعين. والمراد اليهود، أي: إنَّ اليهود من شدَّة جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة المسلمين بالمبارزة والمقاتلة في الصحراء،

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨ / ٩٣.

(٢) انظر: الكشاف، ج ٤ / ٥٠٦، ومفاتيح الغيب، ج ٢٩ / ٢٥٢، وتفسير البيضاوي، ج ٥ / ٣٢١.

(٣) انظر: تفسير البحر المحيط، ج ٨ / ٢٤٧، وتفسير القرطبي، ج ١٨ / ٣٥.

(٤) التحرير والتنوير، ج ٢٨ / ٩٣.

كما هو شأن الجيوش، ولكن يقاتلون قتال دفاع في قراهم. وإن هاجمتموهم لا يبرزون إليكم، ولكنهم يقاتلونكم في قرى محصنة أو من وراء الأسوار؛ لظنّهم أنَّها تمنعهم منكم. وهذا كناية عن مصيرهم إلى الهزيمة. وعلى هذا الاحتمال يكون النفي متجهاً إلى هذا القيد. أي: لا يجتمعون على قتالكم اجتماع الجيوش.

وكلا الاحتمالين يفيد أنَّهم لا يقاتلون إلا متفرقين كل فريق في قريتهم.(١)

بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ

هذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانيَّاً، في جواب سؤال مقدَّر؛ لأنَّ الإخبار عن أهل الكتاب وأنصارهم بأنَّهم يرهبون المسلمين ولا يقاتلونهم إلا في قرى محصنة، يثير في نفس السامع أن يسأل عن موجب ذلك، فأجيب: أنَّ ما ذكر من رهبتهم ليس لضعفهم وجبنهم في أنفسهم، فإنَّ بأسهم على أقرانهم شديد، وإنَّما جبنهم بالنسبة إليكم بما قُذِف في قلوبهم من الرعب، ولذلك لا يتفقون على قتال المسلمين، مع أنَّهم متفقون على عداوتهم.(٢)

بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ: في تفسيره ثلاثة أقوال:(٣)

الأول: قال جمهور المفسِّرين: البأس الشديد الذي يوصفون به إنَّما هو بينهم إذا اقتتلوا؛ ولو قاتلوا المؤمنين لم يبق لهم ذلك البأس؛ لأنَّ الشجاع يجبن، والعزيز يُذلُّ عند محاربة الله ورسوله ﷺ، فما في بأسهم من إضرار بالمسلمين.(٤)

الثاني: قال مجاهد بن جبر: أنَّهم إذا اجتمعوا يقولون: لنفعلن كذا وكذا، فهم يهددون المؤمنين ببأس شديد من وراء الحصون، ثم يحترزون عن الخروج للقتال، فبأسهم فيما بينهم شديد، لا فيما بينهم وبين المؤمنين.

---

(١) انظر: النكت والعيون، ج٥/٥٠٨، والتحرير والتنوير، ج٢٨/٩٣، والتفسير المنير، ج٢٨/٩٨.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٣١، والتحرير والتنوير، ج٢٨/٩٤.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ج ٢٩ / ٢٥٢.

(٤) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٦، والبحر المحيط، ج٨/ ٢٤٧ –٢٤٨.

الثالث: قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه عداوة بعضهم بعضاً شديدة، وهم أفظاظ في التعامل فيما بينهم، كما قال تعالى: (وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) [سورة الأنعام: ٦٥]، ولذلك قال بعده: (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى).(١)

وقد افتتحت الجملة بـ (بأسهم)؛ للاهتمام بالإخبار عنه بأنَّه (بينهم)، أي في محيطهم، وهو متسلط من بعضهم على بعض، وليس متسلِّطاً على المسلمين.(٢)

تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى: الخطاب لغير معين، والجملة استئناف بياني عن جملة (بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ) جوابٌ عن سؤال مقدَّر: كيف ذلك ونحن نراهم متفقين؟ فأجيب بأنَّ ظاهر حالهم الاجتماع على عداوة أهل الحق، لكنهم في الواقع مختلفون، وبينهم عداوات شديدة، ولذلك لا يتفقون على حرب المسلمين. وفي هذا تشجيع للمؤمنين على قتالهم والاستخفاف بجماعتهم.(٣)

والقلوب: العقول والأفكار، شبهت العقول المختلفة مقاصدها بالجماعات المتفرقين في جهات متعدِّدة؛ لأنَّها لا يمكن أن تتلاقى على شيء واحد. (٤)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ: الإشارة بـ (ذلك) إلى ما ذكر من تشتت قلوبهم والباء للسببيَّة، والمقصود الإشارة إلى أنَّ موجب ذلك الشتات هو انتفاء عقولهم.

أ _ فهم لا يدركون أنَّ تشتت القلوب مما يوهن قواهم ويعين عليهم.(٥)

ب _ أو لا يعرفون الحق، فهم مشرَّدون في طرُق الضلال وقلوبهم مشتتة حسب تشتت طرقه وتفرُّق فنونه.(٦)

---

(١) انظر: تفسير الخازن، ج٧/ ٦٦، وتفسير ابن كثير، ج٤/ ٤٠٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/٩٤.

(٣) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٧، ومفاتيح الغيب، ج ٢٩ / ٢٥٢، والبحر المحيط، ج٨/ ٢٤٨.

(٤) التحرير والتنوير، ج٢٨/ ٩٥.

(٥) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٧، ومفاتيح الغيب، ج ٢٩ / ٢٥٢، والبحر المحيط، ج٨/ ٢٤٨.

(٦) انظر تفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٣١.

ج ـ أو لا يدركون ما فيه مصلحة جماعتهم؛ إذ أهملوا النظر في عواقب الأمور، فأضاعوا مصالح قومهم، وذلك جعلهم سواء مع من لا عقول لهم.(١)

وإسناد الحكم إلى عنوان قوم يؤذن بأنَّ ذلك الحكم من الخصائص المقومة لقوميَّتهم، لا يخلوا عنه أحدٌ منهم، وإيماءٌ إلى الضرر اللاحق بمصالح قومهم.

وأوثر هنا (لا يَعْقِلُونَ)، وفي الآية السابقة (لا يَفْقَهُونَ)؛ لأنَّ معرفة أنَّ وهن الأمَّة مُسبَّبٌ عن تشتت الرأي أمر ظاهر يدرك بأدنى تعقُّل، وليس من الأمور الخفيَّة.(٢)

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

هذه الجملة خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره: مَثل المذكورين من يهود بني النَّضير في حلول العذاب كمثل ما حلَّ بالذين من قبلهم، في زمن قريب.

واختلف المفسرون في تعيين المراد بـ (الذين من قبلهم) على أقوال، منها:

الأول: هم بنو قينقاع؛ لأنَّ النبي ﷺ أجلاهم عن المدينة قبل بني النضير.

الثاني: كفَّار قريش الذين غُلِبوا في بدر، فإنَّهم قبلهم ومَثَلٌ لهم في الهزيمة.(٣)

الثالث: الضمير في (مِن قَبْلِهِم) للمنافقين، و(الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم) منافقو الأمم الماضية، وذلك أنَّهم غُلِبوا ونالتهم الذلة على وجه الدهر، فهم مَثَلٌ لهؤلاء. ويضعف هذا التأويل الظرف (قَرِيبًا) إن جعلته متعلقاً بما قبله. وإن جعلته معمولاً لذاقوا، أي: ذاقوا وبال أمرهم قريباً، فهو مقبول.(٤)

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج ٢٩ / ٢٥٢، والتحرير والتنوير، ج٢٨/ ٩٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ٩٥.

(٣) انظر: تفسير الطبري، ج٢٣/ ٢٩٣، والمحرَّر الوجيز، ج٥/ ٢٦٤، ومفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٢، وتفسير أبي السعود، ٨/ ٢٣١.

(٤) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٧، والمحرر الوجيز، ج ٥ / ٢٦٤، والبحر المحيط، ج٨/ ٢٤٨، وتفسير البيضاوي، ج٥/ ٣٢٢.

الرابع: هو عام في الهالكين من كفَّار الأمم المتقدمة، قبل بني النَّضير من عهد آدم عليه السلام إلى عهد النبيِّ محمد ﷺ.(١)

وهذا القول أرجح الأقوال، وهو الذي رجَّحه الإمام الطبري، ووجه رجحانه: أنَّ الله مثَّل حال ما ذاق كفار بني النضير من العذاب بحال الذين من قبلهم من مكذّبي رسله، وهذا يشمل ما كان من أمر بني قينقاع ووقعة بدر، فإنَّهما كانا قبل جلاء بني النضير، وكلّ أولئك قد ذاقوا وبال أمرهم، ولم يخصِّص الله بعضهم في تمثيل حال بني النضير؛ لأجل التعميم، فكلّ من ذاق وبال أمره ممن كانوا قبلهم، يشاركونهم في وجه المثل.(٢)

وذكر ابن عاشور أنَّ المراد بالآية: أهل الكتاب الموعودون بنصر المنافقين، والمراد تمثيل حالهم من التظاهر بالبأس مع إضمار الخوف من المسلمين، ومن التفرق فيما بينهم، ومن خذلان المنافقين إياهم عند الحاجة، بحال بني النضير الذين كانوا قبلهم في زمن قريب، فإنَّهم أظهروا الاستعداد للحرب، ثم اضطروا إلى الجلاء ولم ينفعهم المنافقون.(٣)

وسياق الآية وقوله: (من قبلهم) لا يشهدان لهذا الرأي. والله أعلم.

ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ: أي نالهم عذاب الله في الدنيا، جزاء كفرهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ. ومعنى أمرهم: شأنهم وما دبروه من محاربة النبيِّ ﷺ.

وفي الآية يشبِّه الله إقدام اليهود على حرب المسلمين مع الجهل بعاقبة تلك الحرب، بإبل ترامت على مرعى وبيل، فأكلت منه، فمرضت، وهلكت.

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: ضمير (وَلَهُمْ) عائد إلى (الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أي: لهم في

---

(١) انظر: تفسير القرطبي، ج١٨/ ٣٦، والتفسير المنير، ج٢٨/ ٩٦.

(٢) انظر: تفسير الطبري، ج ٢٣ / ٢٩٤.

(٣) التحرير والتنوير، ج ٢٨ / ٩٦.

الآخرة عذاب موجِعٌ مع ما نالهم في الدنيا من الخزي والهزيمة، ومشقَّة الجلاء.[1]

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ.

الجملة خبر ثان لمبتدأ محذوف، والتقدير: مثل المنافقين الذين أغووا يهود بني النضير ثم خذلوهم، كمثل الشيطان، فإنَّه يغوي ابن آدم ثم يتبرأ منه.

وفي النظم إجمال؛ حيث أسند كل من الخبرين إلى فريقين من غير تعيين ما أسند إليه بخصوصه؛ ثقة بأنَّ السامع يرد كلاً من المثلين إلى ما يماثله. كأنَّه قيل: مثل اليهود في حلول العذاب بهم (كمثل الذين من قبلهم)، ومثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال وعدم الخروج، ثم إخلاف الوعود بأن ينصروهم، كمثل الشيطان إذ يوسوس للإنسان بأن يكفر ثم يتبرأ منه يوم القيامة.[2]

والمراد إما عموم ما يكون من دعوة الشيطانِ الإنسان إلى الكفر، حيث يورطه في المعصية ثم يتبرأ منه. وبذلك يكون التعريف في الشيطان والإنسان تعريف الجنس، والمراد الإنسان الكافر. وهو الأرجح.

أو: المراد الشيطان الذي أغوى كفار قريش يوم بدر بقوله: (لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ)[3] وهذا على سبيل التمثيل للعموم المذكور آنفاً.

قال تعالى: (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [سورة الأنفال:٤٨]

وفي الآية إيجاز حذف، بحذف معطوفات مقدرة بعد الشرط (لمَّا)،

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٢، والتحرير والتنوير، ج٢٨/ ٩٦.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٣٢.

(٣) انظر: الكشاف، ج ٤ /٥٠٧، ومفاتيح الغيب، ج ٢٩ /٢٥٣، وتفسير البيضاوي، ج ٥ /٣٢٢.

والتقدير: إذ قال للإنسان في الدنيا اكفر، فلما كفر واستمر على الكفر وجاء يوم الحشر واعتذر بأن الشيطان أضلَّه، قال الشيطان: (إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ). وهذه المُقدَّرات مأخوذة من آيات أخرى مثل: (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ) [سورة ق: ٢٧]. وهذه المحاجَّة لا تقع إلا يوم الجزاء، بعد موت الكافر على الكفر من غير أن يسلم. فالشيطان يدعو الإنسان إلى الكفر بقوله: (اكْفُرْ) في الدنيا، أمَّا التبرؤ فيكون بالآخرة كما قال تعالى: (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ) [سورة إبراهيم: ٢٢].

فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا: هذه الجملة من تمام المثل، أي كان عاقبة الممثل بهما خسرانهما معاً، وكذلك تكون عاقبة اليهود والمنافقين.

وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ: تذييل، والإشارة بـ (ذلك) إلى عاقبة السوء التي يدل عليها قوله تعالى: (فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ). أي فكانت عاقبة الكافر وشيطانه عاقبة سيئة، وكذلك ستكون عاقبة جميع الظالمين المعتدين على المسلمين؛ لأنَّهما قد اشتركا في علَّة الظلم.(١)

الأساليب البلاغيَّة:

١ _ **طباق بين** (جَمِيعاً) و(شَتَّى) في قوله تعالى: (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

٢ – **تشبيه مُرسَلٌ مفصَّل**: في قوله تعالى: (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) شبَّه يهود بني النَّضير بالذين من قبلهم، من حيث ما حلَّ بهم من العذاب، وذكر في التشبيه أداة التشبيه ووجه الشَّبه.

٣ _ **استعارة مكنيَّة**: في قوله تعالى: (ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ) شبَّه الله إقدام اليهود

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨ / ٩٧ –٩٨.

على حرب المسلمين مع الجهل بعاقبة تلك الحرب، بإبل ترامت على مرعى وبيل، فأكلت منه، فهلكت. وذكر (ذاقوا) مع (وبال) يشير إلى هذه الاستعارة.

٤ _ **تشبيه تمثيلي**: في قوله تعال: (كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ)؛ لأنَّ وجه الشبه منتزع من متعدد، فقد شبه المنافقين الذين أغووا اليهود ثم خذلوهم، بالشيطان، يغوي ابن آدم ثم يتبرأ منه.

المعنى الإجمالي للآيات:

ألم تعلم _ أيُّها النبيُّ _ خبر المنافقين الذين يلبسون رداء الإسلام، إذ قالوا لإخوانهم في الكفر من يهود بني النَّضير: اثبتوا في دياركم فلن نخذلكم، ولن نسلمكم، ولئن أَخرجكم المسلمون من أوطانكم لنخرجنّ تضامنًا معكم، ولا نطيع أحدًا يريد أن يمنعنا من الخروج معكم، وإن قاتلوكم لنعينَّكم عليهم، والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون في وعودهم التي أغروا بها اليهود. لئن أَخرَج المسلمون اليهود من قُراهم، لن يفارق المنافقون أوطانهم مؤازرة لهم، وإن قاتل المسلمون اليهود، لن تجد المنافقون أعواناً لهم في حربهم ضد المسلمين، ولو أعانوهم على سبيل الفرض والتقدير، ليهربُنّ فِراراً منهم ثم لا يُنْصَر المنافقون بعد ذلك، بل يذلّهم الله ويخزيهم. لَخوفُ المنافقين من المؤمنين أعظم وأشد في صدورهم من خوفهم وخشيتهم من الله؛ وذلك لأنَّهم قوم لا يدركون عظمة الله، ولا يرهبون عقابه. أيها المؤمنون إنَّ اليهود والمنافقين لا يجرؤون على قتالكم وهم مجتمعين، إلا إذا كانوا في قرى مُحَصَّنة بالأسوار والخنادق، أو من وراء جدران، فهم لا يستطيعون مواجهتكم لجبنهم، عداوتهم فيما بينهم شديدة، بسبب اختلاف المصالح وتفرق الأهواء، لو رأيتهم بأسهم الظاهر تظنُّ أنَّهم مُتحدون في صف واحد، ومجتمعون على كلمة واحدة، والواقع أنَّ قلوبهم متفرقة مختلفة، لأنَّهم قوم لا يعقلون الحقَّ الذي يجب اتباعه، ولا يعرفون وجوه المصالح فيعملوا بها.

مثل هؤلاء اليهود فيما حلَّ بهم من عقوبة الله كمثل كفار قريش يوم بدر،

ويهود بني قينقاع، حيث ذاقوا سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب أليم موجع. ومَثَلُ المنافقين في إغراء اليهود على القتال وعدم المصالحة ووَعْدهم بالنصر على رسول الله ﷺ، كمثل الشيطان حين زيّن للإنسان الكفر ودعاه إليه، فلما كفر ، قال له: إنِّي بريء منك لما كفرت، إنِّي أخاف الله، فكان نهاية الشيطان والإنسان الذي أطاعه أنهما يوم القيامة في النار ماكثَيْنِ فيها أبدًا، وذلك الجزاء الَّذي ينتظرهما جزاء كل ظالمٍ.

الفوائد والأحكام:

أولاً: في قوله تعالى: (لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ) دليل على صحة النبوّة؛ لأنَّ فيها إخبار بغيبٍ قد وقع كما أخبر به الله، فالمنافقين قد خذلوا اليهود، وتركوا نصرتهم، ولم يفارقوا وطنهم لأجلهم.(١)

ثانياً: الكفر ملة واحدة، والكافرون إخوان. وأمَّا ما يَظهر من صداقة المنافقين لليهود وغيرهم فهي صداقة وهمية تتلاشى عند الشدائد؛ فمن صفات المنافقين الغدر والكذب، وإخلاف الوعود. ومن صفات اليهود الجبن والخوف، وعد الإقدام في القتال.

ثالثاً: وجوب الحذر من وساوس الشيطان الذي يدعو الإنسان إلى المعاصي، ثم يتبرأ من العاصي عندما يقع في الهلاك، ويتركه في محنته وعذابه.

رابعاً: في الآيات تربية للمسلمين؛ ليحذروا من التخالف والتنافر، ويعلموا أنَّ الأمَّة لا تكون ذات بأس على أعدائها إلا إذا كانت متفقة في أصول مصالحها المشتركة، وإن اختلفت في خصوصياتها التي لا تنقض أصول مصالحها، ولا تفرق جامعتها. ولا يكفي في الاتحاد توافق الأقوال، ولا التوافق على الأغراض، إلا أن تكون الضمائر خالصة من العداوات.(٢)

---

(١) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٦، والبحر المحيط، ج٨/ ٢٤٧.

(٢) التحرير والتنوير، ج٢٨/ ٩٥.

دعوة المؤمنين إلى تقوى الله وخشيته.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (١٩) لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)

[سورة الحشر: ١٨ – ٢١]

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن بيَّن الله أحوال المنافقين واليهود، وأبلغ في المواعظ المنفِّرة من الخيانات، ونقض العهود، والنفاق، أمر اللّه المؤمنين بالتقوى، وحذَّرهم من أعمال أهل النار ومصيرهم. بعد ذكر العذاب الذي حلَّ باليهود والمنافين. والأمر بالتقوى بعد ذكر العذاب يجعل الأمر والنهي أوقع في النفس؛ لأنَّ الوعظ بعد ذكر الأهوال أعظم في ترقيق القلب، والتحذير مما يوجب العقوبة.(١)

وقد أشادت السورة بالمِنَنِ التي أنعم بها الله على المسلمين من فتح قرية بني النضير من غير قتال، وما أفاء الله على رسوله ﷺ منهم، وما أفاض عليهم من منافع الدنيا، وناسب ذلك التذكير بوجوب الإعداد للآخرة في هذه الآيات؛ لئلا تغتر نفوسهم بتلك النعم العظيمة التي وهبها الله لهم؛ فتركن إلى الدنيا، ولذلك أمرهم بتقوى الله؛ شكراً له على ما منحهم من نِعَمِهِ.(٢)

معاني المفردات:

لِغَدٍ: الغد: هو اليوم الذي يأتي بعد يومك، ويطلق على البعيد المترقَّب مجازاً،

---

(١) انظر: نظم الدرر، ج٧/ ٥٣٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ٩٨.

والمراد هنا يوم القيامة.

نَسُوا اللَّهَ: تركوا طاعة الله عمداً.

فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ: صرفهم عن العمل بما فيه نفعهم ونجاة أنفسهم.

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ: الماكثون في الجنّة المقيمون فيها إقامةً دائمة.

خَاشِعًا: خاضعاً ذليلاً. أي: لرأيته ينزل أعلاه إلى الأرض.

مُتَصَدِّعاً: متشقّقاً، أي: لتزلزل وتشقق خوفاً من الله تعالى.

الإعراب:

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ: جملة مستأنفة.

خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا: حالان من الهاء في (لرأيته)؛ لأنَّ الرؤية بصرية، وفعلها يتعدى إلى مفعول واحد.

الأساليب اللغوية:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ

أمر الله المؤمنين بامتثال ما يأمر به، وترك ما ينهى عنه، ليجنبوا أنفسهم عذاب الله، ثم أمر بمحاسبة النفس والاستعداد للآخرة، فقال: (وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) عاطفاً هذا الأمر على الأمر بالتقوى.

وكان مقتضى الظاهر أن يكون فاعل (ولتنظر) مضمراً، فيقال: (اتقوا الله، وانظروا ما قدمتم)، لكن النظم عدل عن الظاهر، فأظهر الفاعل (نفس) في مقام الإضمار، ليتأتَّى تنكير الفاعل؛ قصداً إلى التعميم مع إرادة الاستقلال، أي: لتنظروا، ولتنظر كلُّ نفسٍ مستقلة فيما قدَّمت من خيرٍ وشر.[1] وفيه حثٌّ على

(١) انظر: الكشَّاف، ج٤/ ٥٠٨، ومفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٣، والتحرير والتنوير، ج٢٨ / ٩٩.

النظر، وتعريض بأن الغفلة قد عمَّت الكل فلا أحد خلص منها.[1]

وأطلق (غَدٍ) على يوم القيامة؛ تنبيهاً على أنَّه آتٍ في زمنٍ قريب، وعبر عنه بالغد، وهو اليوم الذي يلي يومك على سبيل التقريب، كأنَّه لم يزل يقربه حتى جعله كالغد.

وهذا الاستعمال شائعٌ في كلام العرب؛ فإنَّ العرب تكنِّي عن المستقبل بالغد ومنه قولهم: (وإنَّ غَداً للنَّاظرينَ قريبُ).[2]

وتنكير (غدٍ)؛ للتعظيم والتهويل وإبهام أمره، كأنَّه قيل: لغد لا يعرف كنهه؛ لشدَّة عظمه.[3]

والتقديم: مستعار للعمل الذي يعمل لتحصيل فائدته في زمن آتٍ.

واللام في قوله: (لغدٍ) لام العلة، أي: ما قدمته لأجل الانتفاع به يوم القيامة، وذلك كقوله تعالى: (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ) [سورة البقرة:١١٠].[4]

وإعادة الأمر بالتقوى في قوله: (وَاتَّقُوا اللَّهَ) يحتمل وجوهاً:

الأول: التكرير لتأكيد الأمر الأول بالتقوى، لزيادة الاهتمام بالمؤكَّد،[5] وليبنيَ عليه (إنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) فيحصل الربط بين التعليل والمعلل؛ إذ وقع بينهما فصل (وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)، إذ إنَّ جملة (إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) تعليل للحثِّ على تقوى الله.

الثاني: التقوى الأولى بمعنى الخوف من الله وهي الباعثة على العمل؛

---

(١) روح المعاني، ج٢٨/ ٦٠.

(٢) انظر: الكشَّاف، ج٤/ ٥٠٨، ومفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٣، والبحر المحيط، ج٨/ ٢٤٩، وتفسير القرطبي، ج١٨، ٤٣، واللباب، ج١٨/ ٦٠٧.

(٣) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٨، وتفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٣٢.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨ / ٩٩.

(٥) هذا الوجه ذكره جمهور المفسِّرين.

ولذلك أردف بقوله: (وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَد)، والثانية: بمعنى الدوام على التقوى الأولى، أي ودوموا على التقوى، وذلك كقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) [سورة النساء:١٣٦] ولذلك أردف بقوله: (إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أي: خبير بمقدار اجتهادكم في التقوى. وأردف بقوله: (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ) [سورة الحشر: ١٩] أي: أهملوا التقوى بعد أن تقلدوها.(١)

الثالث: التكرار لتغاير متعلق التقويين، فمتعلق الأولى: أداء الفرائض والواجبات؛ لاقترانه بالعمل، ومتعلق الثانية: ترك المعاصي؛ لاقترانه بالتهديد والوعيد بقوله: (إنَّ الله خبير بما تعملون) أي: من المعاصي.(٢) وقد رجَّح الآلوسي هذا الوجه، لما فيه من تأسيس معنى جديد، فإنَّ التأسيس أولى من التأكيد.(٣)

وفي قوله: (إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار؛ لتربية المهابة في نفوس المخاطبين، ولتكون الجملة مستقلة بدلالتها، كالأمثال.(٤)

وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

المقصود بهذا النهي التحذير من الإعراض عن دين الله، وجاء النهي بأسلوب التشبيه بحال قوم تحققت فيهم الصلة بعد الاسم موصول؛ ليكون النهي مصوراً في صورة محسوسة. وظاهر الموصول أنه لطائفة معهودة، وذلك يحتمل:

أ _ أن يراد بـ (الَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ) المنافقين؛ لأنَّهم كانوا مشركين، ولم يهتدوا للتوحيد بهدى الإسلام، فعبَّر عن النفاق بنسيان الله؛ لأنَّه جهل بصفات الله. وعبر عنهم بالفاسقين، وذلك كما في قوله تعالى: (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ١٠٠.

(٢) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٧، ومفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٣، وتفسير البيضاوي، ج٥/ ٣٢٣، وتفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٣٢، وروح المعاني، ج٢٨/ ٦٠.

(٣) انظر: روح المعاني، ج٢٨/ ٦٠.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ١٠٠.

الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [سورة التوبة: ٦٧] فتكون تلك الآية مبيّنة لمعنى هذه الآية.

ب ـ ويحتمل أن يكون المراد بهم اليهود، لأنَّهم أضاعوا دينهم ولم يقبلوا رسالة عيسى عليه السلام، وكفروا بمحمد ﷺ. والمعنى: نسوا دين الله وميثاقه الذي واثقهم به: (وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ) [سورة البقرة: ٤١].

وبذلك يكون معنى (نَسُوا اللَّهَ): تركوا أداء حقّ الله الذي أوجبه عليهم عمداً، ولم يراعوا أوامره ونواهيه، وتركوا النظر في دلائل توحيد الله وصفاته، ودلائل صدق رسوله ﷺ، وفهم كتابه.

وإظهار اسم الجلالة في قوله تعالى: (كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ) من غير أن يقال: نسوه؛ لفظاعة هذا النسيان، المتعلِّق باسم الله الذين خلقهم وأرشدهم.(١)

فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ، فاء التسبب تشعر بأنَّ إنساء الله إياهم أنفسهم مسبب على نسيانهم دين الله، أي: لما أعرضوا عن الهدى بكسبهم وارادتهم عاقبهم الله بأن جعل جزاء نسيانهم إياه عِقاباً من جنس أعمالهم.

وقد ذكر المفسِّرون وجوهاً في تفسير هذا الجزاء، منها:

الأول: جعلهم الله تاركين حظوظ أنفسهم من الخيرات، فلم يسمعوا ما ينفعها، ولم يفعلوا ما يخلصها من العذاب في الدنيا والآخرة.(٢)

الثاني: أراهم يوم القيامة من الأهوال ما نسوا فيه أنفسهم، كقوله تعالى: (لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ) [سورة إبراهيم: ٤٣]، وقوله: (وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى) [سورة الحج: ٢].(٣)

أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ: اسم الإشارة للتشهير بهم بوصف الفسق، وهو

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ١٠١.

(٢) انظر: تفسير الطبري، ج ٢٣ / ٣٠٠، والبحر المحيط، ج٨/ ٢٤٩.

(٣) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٨، ومفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٣، وتفسير البيضاوي، ج٥/ ٣٢٣، وتفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٣٢.

الإتيان بفواحش السيئات ومساوئ الأعمال وأعظمها الإشراك.

والقصر المستفاد من ضمير الفصل قصر ادعائي؛ للمبالغة في وصفهم بشدة الفسق، كأنَّه قيل: إنَّه لا فسق بعد فسقهم.(١)

وأصل الفسق مفارقة المكان اللائق بالشيء، ومنه: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها. وفي ذلك تنبيه على بشاعة ما ورَّطوا به أنفسهم.

لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ

هذه الآية بيان للفرق بين فريقين سبق ذكرهما: المؤمنين الذين يعملون بأمر الله (وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)، وفريق الذين (نَسُواْ اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ).

وذكر الفرق بين الفريقين في هذا الموضع مع كونه معلوم من البيان الإجمالي لعاقبة الفريقين في الآيات السابقة

أ _ للتنبيه على البون الشاسع، والفرق الكبير بينهما، وفي هذا ترغيب في العمل للجنة، وترهيب من العمل للنار.(٢)

ب _ وللتعريض بأنَّ المؤمنين هم أصحاب الجنة، وأنَّ الذين نسوا الله هم أصحاب النار، فتكون الآية قد تضمنت وعداً للمتقين، ووعيداً للفاسقين.(٣)

وجملة (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ) استئناف بياني؛ لتفسير نفي تساويهما، أو للإجابة عن سؤال مقدَّر عن كيفية عدم الاستواء بين الفريقين، جوابه: أصحاب الجنَّة هم الفائزون المقرَّبون، ولذلك لا يستوي الفريقان في الفضل والرتبة، فأهل الجنة في النعيم، وأهل النارفي العذاب.(٤)

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢/ ١٠٢.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩، ٢٥٤، واللباب، ج١٨/ ٦٠٨، والتفسير المنير، ج٢٨/ ١٠٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢/ ١٠٢.

(٤) انظر: تفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٣٢.

وضمير الفصل بين طرفي الجملة الاسمية يقصر الفوز على أصحاب الجنَّة، لأنَّ فوزهم أبدي، وفوز غيرهم ببعض أمور الدنيا زائل، فصار كالعدم.[1]

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

ورود هذه الآية بعد ذكر مصير أصحاب الجنَّة وأصحاب النار، تعريضٌ بما يتضمنه القرآن من دلائل الهداية إلى مسالك الخير والتنفير من مسالك الشر، وبيان أنَّ الفاسقين الذين نسوا الله قد أوقعوا أنفسهم في الهلكة؛ بسبب الإعراض عن التدبر في القرآن عناداً واستكباراً، مما أدَّى إلى استمرار ضلالهم وشركهم.

وقد ضرب الله مثلاً لقسوة قلوبهم وانتفاء تأثرهم بقوارع القرآن بهذا المثل الوارد في الآية؛ تعجيباً من تصلُّبهم في الضلال.

وإنزال القرآن مستعار للخطاب به. عبر عنه بالإنزال؛ تشبيهاً لشرف الشيء بعلو المكان، ولإبلاغه للغير بإنزال الشيء من علو.

والإشارة بقوله: (هَذَا الْقُرْآنُ) إلى المقدار الذي نزل منه، وهو ما عرفوه وسمعوا تلاوته، فإنَّ هذه الآية نزلت قبل اكتمال نزول القرآن مشيرةً إلى ما نزل قبلها.

وفائدة الإتيان باسم إشارة القريب التعريض بأنَّ القرآن غير بعيد عنهم. وأنَّه في متناولهم ولا كلفة عليهم في تدبره، ولكنهم قصدوا الإعراض عنه.[2]

والمراد بالجبل: حقيقته، لأنَّ الكلام فرض وتقدير كما هو مقتضى (لو) أن تجيء في الشروط المفروضة. فالجبل: مثال لأشد الأشياء صلابةً، وقلَّة تأثُّرٍ بما

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ١٠٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ١٠٣.

يقرعه. والمعنى: لو كان المخاطب بالقرآن جبلاً، وكان الجبل يفهم الخطاب لتأثَّر بمعاني القرآن تأثراً مصحوباً بخشية الله.

والخطاب في (لرأيته) يحتمل وجوهاً، منها:

أ _ أن يكون الخطاب للكفَّار الذين تحداهم الله بإعجاز القرآن، والمعنى: لو كان الجبل في موضع هؤلاء الذين نسوا الله وأعرضوا عن فهم القرآن لاتعظ الجبل وتصدع صخره وتربه من شدة تأثره بخشية الله. وأنتم أيها المقهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده، ولا ترهبون من وعيده. والغرض من هذا الكلام توبيخ الكفار، والتنبيه على فساد قلوبهم، وغلظ طباعهم، ونظيره قوله: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّن بَعْدِ ذ الِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) [سورة البقرة: ٧٤]

ب _ الخطاب للنبي ﷺ. والمعنى: لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لتصدع من نزوله عليه، وقد أنزلناه عليك وثبتناك له. والغرض من الكلام الامتنان على النبيِّ ﷺ بتثبيته لما لم يثبت عليه الجبال.

ج _ الخطاب للإنسان من غير تعيين، فيعم كل من يسمع هذا الكلام. والمعنى: لو أنزل هذا القرآن على جبل لتصدّع من خشية الله، والإنسان أقل قوة منه، لكنه أكثر ثباتاً، فهو يقوم بحقه إن أطاع؛ لأنَّه موعود بالثواب، ومزجُور بالعقاب.(١) والغرض من الكلام: الترغيب بتدبُّر القرآن والقيام بحقِّه، والتعريض بقسوة قلوب المعرضين، بأنَّ الجبل يعرض له الخشوع والتصدع مع تصلبه، وابن آدم أولى بذلك، لكنه مع ضعفه لا يتأثر، لقسوة قلبه.(٢)

والرؤية بصرية، وهي منفية؛ لوقوعها جواباً لحرف (لو) التي تمنع وقوع الجواب لامتناع وقوع الشرط.

وضرب التصدع مثلاً لشدة الانفعال والتأثر؛ لأنَّ منتهى تأثر الأجسام

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ج١٨ / ٦١٠، والنكت والعيون، ج٥/ ٥١٢.

(٢) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٨، والبحر المحيط، ج ٨ / ٢٤٩، وتفسير البيضاوي، ج٥/ ٣٢٣.

الصلبة أن تتصدع وتتشقَّق، إذ لا يحصل ذلك لها بسهولة.[1]

والكلام على سبيل التمثيل والتخييل؛ لأنَّ الجبل لا يتصور منه الخشوع والخشية إلا أن يخلق الله تعالى له تمييزاً وعقلاً.[2] ومما يدل على التمثيل التذييل بقوله (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ)

والإشارة بـ (تِلْكَ الأمْثَالُ) إلى هذا المثل وإلى مجموع ما مر على أسماعهم من الأمثال الكثيرة الواردة في القرآن.

وفائدة التذييل بهذه الجملة بيان أنَّ الغاية من الأمثال التي يذكرها الله في كلامه أن يتفكروا، فإن لم يتفكروا بها فقد سجَّل عليهم عنادهم ومكابرتهم.[3]

الأساليب البلاغيَّة:

١ _ **كناية:** في قوله تعالى: (وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ) كنى بالغد عن يوم القيامة لقربه.

٢ _ **طباق** بين الجنة والنار في قوله: (لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ)

٣ _ **جناس ناقص** في (نَسُوا، فَأَنْساهُمْ)

٤ _ **أسلوب قصرٍ** بتوسيط ضمير الفصل بين طرفي الجملة الاسمية في قوله: (أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ)، وقوله: (أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ)

المعنى الإجمالي للآيات:

أيها المؤمنون الذين تمكَّن الإيمان في قلوبهم، داوموا على تقوى الله، واستعدُّوا ليوم القيامة بالإكثار من الأعمال الصالحة، فإنَّ القيامة يوم قريب يجد المرءُ فيه ما قدمت يداه، ويلاقي جزاءَه عند الله، فاتقوا الله واجتنبوا المعاصي التي تهلك صاحبها في ذلك اليوم العظيم الأَهوال. إنَّ الله عليم بجميع

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ١٠٤.

(٢) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٨، ومفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٤، وتفسير الخازن، ج٧/ ٧١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ١٠٤.

أحوالكم لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأَقوالكم، وسوف يجازيكم الجزاء اللائق بأعمالكم من خيرٍ وشر.

ولا تكونوا كالذين تركوا أداءَ حقِّ الله الذي أوجبه عليهم، فأنساهم بسبب ذلك حظوظ أنفسهم من الخيرات التي تنجيهم من عذاب يوم القيامة، أولئك هم القوم المتناهون في الفسوق والخروج عن طاعة الله.

لا يستوي أهل الإيمان والكفر في المنزلة والفضل؛ لأنَّهم فريقان غير متكافئين في العمل؛ فأَهل النار الملازمون لها انهمكوا في المعاصي، والمؤمنون المقيمون في الجنة وقفوا أنفسهم على العمل لها، لذلك استحقُّوا أن يكونوا هم الفائزون بمطلوبهم الناجون من العذاب.

عجباً لحال من لا يهتدي بالقرآن، ولا تؤثِّر فيه قوارع الفرقان الذي لو أنزلت آياته على جبل ضخم ففهم ما فيه مِن وعد ووعيد، لرأَيته - مع كونه مثلًا في القسوة- متهاوياً ذليلاً متشققاً، من خشية الله، متأثراً بما بلغه من الزواجر والقوارع، التي لا تزعج خاطر كثير من الناس الذين بلغوا في قسوة القلب وقلة الخشوع مبلغاً تعجز الجبال الصلبة عن بلوغه.

فهذا مثل وفي القرآن أمثال كثيرة تُذكر للناس لعلهم يتدبَّرون معانيها ويدركون مقاصدها.

الفوائد والأحكام:

أولاً: كان النبي ﷺ يستشهد بقوله تعالى: (وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ) في خطبه في الحثِّ على عمل الخير والمعروف.

أخرج مسلم عن المنذر بن جرير عن أبيه، قال: كنا عند رسول اللّه ﷺ في صدر النهار، فجاءه قوم حفاة عراة .. فتغير وجه رسول اللّه ﷺ؛ لِما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذَّن وأقام الصلاة، فصلَّى ثم خطب، فقال: (يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ) وقرأ: (وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ)، .. فجاء رجل من الأنصار بصُرَّة كادت كفه تعجز عنها، ... ثم تتابع

الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول اللّه ﷺ يتهلل وجهه كأنَّه مُذهّبة، فقال رسول اللّه ﷺ: "من سنّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء"(١)

ثانياً: احتج **المعتزلة** بقوله تعالى: (لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّة هُمُ الْفَائِزُونَ) على أنَّ صاحب الكبيرة لا يدخل الجنة؛ لأنَّ الآية دلت على أنَّ أصحاب النار وأصحاب الجنة لا يستويان، فلو دخل صاحب الكبيرة في الجنة لكان أصحاب النار وأصحاب الجنة يستويان وهو غير جائز.(٢)

ويردُ عليهم بأنَّ المراد بنفي الاستواء في الآية نفي مطلق المساواة في الخلود وغيره، ومعلوم أنَّ الجنة منازل بحسب اختلاف منازل الطائعين.

ثالثاً: احتج الشافعية بقوله تعالى: (لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّة هُمُ الْفَائِزُونَ) على أنَّ المسلم لا يقتل بالكافر الذمي، وإلا استويا، وأنَّ الكافر لا يملك مال المسلم بالقهر وإلا استويا.(٣)

وردَّ الحنفيَّة بأنَّ المراد بالآية الاستواء في أحكام الآخرة، أما دم الذمي وماله فله حرمة تابعة لحرمة ذاته في الدنيا.(٤)

رابعاً: رُويَ عن علي وابن مسعود عن النبي ﷺ أنَّه قال في قوله تعالى: (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ) إلى آخر السورة: "هي رقية الصداع"(٥)

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، ج٢/ ٧٠٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٤.

(٣) انظر: الحاوي الكبير، ج١٢/ ٢٠.

(٤) انظر: الاختيار لتعليل المختار، ج٥/ ٤١، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، ج٦/ ١٠٣.

(٥) ذكره في كنز العمال، ج١٠/ ١٨٦. ونسب تخريجه إلى الديلمي، ولم أجده.

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)

[سورة الحشر: ٢٢ _ ٢٤]

مناسبة الآيات لما قبلها:

في الآيات السابقة ذكر الله القرآن العظيم الذي تتصدَّع الجبال لعظمته ومعلوم أنَّ عظم الصفة تابع لعظم الموصوف، ولذلك أتبع ذلك بذكر بعض الصفات الإلهيَّة الدالة على عظمة الله سبحانه.(١)

وقد كان الغرض من الموضوعات التي عرضتها السورة الاعتبار بعظيم قدرة الله، الذي نصر النبي ﷺ على بني النضير ذلك النصر الخارق للعادة، وذَكَر ما حلَّ بالمنافقين الذين شاقُّوا الله ورسوله، ونوَّه بعظمة شأن القرآن الذي يُعرِّف الناس بعظمة الله، ثمَّ أعقب ذلك بذكر بعض الصفات الإلهية العظيمة ذات الآثار العديدة في أفعال الله التي تضمَّنتها السورة.(٢)

والغرض من ذكر الأسماء الحسنى في نهاية السورة:

أ _ تعليم المسلمين هذه الصفات ليتبصروا فيها، ويعرفوا جلائل صفاته التي لتعلقاتها آثار في الأحوال الحاصلة والتي ستحصل من الفتوح.

ب _ وليعلم المشركون والكفَّار من اليهود أنهم ما تعاقبت هزائمهم إلا بسبب

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ١٠٥.

كفرهم بالله ذو الصفات الكاملة.

ج ـ وللردّ على المشركين إشراكهم بصاحب هذه الصفات أصناماً ليس لواحد منها شيء من مثل هذه الصفات، ولذلك خُتمت طائفة من الصفات المذكورة بجملة (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ).(١)

المعاني والأساليب اللغوية:

هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ

ضمير الغيبة الواقع في أول الجملة عائد إلى اسم الجلالة في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ) [سورة الحشر:١٨]. وكان مقتضى الظاهر الاقتصار على الضمير من غير ذكر اسم الجلالة؛ لأنَّ المقصود الإخبار عن الضمير بـ (الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) وبما بعد ذلك من الصفات العليا، لكنه جمع بين الضمير وما يساوي معاده؛ لأنَّ اسم الجلالة يجمع جميع صفات الكمال.

و(هو) مبتدأ واسم الجلالة خبر عنه، و(الذي) صفة لاسم الجلالة. ويجوز أن يجعل الضمير (هو) ضمير الشأن، ويكون الكلام استئنافاً، واسم الجلالة مبتدأ و(الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) خبر. والجملة خبر عن ضمير الشأن. وهو الأرجح؛ لأنَّه لما كان شأن هذه الصفات عظيماً ناسب أن تفتتح الجملة بضمير الشأن.

وابتدئ في هذه الصفات العلية بصفة الوحدانية وهي مدلول (الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)؛ لأنَّها الأصل فيما يتبعها من الصفات.

وثنِّي بصفة (عَالِمُ الْغَيْبِ) لأنَّ العلم هو الوصف الذي تقتضيه صفة الإلهية؛ وهو يقتضي جمع الصفات الأخرى.

ومن متعلقات علمه سبحانه بأمور الغيب، وبذلك يتميَّز علم الله تعالى عن علم غيره. وذكر معه علم الشهادة؛ للاحتراس من توهُّم أنَّه يعلم الحقائق

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ١٠٦.

الغيبيَّة، ولا يعلم المبصَرات المشاهدات.[1]

والتعريف في (الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) للاستغراق. أي يعلم كل غائب وكلُّ مشاهَد. وذلك يشمل: العلم بالسر والعلانية، والعلم بما كان وما يكون، والعلم بأحوال الآخرة والدنيا، والعلم بما لا يعلمه الخلق، وبما يعلمونه ويشاهدونه، والعلم بما يدرك وما لا يدرك من أمور الحياة والموت والروح والملائكة ...إلخ.[2]

وتقديم الغيب على الشهادة في الآية؛ لتقدمه في الوجود وتعلق العلم القديم به، ولأنَّ علم الغيب ممَّا يدق ويخفى، فتقدُّمه في الإخبار أبعث للتنبيه.[3]

وفي ذكر الغيب إيماء إلى ضلال الذين قصروا أنفسهم على المشاهدات وكفروا بالمغيبات من البعث والجزاء وإرسال الرسل. أما ذكر علم الشهادة فتتميم على أنَّ المشركين يتوهمون أنَّ الله لا يطلع على ما يخفونه.[4]

وضمير (هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) ضمير فصل، يفيد قصر الرحمة عليه سبحانه، وهو قصر حقيقي؛ لعدم الاعتداد برحمة غيره لقصورها. فرحمة الله (وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) [سورة االأعراف:١٥٦]. وأمَّا رحمة الخلائق فهي جزء من مائة جزء كما قال النبي ﷺ: "جعل الله الرحمة في مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه"[5]

ووجه تعقيب صفة العلم بصفة الرحمة أنَّ العلم يقتضي ألَّا يغيب عن علمه شيء من أحوال خلقه وحاجتهم إليه، فهو يرحم المحتاجين إلى رحمته

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨ / ١٠٥ –١٠٦.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٤، وتفسير القرطبي، ج١٨/ ٤٥.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٣٣.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨ / ١٠٦.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة في مائة جزء، (٥٦٥٤)، ج٥/ ٢٢٣٦.

ويؤخِّرُ عقوبة المعاندين إلى الآخرة، فهو بذلك يرحمهم في الدنيا.[1]

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ

تكرر بدء الآية بمثل ما بُدِأت به الآية السابقة: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَ هُوَ)؛ للتلذُذ بذكر الله، ولإبراز العناية والاهتمام بالتوحيد،[2] ولأنَّ اسم الجلالة هو الأَساس لما يتعلُّق به من الصفات العليا الآتي ذكرها بعده.

الْمَلِكُ: المالك الحقُّ لكل شيء، وأمَّا ما في أيدي الناس فهي أمانات استخلف الله خلقه فيها. وهو الحاكم الذي ينفذ حكمه في ملكه، فهو يتصرَّف فيه كما يشاء على الوجه الذي يشاء، ويعطي من يشاء ويمنع من يشاء، وليس لأحدٍ من الناس حقٌّ في أن ينازع الله ملكه وتصرفاته في مملكته؛ لأنَّ الله هو الذي خلق الأشياء كلها وله الحقُّ المطلق في حيازتها وملكيتها والتصرف فيها.

وقد عقَّب وصفا الرحمة بوصف (الملك)؛ للإشارة إلى أنَّ رحمته بالخلق فضل، وأنَّه مطلق التصرف في مملكته، إن شاء رحِم، وإن شاء حزم.[3]

الْقُدُّوسُ: الطَّاهر عن كل عيبٍ، البالغ غاية المنتهى في النزاهة عما يوجب نقصاناً في الذات والصفات والأفعال والأحكام.[4]

وعقب وصف (الملك) بـ (الْقُدُّوسُ)؛ للاحتراس عن نقائص الملوك المعروفة من الغرور، والاسترسال في الشهوات ونحو ذلك من نقائص النفوس.[5]

السَّلامُ: مصدر وصف به الله تعالى على طريقة الوصف بالمصدر للمبالغة.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ١٠٧.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٣٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج ٢٨ / ١٠٧.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٤.

(٥) نظر: التحرير والتنوير، ج ٢٨ / ١٠٧.

وفي معناه وجهان: الأول: أنَّه بمعنى السلامة، أي السليم من كل نقصٍ وآفة، وهو تأكيد لوصف القدُّوس الذي يشير إلى براءته سبحانه عن جميع العيوب. والثاني: أنَّه بمعنى المسالمة، أي: الذي سلم خلقه من الظلم والجور.(١)

ووجه تعقيب (الملك، القُدُّوس) بوصف (السلام): الدلالة على نزاهة ذاته من الآفات، ونزاهة أفعاله وأحكامه من الظلم.

الْمُؤْمِنُ: فيه وجهان: الأول: أنَّه واهب الأمن والأمان لكل خائف مقهور، الذي يأمن أولياؤه عذابه، ويأمن العباد من ظلمه، والثاني: أنَّه المُصدِّق الذي يُصدِّقُ أنبياءه بإظهار المعجزة لهم، ويُصدِّق أمة محمد ﷺ في الشهادة عندما يشهدون لسائر الأنبياء، كما قال تعالى: (لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ) [سورة البقرة: ١٤٣].(٢)

وذكر وصف (المؤمن) عقب الأوصاف التي قبله؛ للاحتراس من توهم وصفه تعالى بـ (الملك) أنَّه كالملوك المعروفين بالظلم والغدر، مع ما أفاده وصف (السلام) من نزاهة ذاته عن الغدر ونزاهة تصرفاته عن الجور والظلم.(٣)

الْمُهَيْمِنُ: القائم على أعمال خَلْقِه وأرزاقهم بالرقابة عليهم، والحفظ لهم.(٤)

وذكر وصف (المهيمن) بعد وصف (المؤمن)؛ لدفع توهم أنَّ الله يهب الأمان لخلقه عن ضعف أو مخافة، فأخبر بوصف (المهيمن) أنَّه رقيب مطلع على أحوال الخلق، وهو يهب الأمان لخلقه رحمةً بهم.(٥)

الْعَزِيزُ: الذي لا يوجد له نظير، أو القاهر الغالب الذي لا يُغلب ولا يُذلُ.

الْجَبَّارُ: فيه وجهان: الأول: أنَّه مبالغة من (جبر) بمعنى أصلح، أي الذي

---

(١) انظر: الكشَّاف، ج٤/ ٥٠٩، ومفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٥، وتفسير القرطبي، ج١٨/ ٤٦.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ١٠٨.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٥، والتبيان في تفسير غريب القرآن، ص ١٨٤.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ١٠٩.

يجبر الفقير فيغنيه، والمنكسر فيقويه، ويُصلح أحوال خلقه، ويجبر ضعفهم.

والثاني: أنَّه مبالغة من (أجبر) بمعنى أكره، أي: الذي يقهر الناس ويُجبرهم على الانفعال بما يريد من الأفعال، ولذلك ترى كل الموجودات مجبرة على قبول ما أراده الله لها من غير اجتياز لحدود ما تعلَّقت به إراداته، فلا يستطيع الإنسان الطيران، ولا تستطيع ذوات الأربع المشي على رجلين فقط، وهكذا.(١)

الْمُتَكَبِّرُ: الشديد الكبرياء، ذو العظمة والجلالة، الذي جعل التكبر حقاً له، إذ تعاظم في ربوبيته فلا شيء مثله، وتعالى عما لا يليق به من صفات الحدوث والذم.(٢) ويقصد بهذا الوصف: إرشاد العباد إلى معرفة جلال الله وعلوه.

ووجه ذكر هذه الصفات الثلاث عقب صفة (المهيمن) أنَّ جميع ما ذُكر آنفاً من الصفات يؤذن باطمئنان العباد لعناية ربهم بهم وإصلاح أمورهم، ولذلك أتبعت بصفات (الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ) لتكون صفات الترهيب في جانب صفات الترغيب؛ ليبقى العبد متقلِّباً بين الخوف والرجاء.(٣)

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ: ضمير (يشركون) عائد إلى معلوم من المقام، وهم المشركون الذين نزل القرآن؛ لإبطال شركهم، وتسفيه أصنامهم التي جعلوها شركاء في الإلاهيَّة، مع أنَّها لا تشاركه الله في أي وصفٍ من الأوصاف المذكورة.

وأعقب اسم المتكبِّر خاصَّة بهذا التذييل؛ كأنَّه قيل إن المخلوقين قد يتكبرون ويدعون مشاركة الله في هذا الوصف لكنه سبحانه منزه عن التكبر الحاصل للخلق؛ لأنَّ العبد المتكبِّر يكذب في ادِّعاء العلو لنفسه، لأنَّه إن علا شأنه لن يبلغ أن يخرج عن دائرة النقص والحاجة في ذاته، وادعاؤه الكبر يكون ضم

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٥، وتفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٣٤، والتحرير والتنوير، ج٢٨/ ١٠٩.

(٢) انظر: اللباب، ج١٨/ ٦١٤.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ١١٠.

نقصان الكذب إلى النقصان الذاتي. أما الله سبحانه فله العلو والعزة، فإذا أظهر الكبر كان ذلك ضمَّ كمال إلى كمال.[1]

هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

كرَّر (هو الله)؛ للتبرُّك بذكر اسم الجلالة، وليبني عليه ما بعده من الصفات.

الْخَالِقُ: اسم فاعل من الخلق، وهو تقدير إيجاد الأشياء بعد أن لم تكن موجودة. ومعنى الخالق: المقدِّر وجود ما يوجده من الأشياء بمقتضى حكمته.[2]

وجملة (اللَّهُ الْخَالِقُ) تفيد القصر بتعريف طرفي الجملة الاسميَّة، أي الله هو الخالق لا أصنامهم. وهذا إبطال لإلهية ما لا يخلق. قال تعالى: (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) [سورة النحل:٢٠]، وقال: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) [سورة النحل:١٧].[3]

الْبَارِئُ: اسم فاعل من برأ، والبارئ: منشئ الأشياء، وموجد ما يريد إيجاده بريئاً من التفاوت والتنافر في خلقه، مميزاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة.

الْمُصَوِّرُ: مكوِّن صور المخلوقات ومركبها على هيئات وكيفيَّات مختلفة.[4]

فالتصوير مرتب على الخلق والبرء، وتابع لهما، إذ هو التشكيل بعد الخلق، ولذلك قدَّم اسم الله (الخالق)، لأنَّ الإرادة مقدمة على تأثير القدرة.[5] ثم ذكر (البارئ) و(المصور) بعد (الخالق)؛ للتنبيه على أحوال خاصة في الخلق. كما قال

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ٢٥٦.

(٢) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٩، والبحر المحيط، ج٨/ ٢٤٩، وتفسير البيضاوي، ج٥/ ٣٢٤.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨ / ١١١.

(٤) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٠٩، والبحر المحيط، ج٨/ ٢٤٩، وتفسير القرطبي، ج١٨/ ٤٨، وتفسير البيضاوي، ج٥/ ٣٢٤، وتفسير أبي السعود، ج٨/ ٢٣٤.

(٥) انظر: اللباب، ج١٨/ ٦١٥، والتحرير والتنوير، ج٢٨/ ١١١.

تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ) [سورة الأعراف: ١١].

وإنَّما ذكرت هذه الصفات متتابعة؛ لأنَّ من مجموعها يحصل الإبداع الإلهي للإنسان، فابتدئ بالخلق الذي هو تقدير الإيجاد، ثم بالبرء الذي هو تكوين الإنسان، ثم بالتصوير الذي هو إعطاء الصورة الحسنة.

وخلق الإنسان في أرحام الأمهات يكون بالخلق ثم التشكيل بصورة وهيئة يعرف بها ويتميز عن غيره بسمتها. كما قال تعالى: (الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) [سورة الانفطار:٨،٧].(١)

لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى: تذييل الأسماء الحسنى بهذه الجملة؛ لمناسبتها لما تقدَّم ذكره من صفات الله تعالى. وقدَّم الخبر (له) على المبتدأ؛ لإفادة الحصر، أي: الأسماء الحسنى ليست إلا للّه تعالى.

وسمى اللّه سبحانه أسماءه بالحسنى؛ لأنَّها حسنة في الأسماع والقلوب، فإنَّها تدلُّ على توحيده، وجوده ورحمته وإفضاله.(٢)

والمراد بالأسماء الحسنى مدلولاتها وهي الصفات المذكورة آنفاً. وعبَّر عن الصفات بالأسماء؛ لأنَّه متصف بها على ألسنة خلقه؛ ولكونها بالغة منتهى حقائقها بالنسبة لوصفه تعالى بها، فصارت كالأعلام على ذاته تعالى.

يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: جملة في موضع الحال من ضمير (لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) يعني أنَّ اتصافه بالصفات الحسنى يضطر ما في السماوات والأرض على تعظيمه بالتسبيح والتنزيه عن النقائص بحاله أو بمقاله، بقصد أو بغير قصد. فالعقلاء يسبحون الله بالتنويه بأقوالهم بنظام الكائنات وعجيب اتساقها، وغيرهم يسبِّح الله بلسان الحال؛ تنويهاً ببديع الخلق، وعظمة الخالق عن طريق انتظام وجودها.

---

(١) انظر: اللباب، ج١٨/ ٦١٥، والتحرير والتنوير، ج٢٨ / ١١١ –١١٢.

(٢) التفسير المنير، ج٩/ ١٧٦.

وهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ: عطف على جملة الحال، وأوثر هاتان الصفتان، لشدة مناسبتهما لنظام الخلق؛ فالله يصوِّر خلقه وفق مقتضى الحكمة، وما يليق بأنظمة حياة كل صنف ونوع، وما يتناسب مع معاشه وكيفية تحصيل رزقه.(١)

الأساليب البلاغية:

١ _ **طباق**: بين الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ في قوله: (عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ)

٢ _ **القصر** بتعريف طرفي الجملة الاسميَّة في قوله: (اللَّهُ الْخالِقُ)، إذا قيل إن (هو) ضمير الشأن، و(الله) مبتدأ وخبره (الخالق). والقصر بتقديم ما حقه التأخير في قوله: (لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى)

٣ _ **رد العجز على الصدر**؛ في قوله: (يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فهذه الآية هي آخر آيةٍ في سورة الحشر، وهي تماثل أول آية فيها: (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

الفوائد والأحكام:

أولاً: حثَّ النبيُّ ﷺ على قراءة خواتيم سورة الحشر، في كل يومٍ وليلة، وورد في فضائل الآيات الثلاث من سورة الحشر آثارٌ، بعضها حسنٌ وبعضها ضعيف، وهي بمجموعها ترقى إلى درجة الحسن، ويُعمل بها في فضائل الأعمال. ومنها:

ما أخرجه الترمذي عَنْ مَعْقِلِ بن يَسَارٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِالسَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَقَرَأَ ثَلاثَ مِرَارٍ آخِرَ سُورَةِ الْحَشْرِ، وَكَّلَ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُمْسِي، وإِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَاتَ شَهِيدًا، ومن قَالَهَا حِينَ يُمْسِي كَانَ بتلِكَ المنزلة."(٢)

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٨/ ١١٣.

(٢) سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن، رقم (٢٩٢٢)، ج٥/ ١٨٢. قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب في فضل حم الدخان والحواميم والمسبحات، رقم (٣٤٢٣)، ج٢/ ٥٥٠.

وأخرج أيضاً عن الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ الْمُسَبِّحَاتِ، وَيَقُولُ: فِيهَا آيَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ"[1] والمسبّحات هي: سورة الحديد والحشر والصف، وسورة الجمعة والتغابن وسبح اسم ربك الأعلى.

وأخرج الدارمي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما، قال: "من قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر إذا أصبح فمات من يومه ذلك طبع بطابع الشهداء، وإن قرأ إذا أمسى فمات في ليلته طبع بطابع الشهداء"[2]

وأخرج البيهقي عن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ خواتيم الحشر في ليل أو نهار فمات من يومه أو ليلته فقد أوجب الجنة"[3]

ثانياً: الأحاديث الواردة في فضائل القرآن يُقصد بها الإشارة إلى السور والآيات التي خُصَّت بمزيد من الفضل، نظراً لفضائل معانيها، ومنها الآيات التي في أواخر سورة الحشر، التي تشتمل على تعديد أسماء الله تعالى وبيان صفاته والدلالة على عظمته. وكونها أفضل من غيرها، معناه أنَّ معانيها أسنى وأجل قدراً، كما قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: "كلام الله في الله أفضل من كلامه في غيره، فقل هو الله أحد أفضل من تبت يدا أبي لهب"[4]

ومن هنا يتبيَّن أنَّ فضل خواتيم سورة الحشر يرجع لما تضمنته من الدلالات على وحدانية الله وصفاته، ولما يترتَّب على الإيمان بها من عظيم الأجر، ولما فيها من معرفة صفات الله، وما تقتضيه هذه المعرفة من العمل بموجب العلم.

ثالثاً: وصف الله سبحانه أسماءه بالحُسن فقال: (لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

---

(١) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب منه، رقم (٣٤٠٦)، ج٥/ ٤٧٥. وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب في فضل حم الدخان والحواميم والمسبحات، رقم (٣٤٢٣)، ج٢/ ٥٥٠. وهذا الحديث صحيح الإسناد وهو موقوف.

(٣) شعب الإيمان، لأبي بكر البيهقي، باب في تعظيم القرآن، رقم (٢٥٠١)، ج٢/ ٤٩٢.

(٤) انظر: الإتقان في علوم القرآن، ج٢/ ٤١٨ –٤١٩.

وهذا يعني أنَّ صفات الله موصوفة بالحُسن والكمال، وكل اسم لا يفيد في المسمى صفة كمال وجلال لا يجوز إطلاقه على اللّه سبحانه.

وقد اتفق العلماء على أنَّ أسماء الله تعالى توقيفِيَّة، ولا تجوز تسميته إلا بما سمى به نفسه: مما جاء في كتابه عز وجل، وصح عن رسول الله ﷺ.

وأخرج الشيخان عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا - مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا - مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ."(١)

ولم تذكر الأسماءُ التسعة والتسعون في رواية الشيخين، ولكنها ذكرت في رواية الترمذي والحاكم وغيرهما. ففي سنن الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة: هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤْمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المُقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الوليُّ الحميد المُحْصِي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤَخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤُوف مالك الملك ذو الجلال والإكرّام المُقْسِط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور"(٢)

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحداً، رقم (٦٩٥٧)، ج٦/ ٢٦٩١، وصحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، رقم (٢٦٧٧)، ج٤/ ٢٠٦٢.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب منه، رقم (٣٥٠٧)، ج٥/ ٥٣٠. وقال الترمذي: هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث. وانظر: المستدرك على الصحيحين، كتاب الإيمان، رقم (٤١)، ج١/ ٦٢. وقال الحاكم: هذا حديث قد خرجاه في الصحيحين بأسانيد صحيحة من غير ذكر الأسامي فيه، والعلة فيه عندهما أن الوليد بن مسلم تفرد بسياقته بطوله، وذكر أسامي فيه ولم يذكرها =

وليس المقصود من الحديث حصر أسماء الله الحسنى في هذه التسعة والتسعين، وإنما المقصود بشارة من حفظ هذه الأسماء، ودعا الله بها بأنه من أهل الجنة، والحكمة في الاقتصار على هذه العدَّة: أنَّها الأسماء الجوامع، الدالة على ما عداها، مما لا يحصيه إلا الله تعالى. وقد أورد أبو بكر ابن العربي مائة وستة وأربعين اسماً من أسماء اللّه للتضرع والابتهال، وذكر في موضع آخر زيادة ثلاثين اسماً،[1] فصار المجموع مائة وستة وسبعين. ولا يوجد ما يمنع صنيع ابن العربي؛ لأنَّ الأسماء الحسنى ليست محصورة بالعدد تسعة وتسعين، لحديث عبد الله بن مسعود ﷺ، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: "أَسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أَنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك"[2]

UNIVERSITY OF ALEPPO

غيره، وليس هذا بعلة، فإني لا أعلم اختلافا بين أئمة الحديث أن الوليد بن مسلم أوثق وأحفظ وأعلم وأجل من أبي اليمان وبشر بن شعيب وعلي بن عياش وأقرانهم من أصحاب شعيب. وتابعه الذهبي.

(١) انظر: أحكام القرآن، ج٢/ ٧٩٨ - ٨٠٥.

(٢) المستدرك على الصحيحين، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، رقم (١٨٧٧)، ج١/ ٦٩٠. وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

جامعة
حلب
١٩٥٨
UNIVERSITY
OF
ALEPPO

تفسير سورة الملك

تعريفٌ عامٌّ بسورة الملك:

سورة الملك سورةٌ مكيَّة بالاتفاق. عدد آياتها: ثلاثون آية عند أكثر العلماء. وقال بعض القرَّاء آياتها: إحدى وثلاثون آيةً. والصحيح هو القول الأول لورود الأحاديث والأخبار في النصِّ على ذلك.(١) منها: الحديث الذي أخرجه الحاكم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "سورة في القرآن ثلاثون آيةً، شفعت لصاحبها حتى غُفِرَ له: (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)"(٢)

وأخرج الطبراني عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هِيَ إِلَّا ثَلاثُونَ آيَةً، خَاصَمَتْ عَنْ صَاحِبِهَا حَتَّى أَدْخَلَتْهُ الْجَنَّةَ، وَهِيَ سُورَةُ تَبَارَكَ".(٣)

وسورة الملك هي السورة السادسة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة المؤمنون، وقبل سورة الحاقة.(٤)

أسماء سورة الملك، ووجوه تسميتها:

تعدَّدت أسماء سورة الملك؛ نظراً لتعدد جوانب خصوصيتها وفضلها، وقد ورد في الأحاديث والآثار من أسمائها:

أولاً: سورة الملك: وهذ الاسم هو الشائع في أكثر المصاحف، وفي كتب

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، ج١/ ٢٣٧.

(٢) المستدرك على الصحيحين، كتاب فضائل القرآن، باب ذكر فضائل سور وآي متفرِّقة، رقم (٢٠٧٥)، ج١/٧٥٣. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

(٣) المعجم الأوسط، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ط١/ ١٤١٥هـ، باب من اسمه سليمان، رقم ٣٦٥٤، ج٤/٧٦.

(٤) انظر: البيان في عدِّ آي القرآن، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث/ الكويت، ط١/ ١٤١٤هـ -١٩٩٤م، ص ١٣٦.

السنة والتفسير، فقد ترجم البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، باباً بعنوان: (باب تفسير سورة الملك)،[1] وترجم لها الترمذي بعنوان: (باب ما جاء في فضل سورة الملك).[2]

ثانياً: (تبارك الذي بيده الملك): تسميَةً بالجملة القرآنية التي وقعت في أول السورة. أخرج الحاكم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: سورةٌ من القرآن ثلاثونَ آيةً، شفعت لرجل حتى غُفِر له، وهي: "تبارك الذي بيده الملك"[3]

ثالثاً: (تبارك الملك): بمجموع الكلمتين؛ لتعريف السورة بهاتين الكلمتين على حكاية اللفظين الواقعين في أولها مع اختصار ما بين الكلمتين؛ لتمييز هذه السورة عن سورة الفرقان التي تُفتَتَح بقوله تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ) [سورة الفرقان:١]. أخرج الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ أتى النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله إني ضربت خبائي على قبرٍ، وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة (تبارك الملك) حتى ختمها، فقال رسول الله ﷺ: هي المانعة، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر.[4]

رابعاً: المانعة: أخرج النسائي عن ابن مسعود ﷺ قال: "من قرأ (تبارك الذي بيده الملك) كل ليلة منعه الله بها من عذاب القبر، وكنا في عهد رسول الله ﷺ نسميها المانعة."[5]

فضائل سورة الملك: ورد في فضل هذه السورة أحاديث كثيرة، منها:

قول رسول اللّه ﷺ: «سورة في القرآن ثلاثون آية شفعت لصاحبها حتى

---

(١) انظر: صحيح البخاري، ج١٨٦٩/٤.

(٢) انظر: سنن الترمذي، ج١٦٣/٥.

(٣) سبق تخريجه، وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٤) سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل سورة الملك، رقم (٢٨٩٠)، ج١٦٤/٥. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٥) سنن النسائي الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب الفضل في قراءة تبارك الذي بيده الملك، رقم (١٠٥٤٧)، ج١٧٩/٦.

غُفِرَ له: تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ»[1]

وقول النبيّ ﷺ في شأن سورة الملك: "هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر".[2]

وقوله ﷺ في شأن هذه السورة: "وددت أنَّها في قلب كل مؤمن.[3]

وقد كان الصحابة ﷺ يحرصون على قراءتها، وحفظها وتعليمها.

وقد لخَّص ابن عباس رضي الله عنهما فضلها في قوله لرجلٍ: "ألا أطرفك بحديثٍ تفرح به؟ قال الرجل: بلى يا أبا عباس، رحمك الله، قال: اقرأ: "تبارك الذي بيده الملك" واحفظها، وعلِّمها أهلك وجميع ولدك، وصبيان بيتك وجيرانك؛ فإنَّها المنجية، وهي المجادلة، تجادل وتخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له إلى ربها أن ينجيه من النار إذا كانت في جوفه، وينجي الله بها صاحبها من عذاب القبر."[4]

أهداف سورة الملك ومقاصدها:

ترتبط أهداف هذه السورة باسمها؛ إذ تتجه السورة في مقصدها إلى ذكر الأسباب التي تستوجب الإيمان بالله، وعبادته، والخضوع له، ومنها: اتصافه سبحانه بكمال الملك، وما يلزم عن ذلك من تمام القدرة، وتمام العلم، وحتميَّة البعث من أجل جزاء الناس بما هم عليه من الصلاح والعناد، كما هي عادة الملوك في دينونة رعاياهم؛ لتكتمل حكمة الملك وتتم.[5]

ومما يؤكِّد على محوريَّة هذا المقصد افتتاح السورة بالفعل (تَبَارَكَ) الذي

---

(١) سبق تخريجه من المستدرك. وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه.

(٢) سبق تخريجه من سنن الترمذي. وهو حديث حسن غريب.

(٣) المستدرك، كتاب فضائل القرآن، باب ذكر فضائل سور وآي متفرّقة، رقم (٢٠٧٦)، ج١/٧٥٣. قال الحاكم: هذا إسناد عند اليمانيين صحيح ولم يخرجاه.

(٤) المنتخب من مسند عبد بن حميد، مسند ابن عباس رضي الله عنهما، رقم (٦٠٣)، ج١/ ٢٠٦.

(٥) انظر: نظم الدرر، ج٨/ ٦٢.

يدلُّ على منتهى الكمال الإلهي، ويؤذن بأن ما حوته السورة من موضوعات يدور في جملته حول تنزيه الله تعالى عن النقص، وما يلزم عنه من وجوب الخضوع له،[1] ولذلك نجد موضوعات السورة تدور حول أمرين:

الأول: بيان الأدلة التي تثبت وجود اللّه، وعظمته، وقدرته، ووحدانيته، وتفرده بالملك والسلطان؛ استدلالاً بما يظهر في العوالم من مظاهر القدرة والعلم الدالَّة على تفرُّد الله سبحانه بالإلهية، ومن مظاهره ذلك:

أ _ تصرفه سبحانه في الوجود بالإحياء والإماتة.

ب_ خلق السموات بإتقان بالغ، وتزيينها بالكواكب والنجوم المضيئة.

ج _ خلق الأرض، وتذليلها للعيش عليها، وما أقامه فيها من نظام محكَم يلائم حياة الناس، وسعيهم فيها لتحصيل أرزاقهم.

د _ حفظ الأرض من الخسف، وحفظ السماء من إنزال الحجارة المدمِّرة.

هـ _ إمساك الطيِّر في الهواء، وخلق أسباب حفظها من السقوط.

الثاني: إثبات البعث والجزاء، وما يستتبع ذلك من الحديث عن أهوال القيامة، والجنَّة والنار.

وفي هذا السياق حذَّر الله الكفَّار من الاستخفاف بوعيده وعذابه، وأنذر المكذِّبين بالعذاب، وتغوير الماء في الينابيع، وبيَّن أن لا أحدَ في الكون يقدر على نصرة الكافرين، ودرأ العقاب عنهم في الدنيا والآخرة.

مناسبة سورة الملك لما قبلها:

سورة الملك تؤكد مضمون سورة التحريم في جملتها، فسورة التحريم تظهر سعة علم الله، إذ تخبر النبي ﷺ بما فعلته السيدة حفصة رضي الله عنها من إفشاء سرِّ النبي ﷺ لإحدى نسائه، وتذكر الحديث الذي جرى بينهما سرَّاً، يقول

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ٨.

الله: (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ) [سورة التحريم:٣] وسورة الملك تؤكّد هذا المعنى، إذ يقول الله تعالى: (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) [سورة الملك:١٣].(١)

ودلَّت سورة التحريم على أنَّ الثواب والعقاب يتعلَّقان بعمل الإنسان وحده، فمن أعرض عن الله سبحانه أهلكه ولم يغن عنه أحد، ومن أقبل على الله سبحانه رفعه واصطفاه ولم يضره أحد. ففي أخر السورة يذكر الله امرأتين كانتا تحت عبدين صالحين، لكنهما حُرِمتا من الاستنارة بنورهما والعمل بهديهما، فلم يغنِ عنهما من الله شيئاً زواجهما بنبيين من أنبياء الله. يقول الله تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) [سورة التحريم:١٠]. ثم أعقب بذكر امرأة فرعون التي آمنت بالله، ولم يضر بإيمانها وجزائها اتصالها بفرعون الطاغية الجبار العنيد، كما ذكر مريم العذراء التي لم يزعزع إيمانها حملها غير المعهود بعيسى عليه السلام. يقول الله تعالى: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) [سورة التحريم:١١، ١٢] ثم جاءت سورة الملك لتؤكّد في جملتها هذا المعنى في قوله تعالى: (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ) [سورة الملك:٢٠]، وقوله: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) [سورة الملك:٢٨](٢)

(١) انظر: التفسير المنير، ج٢٩/ ٥ –٦.

(٢) انظر: نظم الدرر، ج٨/ ٦٢ –٦٣.

من مظاهر قدرة الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ (٥) [سورة الملك: ١ – ٥]

مناسبة الآيات لما قبلها:

في ختام سورة التحريم ضرب الله مثلاً للكفار بامرأتين حكم عليهما بالشقاوة، بسبب كفرهما، ولم يمنع عنهما عذابه زواجهما بنبيين، وضرب مثلاً للمؤمنين بآسية امرأة فرعون التي حكم لها بالسعادة، ولم ينقص من ثوابها شيئاً كونها امرأة لرجل كافرٍ متكبّر على الاعتراف بألوهيَّة الله، ثم ذكر مشهداً من مظاهر قدرته، وهو حمل السيدة مريم بعيسى عليه السلام من غير أبٍ. وهذا يدلُّ على كمال ملك الله وتصرُّفه في ملكه على ما سبق قضاؤه تصرّفاً مطلقاً، وذلك يستوجب تمجيد من بيده المُلك، ولذلك افتتحت سورة الملك بقوله تعالى: (تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[1]

معاني المفردات:

تَبارَكَ: تعاظم عن كل ما سواه في ذاته وفي صفاته وفي أَفعاله، وكثر خيره

(١) انظر: البحر المحيط، ج٨/ ٢٩١.

وإنعامه، من البركة: وهي النماء والزيادة الحسيَّة أو المعنويَّة.

بِيَدِهِ الْمُلْكُ: تحت قدرته وطوع أَمره ملك السموات والأَرض، والتعبير باليد مجاز عن قدرة اللّه وسلطانه، ونفاذ تصرُّفه في ملكه.

شيءٍ: الشيء: ما يصح أن يُعلم ويخبَرعنه.

لِيَبْلُوَكُمْ: ليختبركم.

الْعَزِيزُ: القوي الغالب الذي لا يغلبه شيء، ولا يعجزه عقاب المسيء.

طِباقاً: متطابقةً بعضها فوق بعض، ومتماثلة في الإتقان ودقَّة الصنع.

تَفاوُتٍ: تباين وتناقض، واضطراب واختلاف.

فُطُورٍ: شقوق وصدوع. جمع فَطْر، وهو الشقُّ. يقال: فَطَر نابُ البعير؛ إذا شَقَّ اللحم وظهر.

كَرَّتَيْنِ: مرة بعد مرة، وكرة بعد كرة، والمراد بذلك التكرار بكثرة.

يَنْقَلِبْ: يرجع.

خاسِئاً: الخاسئ: هو المبعد عن الشئ الذي طلبه.

حَسِيرٌ: كليل منقطع عن إدراك المطلوب. والحُسور: هو الإعياءِ والتعب.

بِمَصابِيحَ: بنجوم وكواكب مضيئة، جمع مصباح.

وَأَعْتَدْنا: هيَّأنا، وأصله أعددنا، قلبت الدال الأولى تاء لتقارب مخرجها.

السَّعِيرِ: النار المستعرة الموقدة.

القراءات والإعراب:

مِن تَفَاوُتٍ: قرأ حمزة والكسائي (مِنْ تَفَوُّتٍ) بغير ألف وتشديد الواو. وقرأ الباقون (مِنْ تَفَاوُتٍ) بالألف وتخفيف الواو. وهما بمعنى واحد.[1]

---

(١) النشر، ج٢/٤٢٩.

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ: يجوز أن يكون الموصول تابعاً للعزيز الغفُورِ: نعتاً له. ويجوز أن يكون منقطعاً عنه: خبر مبتدأ محذوف، أو مفعول فعل مقدر.

طِباقاً: جمع طبق كجمل وجِمال، أو جمع طَبقَة كرحبة ورحاب. وفي إعرابها وجوه: صفة لـ(سَبْع)، من الوصف بالمصدر، أو على حذف مضاف، أي: ذاتَ طباق، أو منصوب بفعل مقدر، تقديره: طوبقت طباقاً.(١)

الأساليب اللغوية:

تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

افتُتحت السورة بفعل (تَبارَكَ) المشتق من البركة، وهي: زيادة الخير ونمائه. وقد جاء الفعل على وزن (تَفَاعَلَ) الذي يدلُّ على المبالغة؛ للدلالة على غاية الكمال ومنتهى التعظيم، وهذا الفعل يختصُّ بالله، ولا يجوز استعماله في حق غيره، وهو يدلُّ على كمال جميع الصفات الثابتة لله تعالى، ويفيد نماء الخيرات على الدوام بحسب حدوثها، أو حدوث متعلقاتها.(٢)

وصيغة الفعل (تبارك) مشتركة بين الخبريَّة والإنشاء. وتحتمل وجهين: (٣)

الأول: أن يكون المراد بها مجرد الإخبار عن عظمة الله تعالى وكماله.

والثاني: أن يكون المراد إنشاء الثناء على الله سبحانه، أثنى الله على نفسه؛ ليعلِّم الناسَ كيفيَّة الثناء عليه، كما في قوله: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [سورة الفاتحة: ٢].(٤)

وقد أُسنِد الفعل (تبارك) إلى الاسم الموصول، ولم يقل (تبارك الله):

أ _ للإستشهاد بما في حيز الصلة على تحقق مضمون الفعل؛ والمعنى: أنَّ الله

---

(١) انظر: البحر المحيط، ج٨/ ٢٩٢.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، ج٢/٩، وروح المعاني، ج٣/٢٩، والتفسير المنير، ج١٠/٢٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج ١٣٠/٨.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج ٩/٢٩.

كامل الإحاطة والإستيلاء؛ لأنَّ الملك بيده.[1]

ب_ للإيذان بأن معنى الصلة، مما اشتهر به، فأغنى عن التصريح باسم العلم؛ لاستوائهما في الاختصاص به؛ لظهور العلم أنَّ الاختصاص بالملك الكامل المطلق ليس إلا لله.[2]

بِيَدِهِ الْمُلْكُ: (المُلك) جميع الموجودات، والتعريف في (الْمُلْكُ) تعريف الجنس الذي يشمل جميع أفراده، ويفيد الاستغراق.

واليد مجاز عن الإحاطة الكاملة بالملك والاستيلاء عليه والتصرف فيه، والظرفية هنا مجازية، مستعملة في معنى إحاطة قدرته بحقيقة الملك، والمعنى: لا شي من الموجودات إلا وهو تحت تصرُّف الله.[3]

ويجوز أن يكون التركيب على سبيل الاستعارة التمثيلية، شبه الله الهيئة المعقولة المركبة من التصرف المطلق في الممكنات الموجودة والمعدومة بالإمداد والتغيير والإعدام والإيجاد بهيئة إمساك اليد بالشيء المملوك؛ تشبيه معقول بمحسوس في المركَّبات.[4]

وتقديم المسند (بِيَدِهِ) على المسند إليه (المُلك)؛ لإفادة الاختصاص، أي: الملك بيده لا بيد غيره. وهو قصر ادعائي مبني على عدم الاعتداد بملك غيره، ولا بما يتراءى من ملك الملوك الذي يتوهمه الناس مُلكاً؛ لأنَّ كلَّ ذلك ملكٌ غيرُ تامٍ؛ لأنه لا يعمُّ المملوكات كلها، ولأنه معرَّض للزوال، وملك الله هو الملك الحقيقي. قال تعالى: (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) [سورة طه:١١٤].[5]

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ: هذه الجملة معطوفة على جملة (بِيَدِهِ الْمُلْكُ)،

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، ج٢/٩، وروح المعاني، ج٣/٢٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج ٩/٢٩.

(٣) انظر: الكشاف، ج٥٧٩/٤، وتفسير أبي السعود، ج٢/٩، والتحرير والتنوير، ج٢٩/ ٩.

(٤) انظر: روح المعاني، ج٣/٢٩، والتحرير والتنوير، ج ١٠/٢٩، والتفسير المنير، ج٨/٢٩.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ج ١٠/٢٩.

وهي تفيد التعميم بعد التخصيص، قصداً إلى تتميم معنى الصلة، لأن جملة الصلة (بِيَدِهِ الْمُلْكُ) تفيد عموم التصرف التام في الموجودات على مقتضى إرادته سبحانه ومشيئته من غير منازع ولا متصرف فيها غيره سبحانه كما يؤذن به تقديم الظرف.

وجملة (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تفيد عموم تصرفه في الموجودات والمعدومات: بالإعدام للموجودات والإيجاد للمعدومات، فيكون قوله: (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) مفيداً معنى القدرة الكاملة الشاملة، ولو اقتصر على جملة الصلة (بِيَدِهِ الْمُلْكُ) لأوهم أنَّ تصرفه تعالى مقصور على تغيير أحوال الملك، كما يُشاهد من تصرف أصحاب الملك المجازي، لكنه عطف عليها جملة (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)؛ ليؤذن بأنه سبحانه قادر على التصرف بإيجاد الأعيان المتصرف فيها، وإيجاد عوارضها الذاتية.(١)

وتقديم المجرور في قوله: (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)؛ للاهتمام بما فيه من التعميم، ولإبطال دعوى المشركين نسبتهم الإلهية لأصنامهم مع اعترافهم بأنَّها لا تقدر على خلق السماوات والأرض، ولا على الإحياء والإماتة.(٢)

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ

لما شمل قوله: (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تعلق القدرة بالموجود والمعدوم أتبع بالاستلال على ذلك بصفة الخلق؛ لأن الخلق أعظم متعلقات القدرة.

وأوثر بالذكر خلق الموت والحياة؛ للدلالة على كمال صنع الصانع، لأنَّ الموت والحياة من أعظم العوارض التي تعرض للإنسان، وفيهما عبرة بتداول العرضين المتضادين على معروض واحد، فالإماتة تصرف في الموجود بإعداده للفناء، والإحياء تصرف في المعدوم بإيجاده، ثم إعطائه الحياة؛ ليستكمل وجود

(١) انظر: روح المعاني، ج٢٩/ ٣، والتحرير والتنوير، ج ١٠/٢٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج ١١/٢٩.

نوعه.[1]

وقد ذهب جهور أهل السنَّة إلى أنَّ **الْمَوْتَ** صفة وجودية مضادة للحياة، ومعناه: انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقتها له، واستدلوا على أنَّ الموت أمر وجوديٌّ بنصِّ الآية (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ)، فهذه الآية تدلُّ على أنَّ الموت مخلوق، خلافاً للعدم الذي لا يتعلَّق الخلق به. وهذا القول هو الراجح.[2]

وذهب القدرية وبعض أهل السنة إلى أنَّ الموت كيفيَّة عدميَّة، وهو انعدام صفة الحياة، وإليه ذهب ابن عاشور، وأجابوا عن الإستدلال بالآية:

أ - الخلق هنا بمعنى التقدير، وهو يتعلق بالعدميِّ كما يتعلق بالوجودي.

ب - الخلق بمعنى الإثبات غير الإيجاد، وهذا المعنى يجري في العدميات.

ج - المراد بخلق الموت والحياة خلق زمان ومدة معينة لهما لا يعلمها إلا الله، وإيجادهما عبارة عن إيجاد زمانهما مجازاً.

د - الكلام على تقدير مضاف، أي: خلق أسباب الموت.

هـ - كُنِّيَ بالموت عن الدنيا؛ إذ هو واقع فيها، وبالحياة عن الآخرة من حيث إنَّه لا موت فيها، فكأنَّه قال: الذي خلق الدنيا والآخرة.[3]

والأرجح أنَّ الموت والحياة هنا بمعناهما الحقيقي، وأنَّ المراد: الموت الطارئ، الذي تكون الحياة قبله.

والحياة: تعلُّق الروح بالبدن واتصالها به، وهي صفة وجودية بلا خلاف.[4]

وقدَّم الموت على الحياة؛ لأنَّ الموت إلى القهر أقرب، ولأنَّه في الوجود أقدم؛ إذ إنَّ الأشياء في الابتداء كانت في حكم الموت كالتراب والنطفة والعلقة، ونحو

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج ١١/٢٩.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، ج ٢/٩، وروح المعاني، ج ٤/٢٩.

(٣) انظر: روح المعاني، ج ٤/٢٩، والتحرير والتنوير، ج ١٢/٢٩.

(٤) انظر: اللباب، ج١٩/ ٢٢٤.

ذلك ثم طرأ عليها الحياة، ويشهد لذلك قوله تعالى: (وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ) [سورة البقرة:٢٨]، ولأنَّ تقديم الموت أنسب للغرض المسوق له الآية، والذي دلَّ عليه قوله تعالى: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)؛ فإنَّ من نصب الموت بين عينيه، كان ذلك من أقوى الدواعي له إلى العمل الصالح.(١)

لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً: اللام في (لِيَبْلُوَكُمْ) للتعليل، والتعليل هنا لا يقتضي انحصار عِلَل الخلق في العلة المذكورة؛ فإن الفعل الواحد تكون له عللٌ متعددة، فيُذكَر منها ما يستدعيه المقام. والآية تذكر مِن عِلَل الخلق علَّة الاختبار والجزاء، وذلك ما تضمنه قوله: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً).(٢)

والابتلاء: الاختبار والامتحان؛ لمعرفة المطيع والعاصي والتمييز بينهما، وذلك في حقِّ الله محال، لأنَّ الله عليمٌ بأحوال جميع المعلومات؛ لذا يُصرَف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز، ويكون الابتلاء هنا مجاز عن إظهار العلم.

والمعنى: خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون؛ ليعاملكم معاملة تشبه الاختبار، إذ أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل، وسلط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن، وتركِ العملِ القبيحِ؛ لأنَّ وراءه البعث والجزاء الذي لا بد منه؛ ليظهر لكم أنَّ تفاوت جزاءكم في الآخرة مُرتَّبٌ على تفاضل أعمالكم في الدنيا.(٣)

و(**أَحْسَنُ**) اسم تفضيل. وفي الآية إيجاز، والتقدير: ليظهر أيُّكم أحسن عملاً، وأيُّكم أقبح عملاً، فالأعمال الصالحة يدلُّ عليها منطوق الآية، والأعمال السيئة يدلُّ عليها المفهوم (فحوى الكلام)؛ لأنَّ البلوى في أحسن الأعمال تقتضي البلوى في السيئات أيضاً؛ لأنَّ الجزاء في السيئات أولى؛ لما يترتب عليها من الاجتراء

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي، ج٥/٣٦٠، وتفسير القرطبي، ج١٨/٢٠٦، واللباب، ج١٩ / ٢٢٣ – ٢٢٤، وتفسير الخازن، ج٧/ ١٢٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ١٣.

(٣) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٨٠، ومفاتيح الغيب، ج٣٠/ ٤٩، والتحرير والتنوير، ج٢٩/ ١٣.

على الشرع، ومن الفساد في النفس، وفي نظام العالم، وذلك أولى بالعقاب.

ومعنى الآية: خلق الموت والحياة؛ ليكون منكم أحياء يعملون الصالحات والسيئات، ثم أمواتاً يخلصون إلى يوم الجزاء، فيجزون جزاءً يليق بأعمالهم.[1]

وجملة: (**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**) تذييل لجملة (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) متعلقة بمضمونها، فأما (**العزيز**) فهو الغالب الذي لا يعجز عن شيء، وذكره مناسب للجزاء على المخالفات والنكول عن الطاعة. وهذا حظُّ المشركين الذين شملهم ضمير الخطاب في قوله: (لِيَبْلُوَكُمْ)، وأما (**الغفور**) فهو الذي يكرم أولياءه ويصفح عن زلاتهم، وذلك مناسب للجزاء على الطاعات، وهو إشارة إلى حظِّ أهل الصلاح من المخاطبين.[2]

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ

في مطلع السورة وصف الله نفسه بالقدرة المطلقة الشاملة، فقال: (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، ثم ذكر من مظاهر قدرته: خلق الموت والحياة، وهما من أهم الأعراض التي تطرأ على الإنسان، وأعقب هنا بالتذكير بخلق السماوات، وهي من أعظم الموجودات الدالة على قدرة الله، ووجه دلالتها على القدرة: أنَّها تبقى في جو الهواء معلَّقة بلا عماد، قال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها) [سورة الراعد: ١٣].[3]

والسماء: مادة لا يعلم حقيقتها إلا اللّه، وقد اجتهد العلماء في بيان حقيقتها، بحسب ما بلغه العلم في عصورهم: فقال بعضهم: هي الكواكب التي في مجموعة النظام الشمسي عدا الأرض.[4] ويعترَض عليه بأنَّ عددها ما عدا الأرض

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ١٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ١٤ –١٥.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/٥٠.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ١٥.

ثمانية كما أثبت علماء الفلك. وهي: عطارد، الزهرة، المريخ، المشتري، زُحَل، أورانوس، نبتون، بلوتو.

ولا يمكن أن يقال: إنَّ النجوم والكواكب هي السماء؛ لأنَّ الله وصف الكواكب بأنَّها زينة السماء الدنيا، فقال: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ) [سورة الصافات:٦]. وهذا يعني أن الكواكب ليست هي السماء.

وقال آخرون: السموات هي مدارات الكواكب،[١] (فراغ تدور فيه الكواكب)، وهذا القول يخالف نصوص القرآن التي وصفت السماء بالبناء المحكم المتماسك، قال تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً) [سورة البقرة:٢٢].

ولا تزال أبحاث علماء الفلك تتواصل في سبيل تحديد ماهية السماء، وموقعها وشكلها وأبعادها، وكلها نظريات لا تستند إلى أدلة يقينيَّة قطعيَّة يمكن الركون إليها للجزم بعلم يقينيٍ يتعلق بتلك الأمور، خاصَّة أن الله قد أخبر باستمرارية الخلق المتعلِّق بالسماء، فقال: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) [سورة الذاريات:٤٧]

طِبَاقاً: الطباق مصدر، ووصف السموات بالمصدر؛ للمبالغة، أو إنَّ الكلام على حذف مضاف، والتقدير: ذوات طباق.

والطباق لغةً يستعمل في معنيين: الشيء الذي يكون فوق الآخر، وما يوافق غيره. ولذلك فإنَّ وصف السموات بكونها طباقاً يحتمل معنيين:

الأول: أنَّها مرتفع بعضها فوق بعض.

الثاني: أنَّها متشابهة متماثلة، تشبه بعضها في النظام والإتقان.[٢]

---

(١) انظر: التفسير المنير، ج٢٩/١١.

(٢) انظر: النكت والعيون، ج٦/ ٥١، وتفسير القرطبي، ج١٨/ ٢٠٨.

مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ: هذه الجملة تقريرٌ لقوله تعالى: (خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً)؛ فإن نفي التفاوت يحقق معنى التطابق، أي التماثل. والمعنى: لا ترى في جميع ما في خلق الله تعالى من الأشياء تفاوتاً؛ فهي جميعاً في غاية الإتقان والإحكام، ويدخل في ذلك خلق السموات دخولاً أوليَّاً؛ بدلالة السِّياق، إذ وردت هذه الجملة بعد قوله: (خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً).

وبذلك يكون قول الله تعالى: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) تعليلاً لمضمون جملة (خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً)، أي: ترى السماوات متماثلة في الإحكام والإتقان؛ لأنَّها من خلق الرحمن.(١)

والتفاوت بوزن التفاعل: شدة الفوت، والفوت: البعد، وهو هنا مستعار للتخالف وانعدام التناسق؛ لأنَّ عدم التناسب يشبه البعد بين الشيئين، وهذا تشبيه للمعقول بالمحسوس. وليست صيغة التفاعل فيه لحصول فعل من جانبين، ولكنها للمبالغة.(٢)

وقد آثر النَّظم القرآنيُّ وصف (الرَّحْمَنِ)، ولم يأتِ باسم الجلالة أو ضميره؛ للإشعار بعلة الحكم، والإيماء إلى أنَ هذا النظام مما اقتضته رحمة الله سبحانه؛ فإنَّ في إبداع خلق السموات نعماً لا تُحصى؛ إذ أجرى الله خلقها على حالٍ يُلائِم نظام عيش الناس. قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) [سورة الأنعام: ٩٧] وقال: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ) [سورة يونس:٥].(٣)

فَارْجِعِ الْبَصَرَ: الفاء للتفريع على معنى التسبيب، حيث أخبر الله أولاً أنه لا

---

(١) انظر: المحرَّر الوجيز، ج٣١١/٥، والتحرير والتنوير، ج٢٩/ ١٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ١٦.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود، ج٣/٩، والتحرير والتنوير، ج٢٩/ ١٧.

تفاوت في خلق السموات، ثم قال: (فَارْجِعِ الْبَصَرَ) حتى يتضح لك انتفاء التفاوت بالنظر والمعاينة، ويكون معلوماً عن يقين من غير تقليدٍ للمخبِر.(١)

والتفريع بهذه الجملة؛ لتأكيد كونها محكمة متقنة، والمعنى: أنه لما قال: (مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ) كأنَّه قال بعده: ولعلك لا تَحكُم بمقتضى ذلك بالبصر الواحد ولا تعتمد عليه؛ بسبب أنه قد يقع الغلط في النظرة الواحدة، ولكن ارجع البصر وأعد النظر مرة أخرى، حتى تتيقن أنه ليس في خلق الرحمن من تفاوت ألبتة.(٢)

والبصر مستعمل في حقيقته. والمراد: البصر المصحوب بالتفكُّر والاعتبار بدلالة الموجودات على موجدها.

وصيغة الأمر للوجوب؛ فإن النظر في أدلة الصفات واجب لمن عرض له داع إلى الاستدلال.(٣)

والخطاب في قوله: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) وقوله: (فَارْجِعِ الْبَصَرَ) للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له الخطاب من غير تعيين فردٍ بعينه.(٤)

هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ: الفطور: الشقوق والصدوع. والاستفهام تقريري.

وأوثر الاستفهام بـ (هَلْ)؛ لأنَّ (هَلْ) تفيد تأكيد الاستفهام، وفي ذلك حثٌّ على التبصُّر والتأمُّل، للوصول إلى قناعة راسخة بانتفاء الفطور. والمعنى: بعد تكرار النظر لا يسعك إلا أن تعترف بانتفاء الفطور في خلق السموات، إذ تراها ملتئمة لا شقوق فيها. فإذا انشقت كان ذلك إيذاناً باختلال نظام العالم، وعلامة قيام الساعة، قال تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ) [سورة الانفطار:١].(٥)

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، ج٩/٤، والتحرير والتنوير، ج٢٩/ ١٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/٥١ -٥٢.

(٣) التحرير والتنوير، ج٢٩/١٧.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/٥١، والبحر المحيط، ج٨/٢٩٢، وتفسير أبي السعود، ج٩/٤.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ١٨.

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ: العطف بـ (ثُمَّ) هنا يدلُّ على التراخي الرتبي؛ لأنَّ مضمون الجملة المعطوفة بـ(ثُمَّ) هنا أهم وأدخل في الغرض من مضمون الجملة المعطوف عليها؛ لأنَّ إعادة النظر تزيد العلم بانتفاء التفاوت رسوخاً ويقيناً.(١)

كَرَّتَيْنِ: تثنية كَرَّة، وهي المَرَّة، مشتقة من الكَرِّ، وهو العود إلى الشيء بعد الانفصال عنه. وتثنية (كَرَّتَيْنِ) ليس المراد بها عدد الاثنين الذي هو ضعف الواحد؛ إذ لا يتعلق غرض بخصوص بهذا العدد، وإنما التثنية مستعملة كناية عن مطلق التكرير، وذلك كما في قولهم: لبيك، أي: تلبيات كثيرة. والمعنى: أعد النظر والتأمل في خلق السماوات مرة بعد مرة، أي: مرَّات كثيرة بعضها في إثر بعضٍ، وإن كثرت.(٢)

ومما يدلُّ على أنَ المراد بالتثنية هنا الكثرة، لا حقيقة التثنية، قوله تعالى: (يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ)، فالبصر لا ينقلب خاسئاً حسيراً بمرتين فقط، وإنما يصير كذلك بمِرار كثيرة.(٣)

وأوثِرَ لفظ (كرتين) في الآية، ولم يقل: مرَّتين؛ لأنَّ كلمة كَرَّة لم يغلب إطلاقها على عدد الاثنين، فكان إيثارها في مقام لا يراد فيه اثنين أظهر؛ إذ إنَّها تُستعمَلُ في مطلق التكرير، من غير تقييد بعدد، خلافاً لتثنية (مرَّة)، فإنَّها أظهر في إرادة العدد، كما في الآية: (الطَّلاقُ مَرَّتَانِ) [سورة البقرة: ٢٢٩].(٤)

يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ: الانقلاب: الرجوع يقال: انقلب إلى أهله، أي: رجع إلى منزله. قال تعالى: (وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ) [سورة المطففين:٣١].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ١٨.

(٢) انظر: الكشاف، ج٥٨١/٤، ومفاتيح الغيب، ج٥٢/٣٠، وتفسير البيضاوي، ج٣٦١/٥، وتفسير أبي السعود، ج٤/٩، وروح المعاني، ج٧/٢٩، والتحرير والتنوير، ج١٨/٢٩.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ج٥٢/٣٠، والتفسير المنير، ج٨/٢٩.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج١٩/٢٩.

وإيثار (ينقلب) بدلاً من يرجع، لئلا يلتبس بفعل (ارْجِعِ) المذكور قبله.[1]

خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ: الخاسئ: الخائب، أي الذي لم يجد ما يطلبه. والحسير: الكليل المُتعَب. والمعنى: إذا نظرت إلى السماء مرة بعد مرة؛ لترى فيها شقوقاً وخُلَلاً رجع بصرك غير واجد ما حرص على رؤيته بعد أن أدام التأمل والفحص حتى تعبَ وكلَّ من شدة النظر والتأمل، وطول المعاودة، وكثرة المراجعة.[2]

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ

بعد بيان الإتقان في عموم ما خلق الله، انتقل القرآن إلى الحديث عمَّا في السماء الدُّنيا من الجمال والحسن والبهاء بعد بيان خلوها عن شائبة القصور، وهذ الأمر يدلُّ على بلوغ الخلق غايته في الإتقان. وإتقان صنع السماء الدُّنيا من مشمولات الإتقان في خلق السماوات السبع. وتخصيص السماء الدنيا بالذكر من بين أفراد العام: من باب ذكر المثال بعد بيان القاعدة الكليَّة، ولأنَّ السماء الدنيا أوضح دلالة على إتقان الصنع؛ لكونها نصب أعين المخاطبين.[3]

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا: تصدير الجملة بالقسم؛ لابراز كمال الاعتناء بمضمونها، والإعلام بأنَّه ينبغي أن يبعد العاقل عن إنكار شيء من صفات الكمال التي تُنسَبُ إلى الخالق.[4]

والتزيين: التجميل والتحسين، و(السَّمَآء الدُّنْيَا) أقرب السماوات إلى الأرض، وهي التي تراها أعين الناظرين. والدُّنيا على وزن (فُعلَى) تأنيث أفعل التفضيل، أي: أدنى السموات إلى الأرض.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/١٩.

(٢) انظر: المحرَّر الوجيز، ج٥/٣١١، وتفسير البيضاوي، ج٥/٣٦١، وتفسير أبي السعود، ج٩/٤، وروح المعاني، ج٢٩/٧.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود، ج٩/٤، والتحرير والتنوير، ج٢٩/١٩.

(٤) انظر: تفسير أبي السعود، ج٩/٤، ونظم الدُّرر، ج٨/٦٩.

بِمَصَابِيحَ: أي بكواكب كالمصابيح في الإضاءة، وسميت مصابيح؛ لأنَّها تضيء كالسِّراج، وهذا تشبيه بما يفعله الناس من تزيين مساجدهم وبيوتهم بالمصابيح، ولا يخفى أنَّ الكواكب والنجوم تفوق في ضيائها مصابيح الناس، لكن الكلام محمول على التشبيه البليغ، ووجهه: الاشتراك في حسن المنظر.(١)

وقد عدل عن تعريف (مصابيح) إلى التنكير، لإفادة التعظيم.(٢)

وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ: عود الضمير في (وَجَعَلْنَاهَا) يحتمل وجهين:

الأول: أنَّه يعود على (مَصَابِيحَ)، وليس المراد أنَّ الشياطين يرمون بأجرام الكواكب؛ لأنَّ الله جعل الكواكب زينة للسماء وهذا يقتضي بقاءها، والرجم بها يقتضي زوالها، فلا بد أن يكون المراد: الرجم بما ينفصل عنها من الشهب، من غير أن ينقص منها، كمثل قبس يؤخذ من النار وهي على حالها، ويشهد لهذا التأويل: قوله تعالى: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ، وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ، لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى، وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ، إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ) [سورة الصافات: ٦_١٠].(٣)

وإسناد الرجم إلى المصابيح جار على طريقة المجاز العقلي، من باب إسناد عمل بعض الشيء إلى جميعه، فإنَّ الشهاب منفصل من نار المصابيح، ومثله: إسناد الأعمال إلى القبائل؛ لأنَّ العاملين من أفرادها، ومنه: قوله تعالى: (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاَء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ) [سورة البقرة:٨٥]، أي: يقتل بعضكم بعضاً.(٤) وهذا القول هو الأرجح، وإليه ذهب جمهور المفسّرين.(٥)

الثاني: أنَ الضمير يعود على السماء، إما على تقدير: وجعلنا منها رجوماً.

---

(١) انظر: الكشَّاف، ج٥٨١/٤ –٥٨٢، وتفسير البيضاوي، ج٣٦٢/٥.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي، ج٣٦٢/٥، والتحرير والتنوير، ج٢٠/٢٩.

(٣) انظر: الكشاف، ج٥٨٢/٤، ومفاتيح الغيب، ج٥٣/٣٠، وتفسير أبي السعود، ج٤/٩.

(٤) انظر: روح المعاني، ج٩/٢٩، والتحرير والتنوير، ج٢٠/٢٩.

(٥) انظر: البحر المحيط، ج٢٩٤/٨، وتفسير اللباب، ج١٩/ ٢٣٣، وتفسير أبي السعود، ج٤/٩، والتحرير والتنوير، ج٢٠/٢٩.

بحذف حرف الجر. وإما على تنزيل المكان الذي صدر منه الرجوم منزلة نفس الرجوم، فهو مجاز عقلي.[1] وهذ القول مرجوح؛ لأنَّ الضمير يعود إلى أقرب مذكور وهو (المصابيح)، لذا يبعد عود الضمير على السَّماء.[2]

والرجوم: جمع (رَجْم)، مصدر أطلق على ما يُرجَم به، أي: ما يُرمى، فصار له حكم الأسماء الجامدة، ولذا جمع وإن كان الأصل في المصادر أنها لا تجمع.[3] والرجم بالشهب هنا حقيقة. وهو ما رجَّحه جمهور المفسرين. وقيل: معناه: وجعلناها ظنوناً ورجوماً بالغيب لشياطين الإنس، وهم المنجمون الذين ينسبون إلى النجوم أشياء على جهة الظن، ويعتقدون تأثير النجوم في السعادة والشقاوة. وهذا القول ضعيف ولا يساعده السياق.[4]

والشياطين: هي شياطين الجنِّ التي تسترق السمع؛ للاطلاع على غيب السموات، فترميها الشهب؛ لصرفها عن الاستماع. وهو الراجح، ويشهد له قوله تعالى: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ، وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ، إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ) [سورة الحجر:١٦-١٩] وقيل: هي شياطين الإنس وهم المنجمون، وهواحتمال ضعيف.[5]

وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ: أصل (أَعْتَدْنَا): أعددنا، بمعنى هيَّأنا، والإعداد يحتمل أنه إعداد تقدير، وهذا يحتمل الخلق يوم الجزاء، أو إعداد إيجاد وخلق، وإليه ذهب جمهور المفسرين. واستدلوا بهذه الآية على أنَّ جهنم مخلوقة حين نزول الآية، لأنَّ الفعل (أعتدنا) بصيغة الماضي؛ وذلك يعني الإخبار عن أمر قد انقضى حصوله.[6]

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ٢٠-٢١.

(٢) انظر: اللباب، ج٢٣٣/١٩، وروح المعاني، ج٨/٢٩، والتحرير والتنوير، ج٢٠/٢٩.

(٣) تفسير أبي السعود/ ج٤/٩، وروح المعاني، ج٩/٢٩، والتحرير والتنوير، ج٢٠/٢٩.

(٤) تفسير أبي السعود، ج٤/٩، وروح المعاني، ج١٠/٢٩.

(٥) انظر: البحر المحيط، ج٢٩٤/٨.

(٦) انظر: مفاتيح الغيب، ج٥٥/٣٠، واللباب، ج٢٣٧/١٩، وروح المعاني، ج١٠/٢٩.

والسعير: فعيل بمعنى مفعول، أي مسعورة، من: سعر النار، إذا أوقدها. والمعنى: هيَّأنا لهم في الآخرة عذاب النار الموقدة بعد الاحتراق في الدنيا بالشهب.

وقد جعل الله السعير عذاباً لشياطين الجنِّ مع كونهم خُلِقوا من عنصر النار؛ لأنَّهم ليسوا ناراً فقط في تركيبهم، لكن النار أغلب عناصرهم، فهي منهم كالتراب من بني آدم، ولذلك يتأثرون بها فيحترقون، ولأنَّ نار جهنم أشد من نار طبعهم، فإذا أصابتهم صارت لهم عذاباً.(١)

الأساليب البلاغيَّة:

١ _ **استعارة تمثيلية:** في قوله تعالى: (بِيَدِهِ الْمُلْكُ)، شبه الله الهيئة المعقولة المركبة من التصرف المطلق في الممكنات الموجودة والمعدومة بالإمداد والتغيير والإعدام والإيجاد بهيئة إمساك اليد بالشيء المملوك؛ تشبيه معقول بمحسوس. ويجوز أن يكون التعبير باليد (مجاز) عن الإحاطة الكاملة بالملك والاستيلاء عليه والتصرف فيه، ويكون (الْمُلْكُ) هنا حقيقة. وفي قوله: (لِيَبْلُوَكُمْ) استعارة تمثيلية، شبه معاملة اللّه لعباده بالابتلاء والاختبار.

٢ _ **طباق:** بين (الْمَوْتَ وَالْحَياةَ).

٣ _ **إطناب:** في قوله تعالى: (فَارْجِعِ الْبَصَرَ... ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ) بتكرار الجملة مرتين؛ لزيادة التنبيه والتذكير.(٢)

المعنى الإجمالي للآيات:

افتتح الله سبحانه سورة الملك بتمجيد نفسه، والثناء على ذاته بما هو أهله من الملك والسلطان والقدرة والعلم والحكمة، وأشار بأنَّ علَّة استحقاقه سبحانه للتعظيم والثناء: اتصافه بالمالكيَّة المطلقة للمخلوقات، فهو المالك

(١) انظر: روح المعاني، ج٢٩/١٠، والتحرير والتنوير، ج٢٩/٢١.
(٢) انظر: التفسير المنير، ج٢٩/٨.

الحقيقي يحكم ويتصرف ويدبر بعلمه وحكمته، إذ لا شريك له في الملك والتدبير والسلطان، فهو قادر قدرة مطلقة على إيجاد ما يريد وإعدام ما يريد من الموجودات، إذ هو الذي خلق الموت والحياة لحكمة أرادها، وهي اختبار المكلَّفين، ليميز أعمالهم ويبيّن الأسباب التي أدت إلى اختلاف مآلاتهم يوم القيامة، فمن ذكر وشكر وعمل عملاً صالحاً، كان من أهل الفلاح ومن سكَّان الجنان، ومن عصى وكفر كان من الخاسرين، أصحاب الجحيم، وذلك من مقتضى اتصافه بالعزَّة، إذ هو العزيز الغالب الذي لا يحول أحدُ بينه وبين تنفيذ مراده في مخلوقاته، وهو الغفور يغفر الذنوب للتائبين من عباده. وإنَّ من مظاهر ما يتصف به سبحانه من كمال القدرة وتمام السلطان، وما يلزم عنهما من اتصافه سبحانه بالعلم والحكمة أنه سبحانه قد خلق سبع سموات متماثلة في الإتقان والإحكام، متطابقة فوق بعضها من غير تماس، ومن غير أن ترى في خلقها تفاوتاً أو اختلافاً أو اضطراباً ومهما قلَّبت النظر في السموات بحثاً عن عيوب في خلقها، فلن تعود إلا خائباً غير ظافر بما تطلبه في بحثك من إيجاد العيوب، وإن أنفقت عمرك متأملاً باحثاً عما ما تبتغيه من إيجاد النقص. بل إنك لن تجد إلا كمال الإبداع وجمال الخلق، فهذه السماء التي تراها، والتي هي أقرب السموات إلى الأرض قد تزيَّنت بالنجوم والكواكب التي جعل الله منها شُهُباً ثواقب يُرمى بها شياطين الجن الذين يريدون استراق السمع، بقصد فتن الناس في الأرض عن دين الله. هؤلاء الشياطين المردة قد هيَّأنا لهم عذاب السعير يذوقون حرَّه ويصطلون به يوم القيامة جزاء كفرهم، وتجاوزهم الحدود التي حدَّدها الله لهم.

الفوائد والأحكام:

أولاً: يستدلُّ بالآيات التي في مطلع سورة الملك على كمال علم الله تعالى، فقد دلَّ الحسُّ على أنَ السموات أجسام مخلوقة على وجه الإحكام والإتقان، وكلُّ فاعل كان فعله محكماً متقناً لا بد أن يكون عالماً.

وهذا يدلُّ على أنَّ الله تعالى عالماً بالمعلومات، فإنَّ قوله: (مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ) إشارةٌ إلى كون السموات محكمة متقنة، وفيه دلالة على

علم الصانع.[1]

ثانياً: احتج الكعبي بقوله تعالى: (مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ) على أنَ المعاصي ليست من خلق الله تعالى؛ لأنَّ الله تعالى نفى التفاوت في خلقه، وذلك يدلُّ على أنَ أفعال العباد ليست من خلقه؛ لأنَّ فيها تفاوت؛ فبعضها جهل، وكذب، وسفه، ولا يليق نسبة خلق ذلك التفاوت إلى الله تعالى.[2]

والجواب: أنَ التفاوت المنفي في الآية هو التفاوت في خلق السموات، وعليه أجمع المفسرون، أما خلق المتناقضات فالآية لا تشمله، والدليل قول الله تعالى في أول السورة: (خلق الموت والحياة) وبين الموت والحياة تفاوت، وهو خالقهما جميعاً، ولا خالق لأحدهما غيره، وكذلك كفر الكافرين، وإيمان المؤمنين وإن كان بينهما تفاوت في الحكم، فليس بينهما تفاوت في الإيجاد والاختراع وإحكام الخلق.

فالتفاوت الذي ينافي الحكمة ليس في أنَّه سبحانه يوجد أنواعاً مختلفة، وإنما التفاوت أن يكون في النوع الواحد، والله تعالى قد خلق محمداً ﷺ وهو أفضل الخلق، وخلق إبليس، وهو شر الخلق، وخلق الخير والشرَّ لحكمة عظيمة؛ فوجود الأنواع المختلفة ليس تفاوتاً، بل هو عين الحكمة، أما لو خلق الله اثنين مختلفين في الطبعِ الواحد، وجعل كلاهما عَلَى الهدى، وجعلهما سواءً في العمل الصالح، ثُمَّ جعل فاعل الشرِّ في الجنة، وجعل فاعل الخير في النار، فهذا هو التفاوت.[3] وأمَّا ما ذكره الكعبي من الصفات المتناقضة فليس من التفاوت؛ لكون العباد عَلَى نوعين، والتفاوت المنفي: هو ما لا يليق أن يكون من أحد النوعين، فيكون في أحدهما ما يختلف عن الآخر.

ثالثاً: دلَّت الآيات القرآنيَّة على أنَّ الجنَّ مخلوق من النار، قال تعالى:

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٥١/٣٠.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج٥١/٣٠.

(٣) انظر: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للإمام القاضي أبي بكر محمد بن الطيّب الباقلاني (٤٠٣هـ)، تحقيق: العلامَّة محمد زاهد الكوثري، دارنشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، د.ط.١٣٦٩هـ -١٩٥٠م، ص ١٣٣. بتصرُّف.

(وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ) [سورة الحجر: ٢٧]، فكيف يعقل إحراق الجنّ المخلوق من النار بنار الشُّهُب، ونار السَّعير؟ والجواب: أنَ صفة النار التي خلق الله منها الجنَّ لا تشبه صفة نيران الشهب، فنار الشُّهب أقوى حالاً من نارهم التي خُلِقوا منها، ولذلك صار الأقوى مبطلاً للأضعف، ولأنَّ النَّار التي هي مادة خلقهم، تحولت فيهم إلى أَجسام أخرى قابلة للاحتراق، كما تحول بنو آدم من الطين إلى أَجسام خالية من الطين.[١]

جامعة حلب ١٩٥٨ UNIVERSITY OF ALEPPO

(١) انظر: اللباب، ج ١٦/ ٢٧٨.

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ (١١) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢)

[سورة الملك: ٦ –١٢]

مناسبة الآيات لما قبلها:

في الآية السابقة ذكر الله العذاب الذي أعدَّه للشياطين، فقال: (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ)

ثمَّ بيَّن في هذه الآيات أنَّ الإحراق بالنار ليس مختصاً بالشياطين، بل هو جزاء كلِّ من يكفر بالله من الإنس والجن، وفي سياق ذلك ذكر الأسباب التي استوجب بها أهل النار العذاب، ثم أتبع بذكر أسباب النجاة والفلاح.(١)

وفي الآيات السابقة أنَ الحكمة من الخلق هي الابتلاء، وأنَّ القصد من الابتلاء هو جزاء الناس بأعمالهم، فقال: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَواةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)، وأتبع في هذه الآيات بذكر جزاء المكذبين والمؤمنين، فقال مبيناً جزاء المكذبين: (وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ)، ثم أتبع ببيان جزاء المؤمنين فقال: (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ٥٥/٣٠، ونظم الدرر، ج٧٠/٨، والتفسير المنير، ج١٥/٢٩.

معاني المفردات:

شَهِيقاً: الشهيق: تردُّد الأنفاس في الصدر بصعوبة بالغة، بسبب البكاء ونحوه، أصله من جبل شاهق: شديد الطول. أي سمعوا صوتاً منكراً يشبه أنفاس المتغيظ الذي يتنفس بصعوبةٍ بالغةٍ.

تَفُورُ: تغلي بهم غلياناً شديداً.

تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ: تتمزَّق من شدَّة غضبها. والتمييز: الفصل بين المشتبهات.

تَمَيَّزُ: تتميز بمعنى تتقطع وتتفرق من شدَّة الغيظ، **والغيظ**: شدة الغضب.

فَوْجٌ: جَمَاعَةٌ.

سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها: الخزنة: حرَّاس جهنَّم، وهم مالك وأعوانه، جمع خازن.

إِنْ أَنْتُمْ: ما أنتم.

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ: أقروا بذنوبهم، والاعتراف: إقرار عن معرفة.

فَسُحْقاً: أسحقهم اللّه سحقاً، أي: أبعدهم اللّه من رحمته.

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ: يخافون الله وهو غائبون عن أعين الناس، فيطيعونه سراً وعلانية، ولا يعصونه. أو يخافون عذاب جهنَّم في الآخرة قبل معاينته؛ لأنَّهم يؤمنون بالبعث والجزاء.

القراءات والإعراب:

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا: خبر مقدَّم و(عذابُ جهنَّم) مبتدؤه.

وهي تَفُورُ: الواو حالية وجملة (هي تَفُورُ) حال من ضمير فيها. وجملة (تَفُورُ) خبر أول وجملة (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) خبر ثان عن ضمير (وهي)

فَسُحْقاً: منصوب على المصدر نائب مفعول لفعل مقدَّر. وقرأ الجمهور (فَسُحْقاً)

بسكون الحاء. وقرأه الكسائي وأبو جعفر (فَسُحُقاً) بضم الحاء.[1]

الأساليب اللغوية:

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

الجملة تتميم لما سبق بيانه في الآيات السابقة؛ لئلا يَتوهم أحدٌ أنَّ العذاب أُعدَّ للشياطين خاصة، أي: وكلُّ الذين كفروا بالله لهم عذاب جهنم.

وقد عُطفت هذه الجملة على ما قبلها بالواو؛ لأنَّ الواو تقتضي المغايرة بين المعطوفين، فنبَّه بالعطف على أنَّ في هذه الجملة زيادة فائدة، وهي الدلالة على شمولية العذاب لكل الجاحدين المنكرين.

وتقديم المجرور في الآية مع أنَّ حقَّه التأخير؛ للاهتمام بتعلقه بالمسند إليه والمبادرة به، وفي ذلك وعيد شديد للكفار والعصاة عامَّةً.

وَبِئْسَ الْمَصِيرُ: جملة حالية أو معترضة لإنشاء الذم، وحذف المخصوص بالذم لدلالة ما قبل (بِئْسَ) عليه. والتقدير: وبئس المصير عذاب جهنم.[2]

والمعنى: بئست جهنم مآلاً يؤول إليه الذين كفروا.

إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ

الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، جوابٌ لسؤال من يسأل: لماذا كانت جهنم مصيراً مذموماً للذين كفروا؟ فجاء الجواب بوصف أحوال النار وأهوالها، وقدم بذكر الأصوات المخيفة التي يسمعونها من لحظة إلقائهم فيها.

إِذَا أُلْقُوا فِيهَا: (إذا) ظرف متعلق بـ(سَمِعُوا) يدلُّ على الاقتران بين زمن الإلقاء، وزمن سماع الشهيق.[3]

---

(١) انظر: التبيان في إعراب القرآن، ج١٢٣٢/٢، وتحبير التيسير، ص ٥٨٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢١/٢٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٢/٢٩.

أُلْقُوا: أي: طُرِحوا في النار وقُذفوا، كما يُرمى الحطب في النَّار العظيمة.

سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا: ذكر المفسِّرون في تفسير هذه الآية وجوهاً:

الأول: سمع الكُفَّار صوت لهب النَّار الذي يشبه في فظاعته صوت الشَّهيق، وهو صوت الحمار، وأقبح الأصوات.

الثاني: سمع الكفار أصوات أهل النار الذين تقدَّم طرحُهم في النار.

الثالث: سمع الكفار من أنفسهم شهيقاً، كقوله تعالى: (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) [سورة هود:١٠٦].(١)

والقول الأول هو الراجح؛ لأنَّه أليق بمقام التفظيع، وأنسب لسياق ما سيأتي من المشاهد التصويرية التي تصف النار بأوصاف الحياة، ومشهد الشهيق منها، ولأنَّ اللام في قوله: (سَمِعُوا لَهَا) يقتضي أنَ الشهيق صوت النار؛ لأنَّ أصل اللام أن تكون للملك.(٢)

وَهِيَ تَفُورُ: تغلي بهم غليان المرجل بما فيه؛ من شدَّة الغضب.(٣)

تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنْ الْغَيْظِ

التمييز: الفصل، و(من) سببية، والغيظ: أشدُّ الغضب، والمعنى: قاربت النار أن تتقطع وتتمزق، بسبب غضبها الشديد على الكفار.

والظاهر أنَ المراد هنا وصف النار، ويحتمل أن يراد غيظ الزبانية، والأول أرجح؛ لأنَّ حال الزبانية يذكر بعد هذه الجملة.

وغيظ النار يحتمل أن يكون حقيقة بإدراك يخلقه الله لها، أو استعارة تمثيلية؛ للتعبير عن شدة حرِّ النار، إذ تمثِّل الجملة حال غليان النَّار وتصاعد ألسنة لهبها، بحال إنسان شديد الغيظ والحنق على عدوه، حريص على تسليط

---

(١) انظر: الكشَّاف، ج٥٨٢/٤ –٥٨٣، ومفاتيح الغيب، ج٥٦/٣٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٢/٢٩.

(٣) انظر: الكشَّاف، ج٤/ ٥٨٣.

الضرر على ما يغيظه. ونظير هذه الاستعارة: (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ) [سورة الكهف: ٧٧]، إذ مثَّل الجدار بشخص له إرادة.(١)

كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ، قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ

الجملة استئناف بياني أثاره وصف النار عند إلقاء أهل النار فيها؛ إذ يتساءل السامع عن سبب عن وقوع أهل النار فيها، فيأتي البيان بأنَّ السبب هو تكذيبهم رسل الله الذين أرسلوا إليهم، وإهمال النظر في دعوتهم والتدبر في مضمون رسالاتهم.(٢)

كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ: كلما: مركب من (كلَّ) اسم دال على الشمول، و(ما) الظرفية المصدرية، وتدل على عموم أزمان الإلقاء، فتعمُّ الملقَين، والمعنى: في كل وقت إلقاء جماعة يسأل خزنة جهنم الجماعة الملقاة في النار.(٣)

سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا: جيء بالضمائر العائدة إلى الفوج ضمائر جمع في (سألهم) ونحوه، لتأويل الفوج بجماعة أفراده.

وخزنة النار: هم الملائكة الموكل إليهم أمر جهنم، وهو جمع خازن للموكل بالحفظ، وهو الذي يخزن شيئً، أي يحفظه في مكان حصين، وإطلاقه على زبانية جهنَّم الموكلين بالعذاب مجاز مرسل.(٤)

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ: بيان لجملة (سألهم)، والاستفهام للتوبيخ والتقريع، ليزيدهم حسرة وندامة وعذاباً نفسيًّاً فوق عذابهم الجسدي.(٥)

والنذير: مصدر على وزن فعيل ويراد به اسم الفاعل، وهو المنذِر بالعقاب.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٢/٢٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٣/٢٩.

(٣) انظر: البحر المحيط، ج١٥/٦، والتحرير والتنوير، ج٢٣/٢٩.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٣/٢٩.

(٥) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٨٣، وتفسير أبي السعود، ج٥/٩.

والنعت بالمصدر؛ للدلالة على المبالغة في الإنذار، كأنَّ الرسل صاروا الإنذار عينه، من شدّة الحرص على التبليغ والإنذار.

أو هو مصدر مقدَّر بمضاف، أي: ألم يأتكم أهل نذير؟[1]

وعبَّر عن الرسل جميعاً بالواحد؛ إقامة للواحد مقام الكلِّ، أو على معنى الجنس، والمراد: ألم يأتِ إلى كلِّ فوجٍ منكم رسول.[2]

قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ: جملة معترضة أو استئنافية في سياق الحوار. والاختلاف في موقع الجملة مبنيٌّ على الاختلاف في تحديد مرجع الضمير في قوله تعالى: (إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ)

وقد جاء جواب أهل النار متضمِّناً الاعتراف بالخطأ مع إظهار الحسرة والندم، فابتدأ بحرف (بلى) المفيد نقيض النفي في الاستفهام فهو بمعنى: جاءنا نذير. و(قَدْ) المؤكدة لما دلَّت عليه (بلى)، مع زيادة التحقيق.

وعطف (فكَذَّبْنَا) على (جَاءَنَا) لإظهار الاغتمام؛ بسبب تفريطهم في قبُول قول المنذِرين.[3]

وعموم (شيء) في قوله: (مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) أي: من الوحي، يدل على أنهم كانوا يحيلون أن ينزل الله وحياً على بشر، ونظيره قوله تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) [سورة الأنعام: ٩١].[4]

إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ: مرجع الضمير في هذه الجملة يحتمل وجوهاً:

<u>الأول</u>: الضمير (أَنْتُمْ) يعود إلى الرسل، والكلام من قول الكفَّار، قالوا للرسل بعد قولهم: (مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) قالوا لهم: (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ)

---

(١) انظر: الكشاف، ج٥٨٣/٤، وتفسير البيضاوي، ج٣٦٢/٥-٣٦٣.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي، ج٣٦٢/٥-٣٦٣.

(٣) انظر: اللباب، ج٢٣٩/١٩، وتفسير أبي السعود، ج٥/٩، والتحرير والتنوير، ج٢٤/٢٩.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٤/٢٩.

أي: أنكروا أنَ الله نزل شيئاً من الوحي، ثم استجهلوا الرسل الذين أخبروهم أنَ الله تعالى أرسلهم إليهم، وعلى هذا الوجه من التأويل تكون جملة (قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) جملة استئنافية. وهذا التأويل هو الأظهر في اختيار بعض المفسرين.(١)

وعلى هذا الوجه من التأويل يكون القصر المستفاد من النفي والاستثناء في قوله: (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ) قصر قلب، أي ما حالكم التي أنتم متلبسون بها إلا الضلال، وليس الوحي الإلهي والهدى كما تزعمون.(٢)

الثاني: الضمير (أَنْتُمْ) يعود إلى الكفار، والجملة من قول الملائكة، خطاب توبيخ للكفار. وبذلك تكون جملة (قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) جملة معترضة. والاعتراض يشير إلى أنَّ الفوج قاطع كلام الخزنة بتعجيل الاعتراف بما وبخوهم عليه، وذلك من شدة الخوف.

وقد اختار ابن عاشور هذا الوجه، لأنَّ إعادة فعل القول في حكاية بقيَّة كلام الفوج في قوله تعالى: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ) تدلُّ على انقطاع الكلام بالاعتراض الواقع خلال حكايته.(٣)

الثالث: يحتمل عود (أَنْتُمْ) إلى الكفَّار، والجملة من كلام الرسل لمن كفر من أقوامهم، ثم حكى الكفار قول منذريهم على سبيل التحسُّر، أي: قالوا للخزنة: قد قالت لنا الرسل هذا فلم نقبله. وهذا الاحتمال ذكره الزمخشري.(٤)

فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ: الظرفية مجازية، شبَّه ركونهم للضلال بإحاطة الظرف بالمظروف. ووصف الضلال بـ (كبير) والمقصود: أي: شديد بالغ غاية ما يبلغ إليه

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٥٧/٣٠، والبحر المحيط، ج٢٩٤/٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٥/٢٩.

(٣) التحرير والتنوير، ج٢٤/٢٩.

(٤) انظر: الكشاف، ج٥٨٣/٤.

جنسه، حتى صار كأنَّه جسم كبير.[1]

والضلال: يحتمل أن يكون المراد به: ما كانوا عليه من الضلال في الدنيا، ويحتمل أن يكون المراد: الهلاك الذي هم فيه، أو سمُّوا العقاب الذي أدى إليه ضلالهم ضلالاً؛ لكونه ناشئاً عن الضلال، تسمية للسبب بالمسبّب.[2]

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ

الظاهر أنَّ هذه الجملة ليست جواباً على سؤال خزنة جهنم، وإنما هي قول قالوه في مجامعهم في النار تحسُّراً، أي: وقال بعضهم لبعض في النار.[3]

ويحتمل أن تكون جملة مقول القول مما حكاه الله تعالى عن الكفار، جواباً للخزنة حين قالوا: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)[4]

وذكروا ما يدل على انتفاء السمع والعقل عنهم في الدنيا، وهم يريدون سمعاً خاصاً وعقلاً خاصاً، فانتفاء السمع: الإعراض عن تلقِّي دعوة الرسل، والاستماع إليهم سماع طالبٍ للحقّ. وانتفاء العقل: ترك التدبر في آيات الرسل، وعدم الانتفاع بها.[5]

و(أَوْ) للتقسيم وليس للتخيير، وهو تقسيم باعتبار نوعي الأحوال التي تقتضي حسن الاستماع تارة إذا ألقي إليها إرشاد، وحسن التفهم والنظر تارة إذا دعيت إلى النظر من داعٍ غير أنفسها، أو من دواعي أنفسها.[6]

وتقديم السمع على العقل؛ مراعاةً للترتيب الطبيعي، لأنَّ الرسول إذا دعا، فأول المراتب أنه يسمع كلامه، ثم يتفكر فيه، فلما كان السمع مقدماً على

---

(١) التحرير والتنوير، ج٢٥/٢٩.

(٢) انظر: الكشاف، ج٥٨٣/٤، ومفاتيح الغيب، ج٥٧/٣٠، والبحر المحيط، ج٢٩٤/٨.

(٣) التحرير والتنوير، ج٢٥/٢٩.

(٤) مفاتيح الغيب، ج٥٧/٣٠.

(٥) انظر: الكشاف، ج٥٨٣/٤، ومفاتيح الغيب، ج٣٠/ ٥٧، والتحرير والتنوير، ج٢٥/٢٩.

(٦) التحرير والتنوير، ج٢٦/٢٩.

التعقل في الوجود قُدِّم عليه في الذكر.[1]

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ

فَاعْتَرَفُوا: أقرُّوا، والفاء هنا فصيحة، والتقدير: لما قالوا ذلك تبين أنَّهم قد أقرُّوا بذنبهم، أي: فهم محقوقون بما هم فيه من العذاب.[2]

بِذَنبِهِمْ: أي: بتكذيبهم الرسول، وذلك في قولهم: (فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيء). والذنب هنا مفرد في معنى الجمع، أي بذنوبهم، ولم يجمع لوجهين:

أ_ لأنَّه أضافه إلى جماعة، والإضافة إلى الجميع تغني عن جمع المضاف.

ب_ لأنَّ (ذنب) مصدر، والمصدر يصلح للواحد والجمع.[3]

فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ: السحق: البعد، منصوب على المصدر، أي: أسحقهم الله سحقاً، أي: باعدهم الله من رحمته مباعدة.[4]

والجملة دعاء عليهم بالإبعاد. وجاز ذلك فيه، وهو من قبل الله تعالى؛ لأنَّ هذا الأمر لا يقع إلا في الآخرة، فكأنَّه في حيز المتوقع الذي يدعى به، ولذلك نصُب المصدر بإضمار فعل، أمَّا إذا ثبت ووقع، فالوجه فيه الرفع، كما في قوله تعالى: (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) [سورة المطففين:١][5]

والفاء هنا للتسبب، أي: فهم جديرون بالدعاء عليهم بالإبعاد، واللام الداخلة على (سحقاً) لام التقوية؛ لأنَّ المصدر يعمل كعمل الفعل.

و(أَصْحَابِ السَّعِيرِ) يعم المخاطبين بالقرآن وغيرهم، وهذا التذييل يطابق في عمومه العموم الوارد في الجمل التي قبله.[6]

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/٥٧، والتحرير والتنوير، ج٢٩/٢٦.

(٢) التحرير والتنوير، ج٢٩/٢٦.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/٥٨، والتفسير المنير، ج٢٩/١٤.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/٥٨، وتفسير القرطبي، ج١٨/٢١٣.

(٥) البحر المحيط، ج٨/٢٩٤ –٢٩٥.

(٦) التحرير والتنوير، ج٢٩/٢٧.

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ

الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً جاء على سنن أساليب القرآن من تعقيب الرهبة بالرغبة، وكأنَّ المؤمنين يترقبون أن ينزل بيانٌ يميّزُهم عن أحوال المكذِّبين، فجاء الجواب الذي يترقبونه في هذه الجملة القرآنية.

والمعنى: لما ذكر الله ما أُعِدَّ للكافرين المعرضين عن خشية الله أعقبه بذكر ما أُعِدَّ للمؤمنين الذين يخافون الله ويخشونه في الغيب.(١)

وهذا التركيب (يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ) يحتمل معانٍ:

الأول: أنهم يخافون الله وهو غائبون عن أعين الناس، فيطيعونه سرَّاً وعلانيةً، ويمتثلون أمره حين يخلون بأنفسهم؛ ابتغاء رضوانه، لا ليرى الناس.

الثاني: أنهم يخشون الله بما خفي منهم، وهو قلوبهم وضمائرهم.

الثالث: أنهم يخافون العذاب الذي أعدَّه الله للمكذِّبين في الآخرة وإن لم يروها؛ لأنَّهم يؤمنون بما أخبر الله من أحوال البعث والجزاء.(٢)

لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ: قدَّم مغفرة الذنوب؛ تطميناً لقلوبهم؛ لأنَّهم يخشون المؤاخذة على ما فرط منهم من الكفر قبل الإسلام، ومن اللمم ونحوه، ثم أعقب بالبشارة بالأجر العظيم وهو الجنَّة. وسماه أجراً كبيراً؛ لأنَّ لذائذ الدنيا تصغر دونه.

وتنكير(مغفرةٌ)؛ للتعظيم، بقرينة مقارنته بـ(أَجْرٌ كَبِيرٌ) وبقرينة التقديم.

وتقديم المسند على المسند إليه في جملة (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ)؛ للاهتمام بهم أولاً، وليتأتَّى تنكير المبتدأ، لإفادة التعظيم، ولرعاية الفاصلة، لأنَّ المسند إليه لو تأخَّر يكون نظم الجملة: (مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ لهم).(٣)

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/٢٧.

(٢) انظر: البحر المحيط، ج٨/٢٩٥، وتفسير البيضاوي، ج٥/٣٦٣، وروح المعاني، ج٢٩/١٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/٢٧.

الأساليب البلاغية:

١ _ **استفهام إنكاري توبيخي:** في قوله تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)

٢ _ **استعارة تصريحيَّة:** في قوله تعالى: (سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً) شبَّه صوت حسيس النار بصوت الحمار.

٣ - **استعارة مكنية:** في قوله تعالى: (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ)، شبه جهنم في شدة غليانها بإنسان شديد الغيظ والغضب على عدوه، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الغيظ الشديد.

٤ – **إطناب:** في قوله: (ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ)، (فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ) بتكرار الجملة مرتين؛ لزيادة التنبيه.

٥ _ **مقابلة:** بين (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ) و(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ)

المعنى الإجمالي للآيات:

بعد أن ذكر الله ما أعدَّه للشياطين من العذاب، بيَّن أنَّ من يكفر بالله من الإنس لهم عذابٌ مثل ما للجن من عذاب، وبئس المآل والمرجع لكليهما.

إذا طرح الكافرون في جهنَّم، سمعوا صوتًا شديدًا منكرًا، هو صوت غليان النار وارتفاع لهبها. فجهنَّم تكاد تتمزق مِن شدة غضبها على الكفار، وكلما طُرح فيها جماعة منهم سألهم حراسها الموكلون بأمر العذاب فيها سؤال توبيخ: ألم يأتكم في الدنيا رسول يحذركم من الكفر الذي يؤول بأصحابه إلى هذا العذاب. فيجيب الكفَّار قائلين: نعم قد جاءنا رسولٌ مِن عند الله وحذَّرنا، فكذَّبناه، وقلنا فيما جاء به من الآيات: ما نزَّل الله على أحد من البشر شيئًا من الوحي ما أنتم - أيها الرسل- إلا بعيدون عن الحق.

ثم تحاور أهل النار فيما بينهم، فقالوا معترفين: لو كنا في الدنيا نسمع دعوة الرسل سماع مَن يطلب الحق، ونتدبَّر مضمون رسالاتهم، ما كنا في عداد

أَصحاب النار، ومن جملتهم، فكان هذا اعترافًا من الكفار بذنبهم في تكذيب الرسل والابتعاد عن الحق، فحقٌّ عليهم الإبعاد عن رحمة الله.

ثم ذكر ما يقابل عذاب المكذبين، فبيَّن جزاء المؤمنين الذين يخافون عذاب ربهم غائبًا عنهم، أَو يخافون الله وهم غائبين عن أَعين النَّاس غير مرائين بخشيتهم لربهم، أَو يخشونه بما خفي منهم وهو قلوبهم، لهم مغفرة عظيمة لسيئاتهم، وعفو من الله عن ذنوبهم، وثواب عظيم وهو الجنة.

الفوائد والأحكام:

أولاً: استدلَّ بعض العلماء بقول الله تعالى: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) على أنَّ الدين لا يتم إلا بالتعليم.

وحجَّتهم أنَّ الآية قدَّمت السمع على العقل؛ تنبيهاً على أنَّه لا بد أولاً من إرشاد المرشد وهداية الهادي، ثم إنه يترتب عليه فهم المستجيب وتأمله فيما يلقيه المعلِّم.

وأجيب: أنَّه قدَّم السمع؛ لأنَّ المدعو إذا لقي الرسول فأول المراتب أنه يسمع كلامه ثم إنه يتفكر فيه، فلما كان السمع مقدَّماً بهذا السبب على التعقل قُدِّم عليه في الذكر، وليس في الآية دلالة على أنَّ الإيمان بوجود الله ووحدانيته لا يتم إلا بالتعليم.[1]

ثانياً: استدلَّ بعض العلماء بقوله تعالى: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) على تفضيل السمع على البصر.

ووجه الاستدلال: أنَّ الله جعل للسمع مدخلاً في الخلاص من النار، والفوز بالجنة، والبصر ليس كذلك، فوجب أن يكون السمع أفضل من البصر.[2]

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/٥٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/٥٧.

ثالثاً: دلَّت الآية (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) على أن حسن التلقي وحسن الفهم، أي: الأثر والنظر، هما مقوما الاهتداء.(١)

رابعاً: استدلَّ المرجئة بقول الله تعالى: (قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا) على أنه لا يدخل النارَ إلا الكفار.

ووجه الاستدلال: أن الله حكى عن كل من ألقي في النار أنهم قالوا: فكذبنا أي: الرسل، وهذا يدل على أن من لم يكذب رسل الله لا يلقى في النار، وظاهر الآية يقتضي أن الفاسق لا يدخل النار.

والجواب: أنَّ النذير قد يطلق على الأدلة العقليَّة المخوِّفة، وكل من يدخل النار مخالف لدليل العقل الذي يدلُّ على أنَّ العمل من لوازم العلم والإيمان.(٢)

خامساً: استدلَّ أهل السُّنَّة بقوله تعالى: (قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا) على أن استحقاق العذاب لا يكون إلى بعد إرسال الرسل، وحصول التكذيب؛ والآيات تدل على أنَّ أهل النار استحقوا العذاب؛ لأنَّه أتاهم النذير فكذَّبوه، فدلَّ على أنه لو لم يأتهم النذير لم يُعذَّبوا.(٣)

سادساً: احتج أهل السنَّة بعموم قول الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) على انقطاع وعيد الفساق، وعدم خلودهم في النار. ووجه الاستدلال: أنَّ من كان موصوفاً بالخشية من العصاة له أجرٌ عظيم، فإذا جاء يوم القيامة واجتمع لدى بعض الناس الفسق مع الخشية فقد حصل الأمران، فإما أن يثاب ثم يعاقب وهو باطل بالإجماع، أو يعاقب ثم ينقل إلى دار الثواب وهو المطلوب.(٤)

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/٢٦.

(٢) انظر: اللباب، ج١٩/٢٤٠.

(٣) انظر: اللباب، ج١٩/٢٤٠.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/٥٨.

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِير

[سورة الملك: ١٣ – ١٩]

مناسبة الآيات لما قبلها:

في الآيات السابقة ذكر الله أحوال المكذِبين والمؤمنين، وبيَّن الأسباب المؤدية للهلاك أو النجاة، وذكر أن خشية الله في السر من أسباب النجاة والفوز. ولما كانت الخشية من الأفعال الباطنة، وربما ادعى بعض الناس أنَّه يخشى الله دعت هذه الآيات الناس إلى مراقبة الله، وذكَّرت بأنَّ التظاهر بالصلاح ليس من أسباب الفلاح إذا كان الضمير فاسداً؛ لأنَّ الجزاء مرتبط بعلم الله بأحوال الناس الظاهرة والباطنة؛ وبما يصدر عنهم في السر والعلن.(١)

وبعد أنَّ بين الله أسباب الهلاك والنجاة، وحدَّد مصير الفريقين (المكذِّبين والمؤمنين) أتبع بذكر الأدلة الدالة على ثبوت حقيقة البعث والجزاء، فأشار إلى تذليل الأرض واستدلَّ بتسخيرها على البعث والنشور.

سبب النزول:

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كان المشركون ينالون من رسول

(١) انظر: نظم الدرر، ج٧٥/٨. بتصرُّف.

الله ﷺ بألسنتهم، فيخبره جبريل عليه السلام بما قالوا فيه، فقال بعضهم لبعض: أسِرُّوا قولكم كي لا يسمع ربُّ محمدٍ، فنزلت: (وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُواْ بِهِ).[1]

معاني المفردات:

بذَاتِ الصُّدُورِ: مركب من (ذات) مؤنث (ذو) بمعنى صاحب.

و(الصُّدُورِ) بمعنى العقول.

والمقصود: ما يتردد في النفس من الخواطر والنوايا.

اللَّطِيفُ: العالم بخبايا الأمور، المدبّر لها برفقٍ وحكمة.

الْخَبِيرُ: العالم ببواطن الأمور وظواهرها، وبما كان منها وما سيكون.

ذَلُولًا: سهلة منقادة لينة يسهل لكم السير فيها والانتفاع بها.

مَناكِبِها: جمع منكب: وهو في الأصل مجتمع ما بين العضد والكتف.

ومناكب الأرض: أرجاءها وطرقها، أو جبالها.

النُّشُورُ: الحياة بعد الموت، والبعث من القبور، والرجوع إلى الله؛ للجزاء.

يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ: يغوّر بكم الأرض، ويجعلكم في جوفها.

تَمُورُ: تتحرك وتضطرب.

حَاصِبًا: حجارة من السماء، أو ريحاً من السماء فيها حصباء (حجارة صغيرة).

صَافَّاتٍ: باسطاتٍ أجنحتهنَّ.

القراءات والإعراب:

مَنْ خَلَقَ: يجوز في الاسم الموصول: الرفع على أنه فاعل (يَعْلَمُ)، والمراد الله تعالى، والمفعول محذوف. ويجوز فيه النصب على أنه مفعول (يَعْلَمُ)، والفاعل مضمر عائد إلى ما عاد إليه ضمير (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

---

(١) أسباب النزول، للواحدي، ص٢٩٣.

أَنْ يَخْسِفَ ... أَنْ يُرْسِلَ: المصدر المؤوَّل من (أَنْ) وما بعدها:

يجوز أن يكون بدل اشتمال من اسم الموصول (مَنْ فِي السَّمَاءِ).

والمعنى: أأمنتم خسفه، وإرساله.

ويجوز أن يكون منصوباً على نزع الخافض، والخافض المحذوف حرف (من).

والمعنى: أأمنتم من الخسف والإرسال.

فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ: منصوبان على الحال من (الطَّيْرَ)

وَيَقْبِضْنَ: الجملة منصوبة على الحال، لعطفها على وصف في موضع الحال.

الأساليب اللغويَّة:

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ: الخطاب في هذه الآية فيه وجهان:

الأول: أنَّه خطاب للمشركين، فقد جاء في سبب النزول: أنَّهم كانوا إذا طعنوا في الدين يقولون: أسروا قولكم؛ لئلا يسمع إله محمد.

الثاني: أنه خطاب عام لجميع الخلق، عامٌ في جميع الأعمال، وتشمل الكلام الذي كانوا يسرون به في أمر رسول اللّه ﷺ. والمراد: إنَّ قولكم وعملكم على أيِّ سبيل وُجِد، فحاله واحد في علم الله.(١)

والوجه الثاني هو الأرجح، بدلالة العموم في قوله: (ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ).

وجملة (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ) إنشائية لفظاً، خبريَّة في المعنى؛ لأنَّ صيغة الأمر في (أسروا) و(اجهروا) للتسوية؛ وهذا المعنى هو غالب أحوال صيغة افعل إذا جاءت معها (أو) عاطفة أحد الفعلين على نقيضه، كقوله تعالى: (فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا) [سورة الطور:١٦]. والمعنى: إن أخفيتم كلامكم في أمر

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٥٨/٣٠.

النبيِّ محمدٍ ﷺ أو جهرتم به، فإن اللَّه عليم بما في القلوب من الخير والشر. وفيه إعلامٌ للخلق بتساوي حالتي السر والجهر بالنسبة إلى علم الله تعالى، وهو نظير قوله تعالى: (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ) [سورة الرعد:١٠].(١)

وتقديم السر على الجهر؛ للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر، أو لأنَّ مرتبة السر متقدِّمة على مرتبة الجهر؛ إذ ما من شيء يجهر به إلا وله مبتدأ مضمر في القلب يتعلق به السرُّ غالباً، فلما كان متقدِّماً عليه في الوجود قُدِّم عليه في الذكر.(٢)

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ: ضمير (إنَّه) عائد إلى الله تعالى المعلوم من المقام.

والجملة تعليل للتسوية المستفادة من صيغة الأمر، أي: الإسرار بالأقوال والأعمال والجهر بها سواء في علم الله؛ لأنَّ علمه سبحانه محيط، فإنَّه يعلم مضمرات القلوب وهي أخفى ما يكون، وعلمه بالجهر أولى. ولذلك جيء بوصف (عَلِيمٌ) بصيغة المبالغة، أي: القويُّ علمُه.(٣)

أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ

الجملة استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى: (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)، كأنَّهم لما سمعوا الآية سألوا: كيف يعلم ذات الصدور، والمعروف أن ما في نفس المرء لا يعلمه غير نفسه؟ فأجيبوا بإنكار انتفاء علمه تعالى بما في الصدور، فإنه سبحانه خالق أصحاب تلك الصدور، فكما خلقهم وخلق نفوسهم جعل علمه متعلِّقاً بما فيها، وليس ذلك بأعجب من علم أصحاب الصدور بما يدور فيها.(٤)

أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ: الاستفهام معناه الإنكار، أي كيف لا يعلم السر والجهر

---

(١) انظر: الكشاف، ج٤/٥٨٤، وتفسير القرطبي، ج١٨/٢١٣، وتفسير أبي السعود، ج٩/٦، والتحرير والتنوير، ج٢٩/٢٨.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، ج٩/٦.

(٣) انظر: الكشاف، ج٤/٥٨٤، والتحرير والتنوير، ج٢٩/٢٨.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/٢٨.

من أوجد بموجب حكمته جميع الأشياء التي من جملتها خفايا قلوبكم، وحاله أنه اللطيف الخبير المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن؟[1]

والاسم الموصول يحتمل وجهين:

الأول: أن يكون فاعلاً يراد به الخالق، والمفعول محذوف، والتقدير: ألا يعلم الخالقُ سرَكم وجهرَكم، وحذف المفعول؛ لدلالة قوله: (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ) عليه.

الثاني: أن يكون (مَنْ خَلَقَ) مفعولاً، والفاعل مضمر تقديره: ألا يعلم الله مخلوقاته. وحذف العائد من الصلة؛ لأنَّه ضمير نصب يكثر حذفه. والتقدير: مَن خَلَقَهم.[2]

ورجَّح بعض المفسرين الوجه الأول؛ لأنَّ الموصول إذا كان مفعولاً اختص بمن يعقل، وأفاد العلم بذات المخلوق، ولا يقتضي العلم بأحواله، والمقصود من الآية هو العلم بالأحوال، لأنَّ العلم بالذوات لا يقتضي معرفة أسرارها.[3]

أمَّا إذا قدَّرنا أنَّ (مَنْ) هنا بمعنى (ما)، وهو أمر جائز في اللغة - إذ يجوز أن يكون (مَن) بمعنى (ما)، وأن تكون (ما) في تقدير (مَنْ) كما في قوله تعالى: (وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا) [سورة الشمس:٥] - فيستوي وجها الإعراب في المعنى، ولا يكون أحدهما أولى من الآخر؛ لأنَّ (ما) تشير إلى ما يسرُّه الخلق وما يجهرونه.

وإيثار الاسم الموصول؛ لإفادة التعليل بما في حيّز الصلة، وليجتهد الناس في تقدير موقعه، فيفيد أكثر من معنى.

وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ: الواو تحتمل وجهين:

الأول: أن تكون حالية، والجملة حال من فاعل يعلم، مؤكدة للإنكار

---

(١) انظر: البحر المحيط، ج٨/٢٩٥، وتفسير أبي السعود، ج٩/٧.

(٢) انظر: المحرَّر الوجيز، ج٥/٣١٤، والبحر المحيط، ج٨/٢٩٥، وتفسير أبي السعود، ج٩/٧، والتحرير والتنوير، ج٢٩/٢٩.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/٦٠.

والنفي. أي: ألا يعلم الله خفايا قلوبكم، والحال أنَّ علمه يشمل ما ظهر من خلقه وما بطن. وهذا الوجه هو اختيار جمهور المفسرين.[1]

الثاني: والواو عاطفة، والجملة معطوفة على جملة (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ)؛ لإعلام الناس بأن علم الله محيط بذوات الكائنات وأحوالها، فبعد أن أنكر ظنهم انتفاء علم الله بما يسرون، أعلمهم أنه يعلم من الأحوال ما هو أعم وأخفى من الإسرار. واختار ابن عاشور هذا الوجه.[2]

واختلُف في معنى (اللَّطِيفُ) فقيل: هو العالم بخفايا الأمور. وقيل: هو فاعل الأشياء التي تخفى كيفية عملها على أكثر الفاعلين، ولهذا يقال: لطف الله بعباده عجيب، ويراد به دقائق تدبيره لهم. وهذا الوجه أقرب، إذ ليس فيه تكراراً لمعنى (الخبير).[3]

والأولى: الجمع بين المعنيين، فيقال: اللطيف هو العالم بخفايا الأمور، مع سلوك سبيل الرفق في إيصال ما يصلحها، وهذا المعنى لا يتكرر مع (الخبير) بناء على أنه العالم بالخفايا أيضاً.[4]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ

وجه الربط بين هذه الآية وما سبقها هو أنه تعالى بيَّن في الآيات السابقة أنَّه عالم بما يسرُّه الخلق وما يعلنونه ثم ذكر في هذه الآية ما جعل في هذه الأرض من مظاهر التسخير على سبيل التهديد، ليحذر الناس من مخالفة أمره. ونظيره: أن يقول السيّد لعبده الذي أساء إليه سراً: يا فلان أنا أعرف ما فعلته

(١) انظر: الكشاف، ج٥٨٤/٤، وتفسير البيضاوي، ج٣٦٣/٥، والبحر المحيط، ج٢٩٥/٨، وتفسير أبي السعود، ج٧/٩، وروح المعاني، ج١٤/٢٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/٢٩.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ج٦٠/٣٠.

(٤) انظر: روح المعاني، ج١٤/٢٩.

من العصيان سراً، فاجلس في هذه الدار التي وهبتها لك، وهيَّأت لك فيها كل هذا الخير، لكن لا تأمن تأديبي، فإني إن شئت جعلت هذه الدار التي هي منزل أمنك منشأً للآفات ومنبعاً للمحن. وكذلك هنا كأنَّ الله تعالى يقول: اعلموا أيها الناس أني عالم بسركم وجهركم، فكونوا محترزين من عقابي، فهذه الأرض التي تعيشون فيها، وتسترزقون منها أنا الذي ذللتها لكم، وجعلتها سبباً لنفعكم، وإن شئت خسفت بكم هذه الأرض وجعلت فيها أنواع المحن.(١)

ووجه ارتباط هذه الآيات مع المحور العام للسورة أنَّ هذه الآيات سيقت للاستدلال على قدرة الله وعلمه، وما يلزم عن ذلك من البعث والجزاء.

ووجه الاستدلال: أنَّ خلق الأرض أدلُّ على قدرة الله تعالى وعلمه من خلق الإنسان؛ إذ ما الإنسان إلا جزء من الأرض أو كجزء منها، قال تعالى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ) [سورة طه: ٥٥]، فلما استدلَّ على علمه بخلق أنفسهم، أتبع بذكر الأرض، وما جعل فيها من مظاهر التسخير، ومنها: أنَّه خلقها صالحة للسير فيها، مخرجة لأرزاقهم.(٢)

ويظهر إلى جانب التهديد في هذه الآية غرضٌ آخرُ، وهو الامتنان على الخلق بما في الأرض من مظاهر التسخير،(٣) ففي الآية إدماج.(٤)

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً: الذلول: المنقاد الذي يذلُّ لك، ومصدره: الذلُّ، وهو الانقياد واللين، وفي وصف الأرض بالذلول أقوال، منها:

أ _ أنَّ الله سبحانه جعلها ممهدة، ولم يجعلها صخرية خشنة يمتنع المشي عليها،

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/٦٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/٢٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/٢٩.

(٤) الإدماج: هو أن يضمن كلاماً سيق لمعنى معنى آخر. انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، لجلال الدين أبي عبد الله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني (٧٣٩هـ)، تح: الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٤/١٤١٨هـ-١٩٩٨م، ص ٣٤٨.

كما يمتنع المشي على الصخرة الخشنة المتعرِّجة.

ب _ أنه تعالى جعلها لينة بحيث يمكن حفرها وبناء الأبنية منها، ولو كانت حجرية صلبة لتعذَّر ذلك.

ج _ أنها لو كانت مثل الذهب أو الحديد لكانت تسخن جداً في الصيف، وتبرد جداً في الشتاء، ولكانت الزراعة فيها ممتنعة متعذرة.(١)

وقد آثر النظم تقديم (لكم) على مفعولي (جَعَلَ) مع أن حقه التأخر عنهما، للاهتمام بما تقدَّم، والتشويق لما تأخَّر، لتبقى النفس مترقِّبة لوروده، فيتمكَّن لديها عند ذكره أفضل تمكُّن.(٢)

فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا: الفاء لترتيب الأمر بالانتفاع على ما ذُكِر قبله من التذليل. وصيغة الأمر للإباحة، والمقصود التذكير بما سخر الله لهم في الأرض؛ امتناناً بذلك. والمقصود: الحثُّ على الاكتساب فيها.

والمنكب هو ملتقى الكتف مع العضد، وجمع المناكب؛ تجريد للاستعارة؛ لأنَّ الذلول (البعير) له منكبان، والأرض ذات متسعات كثيرة.(٣)

وقد ذكر المفسرون أقولاً كثيرة في بيان معنى (مناكب الأرض)، فقيل: المراد: نواحي الأرض، أو طرقها، أو أطرافها، أو جبالها، أو منابت أشجارها.(٤) وهذه الأقوال جميعاً تلتقي في أحد وجهين:(٥)

الأول: المراد بمناكب الأرض: أرجاءها ونواحيها. وشبَّه نواحي الأرض بمناكب البعير؛ للدلالة على فرط التسخير والتذليل، فإنَّ المنكبين أرق أعضاء البعير،

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/٦٠ –٦١.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، ج٩/٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/٣٠.

(٤) راجع: تفسير الطبري، ج٢٣/٥١٢، والنكت والعيون ج٦/٥٤، ومفاتيح الغيب، ج٣٠/٦١، والبحر المحيط، ج٨/٢٩٥، وتفسير القرطبي، ج١٨/٢١٥.

(٥) انظر: تفسير البيضاوي، ج٥/٣٦٤.

وأنباهما عن أن يطأهما الراكب بقدميه، وأبعدهما من إمكان المشي عليهما، فإذا صار البعير بحيث يمكن المشي على منكبيه فقد صار في نهاية الانقياد والطاعة.

وفي هذا التعبير كناية عن غاية التذليل، فإنَّ الأرض إذا جُعلت بحيث يتأتى المشي في مناكبها لم يبق منها شيء لم يتذلل. (وهو اختيار الزمخشري وأبي السعود)[1]

الثاني: المراد بمناكب الأرض: جبالها. وسميت الجبال مناكب؛ لأنَّ مناكب البعير شاخصة والجبال أيضاً شاخصة، والمعنى: أنَّه سبحانه سهَّل لكم السلوك في الجبال، وهي أبعد أجزاء الأرض عن التذليل، وفيه دلالة على غاية التذليل، وتسخير سائر أجزائها.

وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ: الأمر للإباحة أيضاً، والمقصود: إظهار الامتنان.

ومناسبة ذكر الأكل والرزق هنا لتتميم الفائدة، وتقوية وجه الشبه؛ فإنَّ الرزق من الأرض. وفائدة تذليل الذلول (وهو البعير) تظهر في ركوبها والأكل منها، وكذلك المشي على الأرض شبيه بركوب الذلول، والأكل مما تنبته الأرض شبيه بأكل الألبان والسمن واللحم ونحو ذلك.

وَإِلَيْهِ النُّشُورُ: العطف هنا تتميم وزيادة، فإنَّ ذكر النشور يناسب ذكر الأرض التي فيها مثوى الناس بعد الموت، ومنها يكون البعث. والمعنى: إليه النشور منها. وفيه إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون مكثكم في الأرض وأكلكم من رزق الله مكث من يعلم أن مرجعه إلى الله، وأكل من يتيقن أن مصيره إلى الله. والمراد تحذيرهم عن الكفر والمعاصي في السر والجهر.[2]

وتقديم المجرور في جملة (وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)؛ للاهتمام بالمقدَّم والترهيب.

وتعريف (النشور) تعريف الجنس فيعمُّ كل نشور، ومنه نشور المخاطبين.

---

(١) انظر: الكشاف، ج٥٨٥/٤، وتفسير أبي السعود، ج٧/٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج٦١/٣٠.

والقصر المستفاد من تعريف طرفي الجملة (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ) قصر قلب، بتنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد أن الأصنام خلقت الأرض؛ لأنَّ اعتقادهم إلهيتها يقتضي إلزامهم بهذا الظن الفاسد، وإن لم يقولوه.(١)

أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ

هذه الآية تقريرٌ لمعنى الآية السابقة؛ إذ يبيّن الله تعالى في هذه الآية أنَّ بقاء البشر في الأرض مع السلامة التي ينعمون بها أثرٌ من آثار رحمة الله وفضله، ولو شاء الله أن يفسد معيشتهم في الأرض، لأمطر عليهم مطر الآفات.(٢)

أَأَمِنْتُمْ: الغرض من الاستفهام: التوبيخ والتحذير، فقد تقرر أنه سبحانه خالق الأرض ومذللها، وتقرر أنَّ الكفَّار ما رعوا خالقها حق رعايته، فاستحقوا غضبه وعقابه، لذا وبَّخهم وحذّرهم من تعريض أنفسهم لعقاب الله القادر على أن يخسف بهم الأرض بعدما جعلها لهم ذلولاً، ويجعلها تضطرب ذهاباً ومجيئاً على خلاف ما كانت عليه من الذلِّ والإطمئنان.(٣)

مَنْ فِي السَّمَاءِ: الاسم موصول يدلُّ على موجود عاقل كائن في السماء.

والإتيان بالموصول عقب جملة (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً) إظهارٌ في مقام الإضمار، لأنَّ مقتضى الظاهر أن يقال: (أأمنتموه أن يخسف بكم الأرض)؛ لكنه جاء بالموصول؛ لما تؤذن به الصلة من عظيم تصرفه في عوالم السماء.(٤)

وهذا التعبير (مَنْ فِي السَّمَاءِ) مجاز، وهو من المتشابه، وظاهره غير مراد بالاتفاق؛ لأنَّ الظاهر يقتضي الحلول في مكان، والتحيُّز بجهة، وهو باطل، لذلك أوَّل المفسرون الآية تأويلات متعددة، منها:

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/٣٠.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/ ٦١.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود، ج٩/٧، والتحرير والتنوير، ج٢٩/٣٠.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/٣١.

١ _ الكلام على حذف مضاف، والتقدير: أأمنتم خالق من في السماء.

٢ – (في) هنا بمعنى (على)، والمراد: العلو بالقهر والقدرة لا بالمكان. أي: هل أمنتم مَن هو فوق السَّماء بالقهر والتدبير. أي: من هو مدبرها ومالكها، كما يقال: فلان على العراق، أي: وليها وأميرها. وهذا التركيب كقوله تعالى: (لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) [سورة طه:٧١] أي: عليها.

٣ _ المراد: أمر الله وقضاؤه، أو عذابه أو قدرته وسلطانه. والغرض من ذكر السَّماءِ تفخيم سلطان الله، وتعظيم قدرته.

٤ _ المراد: الملائكة الموكلين بتدبير هذا العالم، فهي مخلوقات ذات إدراك مقرها السماء، ويجوز أن يراد ملك واحد معين وظيفته فعل هذا الخسف، وقد قيل: إن جبريل عليه السلام هو الملك الموكل بالعذاب. وإفراد ضمير (يخسف) مراعاة للفظ (من) إذا أريد طائفة من الملائكة، أو مراعاة للفظ والمعنى إذا كان المراد ملكاً واحداً.

٥ _ ويجوز أن يكون التركيب جارياً على اعتقادهم؛ فإنَّ العرب كانوا يزعمون أنه سبحانه في السماء، فقال لهم: أأمنتم من تزعمون أنه في السماء - وهو متعال عن المكان - أن يخسف بكم الأرض بعدما جعلها لكم ذلولاً.(١)

أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ: الخسف: انقلاب ظاهر السطح من بعض الأرض باطناً وباطنه ظاهراً، وهو شدة الزلزال. والباء في قوله: (بكم) للمصاحبة، أي: يخسف الأرض مصاحبة لذواتكم.

فَإِذَا هِيَ تَمُورُ: المور: الاضطراب. والفاء للتفريع، فرَّع على الخسف مور الأرض تفريع الأثر على المؤثِّر، لأنَّ الخسف يحدث المور لا محالة.

وقد جرى نظم الكلام على ما يناسب جعل التهديد بمنزلة حدث وقع،

---

(١) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٨٥، والبحر المحيط، ج٨/٢٩٦، وتفسير القرطبي، ج١٨/ ٢١٦، وتفسير أبي السعود، ج٩/٧.

فجيء بحرف (إذا) بمعنى (إذ) الدال على المفاجأة؛ لأنَّ حق المفاجأة أن تكون حاصلة زمن الحال لا الاستقبال، فإذا أريد تحقيق حصول الفعل المستقبل نزل منزلة الواقع في الحال، كقوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ) [سورة الروم: ٢٥]، فكان هذا التركيب مؤذناً بتشبيه حال الخسف المتوقع المهدَّد به بحال خسف حصل، كما في التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي.

وحذف المركب الدال على الحال المشبه به ورمز إليه بما هو من آثاره ويتفرع عنه، فكان في الكلام استعارة تمثيلية مكنية.(١)

أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ

أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ: (أَمْ) للإضراب عن التهديد بما ذكر في الآية السابقة، والانتقال للتهديد بوجه آخر، وهو انتقال من الاستفهام الإنكاري التعجيبي إلى استفهام آخر مثله باعتبار اختلاف الأثرين الصادرين عن مفعول الفعل المستفهم عنه اختلافاً يوجب تفاوتاً بين كنهي الفعلين، وإن كانا متحدين في الغاية، فالاستفهام الأول إنكار عليهم أن يأمنوا من عذاب الأرض، والاستفهام الواقع بعد (أَمْ) إنكار عليهم أن يأمنوا من عذاب السماء.(٢)

أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً: أي: حجارة من السماء كما أرسلها على أصحاب الفيل، وقيل: ريحاً تقلع الحصباء لشدتها وقوتها، وقيل: سحاب فيها حجارة.(٣)

فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ: فرَّع جملة (فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) على الاستفهام الإنكاري تفريع الأثر على المؤثِّر. أي: فحين يخسف بكم أو يرسل عليكم حاصباً تعلمون كيف نذير.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/٣٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/٣٣.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/ ٦٢، وتفسير القرطبي، ج١٨/٢١٧.

و(السين) حرف تنفيس حقه الدخول على الأخبار التي ستقع في المستقبل، والكلام عن إرسال الحاصب تهديد وتحذير، وليس إخباراً بحصوله، وإلا لما تخلف لأنَّ خبر الله لا يتخلف، فإنهم آمنوا وأقلعوا فسلموا من إرسال الحاصب عليهم. ولكن لما أريد تحقيق هذا التهديد شبه بالأمر الذي وقع فكان تفريع صيغة الإخبار على التهديد مؤذناً بتشبيه المهدَّد به بالأمر الواقع.(١)

نذير: مصدر أصله (نذيري)، حذفت ياء المتكلم تخفيفاً، ومراعاةً للفاصلة.

وهو يحتمل وجهين:

الأول: أنَّه بمعنى المنذِر، وهو النبيُّ محمد ﷺ، والمعنى: فستعلمون رسولي، وتعلمون صدقه حين لا ينفعكم ذلك.

الثاني: أنه بمعنى الإنذار، والمعنى: فستعلمون عاقبة إنذاري إياكم بالكتاب والرسول، إذا شاهدتم العذاب المُنذَر به، ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ.(٢)

وتقديم التهديد بالخسف في الآية السابقة على التهديد بالحاصب؛ لمناسبة ذكر الأرض في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا)؛ فإنَّ الخسف من أحوال الأرض، وتقديم الكلام عن أحوالها أقرب لما ذكر قبله.(٣)

وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ.

في هذه الآية تسليةٌ للرسول ﷺ، وتهديدٌ لمكذبيه؛ إذ يضرب الله للمشركين مثلاً بأمم من قبلهم كذبوا الرسل فأصابهم من العذاب ما علموا أخباره، وشاهدوه في آثار ديارهم؛ لعلهم يتعظون، فيزدجروا عن تكذيب الرسل الذي كان سبب هلاك الأمم السابقة.(٤)

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/٣٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/ ٦٢، واللباب، ج١٩/ ٢٥٠،

(٣) انظر: روح المعاني، ج١٦/٢٩، والتحرير والتنوير، ج٢٩/٣٣.

(٤) انظر: تفسير أبي السعود، ج٩/٨، والتحرير والتنوير، ج٢٩/٣٤.

وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ: الواو تحتمل وجهين:

الأول: العطف، والجملة عطف على جملة (أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً) ووجه العطف: أنَّ الله عاقب بعض المكذِّبين بالخسف كأصحاب الرسِّ، وعاقب بعضهم بإرسال حجارة من السماء كقوم لوط. والتهديد بعقوبتي الخسف والحاصب فيما سبق جعل الذهن يستحضر عقوبات الأمم المكذِّبة، وذلك يناسبه العطف بذكر خبرهما.

الثاني: الحال، والمعنى: كيف تأمنون الخسف وإرسال الحاصب عندما تكذِّبون الرسول ﷺ، في حال أنه قد كذب الذين من قبلكم، فهل علمتم ما أصابهم من العذاب جزاءً على تكذيبهم الرسل.(١)

وقد أكَّد الخبر باللام و(قد)؛ لتنزيل المعرَّض بهم منزلة المنكر الذي يظن أنَّ الله عاقب الذين من قبلهم بغير ذنب، أو لذنب آخر غير التكذيب.

والتفت عن خطابهم إلى الإخبار عنهم بالغيبة، بعد أن وجَّه إليهم الخطاب تذكيراً وامتناناً وتهديداً ابتداء من قوله: (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ)؛ لإبعادهم عن مقام الحضور للخطاب؛ وإبراز الإعراض عنهم؛ تعريضاً بالغضب عليهم؛ بسبب ما فعلوه من تكذيب الرسول ﷺ.(٢)

فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ: الاستفهام تقريري، دالٌ على تحقُّق الوقوع.

والمعنى: كيف وجدوا إنكاري عليهم، أليس وجدوا أنَّ عقاب المنكِر حقٌ، وأنَّ إنزال العذاب بهم كان على غاية الهول والفظاعة؛ لأجل ذلك اعلموا أن إنكاري عليكم صائر بكم إلى مثل ما صار بهم إنكاري عليهم.(٣)

و(نكير) أصله نكيري بالإضافة إلى ياء المتكلم المحذوفة تخفيفاً، ورعياً

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/٣٤.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، ج٩/٨، وروح المعاني، ج٢٩/١٧، والتحرير والتنوير، ج٢٩/٣٤.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/٦٢، وروح المعاني، ج٢٩/ ١٧.

للفاصلة، لتكون مشابهة لرؤوس الآيات المتقدمة عليها، والمتأخرة عنها.[1]

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ

هذه الجملة معطوفة على جملة (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً) [سورة الملك: ١٥]، ووجه العطف: الاسترسال في سرد الدلائل الدالَّة على انفراد الله تعالى بالتصرف في الموجودات، وقد انتقل من عجائب أحوال البشر، إلى عجائب أحوال الطير، ونظام طيرانها، الدالِّ على عجيب صنع الله المنفرد به.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ: الاستفهام إنكاري، أنزل الجاحدين للقدرة الإلهيَّة منزلة من لم يرَ أحوال الطير؛ لأنَّهم لم يعتبروا بها ولم يهتدوا إلى دلالتها على انفراد خالقها بالإلهية.[2]

فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ: اشتمل الاستدلال بعجيب خلقة الطير في طيرانها على ضرب من الإطناب؛ لأنَّ الأوصاف الثلاثة المستفادة من قوله: (فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ) تصور صورة حركات الطيران للسامعين، فتنبههم لدقائق ربما غفلوا عن تدقيق النظر فيها؛ لكثرة الإلف والمشاهدة.[3]

وتقدَّم التنبيه على عجائب خلق الطيور في سورة النحل في قوله: (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ) [سورة النحل: ٧٩]

وهذه الآية نزلت قبل سورة الملك، فأوقظت العقول للنظر إلى ما في حركات الطير من دلائل قدرة الخالق، لكن سورة النحل أجملت في الوصف، فجاءت بعدها سورة الملك على مسلك الإطناب بذكر أوصاف ثلاثة:

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٦٢/٣٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٣٧/٢٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٣٥/٢٩.

الأول: العلو في جو السماء: وهو ما أفاده قوله: (فوقهم)، فإن الدوَّاب تمشي على الأرض، والطير كذلك، فإذا طار الطائر انتقل إلى حال عجيب مخالف لبقية المخلوقات، وهو حال السير في الجو بواسطة تحريك جناحيه.

الثاني: بسط الجناحين، وهو ما أفاده قوله: (صافَّاتٍ)، والمراد: أنَّ الطير صافَّة أجنحتها، لكن حذف المفعول؛ للعلم به من الوصف الجاري على الطير؛ إذ لا تجعل الطير أشياء مصفوفة إلا ريش أجنحتها عند الطيران، فالطائر إذا طار بسط جناحيه، فإذا تمدد الجناح ظهر ريشه مصطفَّاً. وبسط الجناحين يمكِّن الطائر من الطيران، فهو كمد اليدين للسابح في الماء.

الثالث: قبض الجناحين، وهو ما أفاده قوله: (ويقبضنَ). والقبض: ضد الصف والبسط، ومفعوله محذوف، وتقديره: ويقبضن أجنحتهنَّ، وحُذف؛ للعلم به من الوصف الجاري على الطير؛ إذ لا تجعل الطير أشياء مقبوضة إلا أجنحتها عند الطيران، فالطائر إذا طار يبسط جناحيه، ثم يدنيهما من جنبه، حينا فحيناً؛ للاستظهار على تحريك الهواء؛ والاستمرار في الطيران.(١)

وقد أوثر في (صافات) صيغة الاسم، وفي (يقبضن) صيغة الفعل؛ ولم يقل: قابضات؛ لأنَّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، الأصل فيهما مدُّ الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارىء على البسط؛ للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارىء بلفظ الفعل على معنى: أنَّهن صافات، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح، ولذلك جيء بالصفِّ بصيغة الاسم؛ لأنَّه الغالب، فناسبه الاسم الدال على الثبات، وأوثر في وصف القبض صيغة المضارع؛ لأنَّه متجدد، ويناسبه الفعل الدالِّ على التجدد.(٢)

مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ: معنى إمساك الله إياها: حفظها من السقوط على

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ٣٦.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/ ٦٣، والبحر المحيط، ج٨/ ٢٩٧.

الأرض بما أودع في خلقتها من الخصائص: في خفة عظامها، وقوة حركة أجنحتها، وشكل أجسادها المعين على نفوذها في الهواء، من غير تعليق بخيط.

وهذه الجملة في موضع البيان للاستفهام الإنكاري في جملة: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ)، والمعنى: كان واجباً أن يعلموا أنهنَّ ما يمسكهن إلا الرحمن؛ إذ لا ممسك لها غيره سبحانه.

وفي هذا إيماء إلى أن الذي أمسك الطير عن السقوط المفضي إلى الهلاك هو الذي يمسك السماء أن ترسل العذاب على المكذِّبين، وهو قادرٌ أن يرسله كما فعل بالأمم الذين كذَّبوا من قبل، ولو أنَّهم استعصموا بطاعة الله، لأنجاهم من الهلاك كما ينجي الطير من السقوط.(١)

وقد أوثر في سورة النحل الإتيان باسم الجلالة في قوله تعالى: (أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوّ السَّمَآء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ) [سورة النحل: ٧٩]. وأوثر هنا اسم الرحمن، فقال: (مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ)؛ لأنَّ سورة النحل تذكر أنَّ الطير مسخرات في جو السماء، فكان في ذلك إشارة إلى أنَّ إمساكها بمحض الإلهية، فناسبه اسم الجلالة (الله).

وهنا جاء بأوصاف اختيارية، هي من فعل الطير: (صافات، ويقبضن)، وفيه إشارة إلى أنَّ إلهامها كيفية البسط والقبض على الوجه المطابق للمنفعة رحمةٌ من الرحمن.(٢)

إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ: البصير: هنا بمعنى العليم، مشتق من البصيرة، وهي العلم بالأشياء الدقيقة، ومنه قولهم: فلان بصير بالأمور. فهو كقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) [سورة غافر: ٤٤].(٣)

وتقديم (بكل شيء) على (بصير)، مراعاةً للفاصلة، أو لإفادة القصر

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/٣٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/ ٦٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري، ج٢٣/٥١٤، ومفاتيح الغيب، ج٣٠/ ٦٣، وروح المعاني، ج٢٩/١٧، والتحرير والتنوير، ج٢٩/٣٨.

الإضافي؛ رداً على الذين يعتقدون أنه سبحانه لا يعلم كل شيء، ومنهم المكذِّبين الذين قيل لهم: (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ) [سورة الملك: ١٣].[١]

وجملة (إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) تعليل لمضمون (مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ) أي: يمسكهن الرحمن؛ لعموم علمه وحكمته، وإحاطة خبرته بالمخلوقات.[٢]

الأساليب البلاغيَّة:

١ – **الطباق:** بين (وَأَسِرُّوا ... أو اجْهَرُوا)، وبين السماء والأرض في قوله: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ). وبين (صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ)؛ لأنَّ المعنى صافات وقابضات.

٢ – **الاستعارة التمثيلية المكنيَّة:** في قوله تعالى (فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)، وقوله: (فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) شبه حالتي الخسف وإرسال الحاصب المهدَّد بهما بالأمر الواقع لا محالة، ورمز إليهما بما هو من آثارهما، وأتى بحرف المفاجأة (إذا) في الآية الأولى، وحرف التنفيس (السين) في الآية الثانية للدلالة على تأكيد وقوع هذا التهديد، فكان تفريع صيغة الإخبار على التهديد مؤذناً بتشبيه المهدَّد به بالأمر الواقع.[٣]

٣ – **أسلوب الخبر الإنكاري:** في قوله تعالى: (وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) عن طريق تأكيد الخبر باللام، وقد؛ لإنزال المخبَر منزلة المنكر الخبر.

٤ – **الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:** في قوله تعالى: (وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)؛ لإبعاد المخاطبين عن مقام الحضور، سخطاً عليهم.

المعنى الإجمالي للآيات:

قال بعض المشركين في مكة: لا تجهروا بالقول فيسمعكم إله محمد ﷺ،

---

(١) انظر روح المعاني، ج٢٩/ ١٧، والتحرير والتنوير، ج٢٩/٣٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/٣٨.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ٣٢ –٣٣.

فيطلعه على قولكم، فردَّ الله عليهم: بالإخبار عن سعة علمه، وقال لهم: أخفوا أقوالكم إن شئتم أو أعلنوها، فالإسرار والإعلان عند الله سواء، لأنَّه سبحانه عليم بمضمرات الصدور، ولا تخفى عليه أقوالكم وأعمالكم.

ولا عجب في ذلك: فإن الله الذي خلق القلوب، يعلم مكنوناتها وخفاياها، فهو الخبير بأحوال خلقه وشؤونهم، العليم بأعمالهم.

هو الذي خلق الأرض وجعلها مذلَّلة منقادة لكم؛ لتجدوا عليها الاستقرار، ووسائل العيش السويّ. فاسعوا في نواحي الأرض وأرجائها، وكلوا مما أودعه الله لكم فيها من الأرزاق، وأخلصوا لله في سعيكم؛ إذ إليه وحده ستبعثون من قبوركم؛ ليثيب المحسن منكم، ويجزي العاصي بسوء عمله.

ولا تأَمنوا – أيها الناس - عقاب الله، إن عصيتم فهو قادر على أن يغوّر بكم الأرض، حتى تهلكوا في جوفها عندما تمور وتتحرك وتضطرب، في أثناء تزلزلها. ولا تأمنوا _ إن عصيتم - أن يرسل عليكم ريحاً من السماء تحمل الحصباء والحجارة فتهلكهم، كما أهلكت قوم لوط، فإنكم عندما ترون العذاب ستعلمون صدق إِنذاري، وتعلمون عاقبة تكذيب المنذِر عند مشاهدتكم العذاب المنذَر به، ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ. فقد كذب الذين من قبل كفار مكة مثل قوم نوح وعاد، وقد علمتم كيف كان إِنكاري عليهم بإِنزال العذاب بهم.

هل غَفَل الكافرون عن النظر في خلقة الطيور التي تطير فوقهم، وهي تبسط أجنحتها عند طيرانها في الهواء، ثم تضمها إلى جُنوبها تارةً فتارةً؟ هذه الطيور من يحفظها من الوقوع إلا الله الذي خلق برحمته أسباب اقتدارها على السباحة في جوّ السماء؟ إِنه سبحانه العليم بكل شيءٍ، فهو سبحانه أبدع خلق مخلوقاته، وهو الخبير بكيفية أداء وظائفها التي خلقت لها.

الفوائد والأحكام:

أولاً: يُستدلُّ بقول الله تعالى: (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) [سورة الملك: ١٤] على إحاطة علم اللّه بأحوال جميع المخلوقات.

ووجه الاستدلال: أن من خلق شيئاً لا بُدَّ أن يكون عالماً بما يخلقه، لأنَّ الخلق هو الإيجاد والتكوين على سبيل القصد، والقاصد إلى الشيء لا بد وأن يكون عالماً بحقيقة ما يخلق، عالماً بالنظام الذي أبدعه فيما يخلق، وما ينشأ عن قوى ذلك النظام، وذلك يقتضي العلم بذوات المخلوقات وأحوالهم.(١)

ثانياً: يدلُّ قول الله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) [سورة الملك: ١٥] على مشروعية السعي في الأرض لطلب الرزق من التجارة والصناعة وغيرهما؛ فالتكسب مندوب إليه، واتخاذ الأسباب في سبيل ذلك لا ينافي التوكل على اللّه.(٢)

ويشهد لذلك أحاديث، منها: قول النبيّ ﷺ: "لو أنكم تتوكلون على اللّه حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً"(٣) فقد أثبت لها غدوّا ورواحاً، لطلب الرزق، ولم يجعل ذلك منافياً للتوكُّل على اللّه.

ثالثاً: دلَّت الآيات على اتصاف الله بالقدرة والحكمة؛ ووجه الاستدلال أنَّ الله خلق أسباب استمرار بقاء المخلوقات على الوجه الذي يصلح لها، ويليق بالوظائف التي كلَّفها بها، فقد ذلّل الأرض للإنسان، وذلَّل الهواء للطيور، وحفظ الأرض والسماء عن اضطراب أنظمتها، وإهلاك من فيها.

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٥٩/٣٠، واللباب، ج٢٤٥/١٩.

(٢) انظر: التفسير المنير، ج٢٢/٢٩.

(٣) أخرجه: الترمذي، في كتاب الزهد، باب التوكُّل على الله، رقم (٢٣٤٤). وقال: حديث حسن صحيح.

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧)

[سورة الملك: ٢٠ –٢٧]

مناسبة الآيات لما قبلها:

في الآيات السابقة توعَّد الله المشركين بإرسال العذاب عليهم جزاء تكذيبهم، فقال: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ، أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) [سورة الملك: ١٦ – ١٧] ثم انتقلت هذه الآيات إلى إبطال أن يكون أحد يدفع عنهم العذاب الذي توعَّدهم الله به، فقال: (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ)

وقد ذكرت الآيات السابقة بعض البراهين الدالَّة على إثبات الوحدانية والإلهية الحق لله تعالى، كتذليل الأرض، وإمساك الطير في جوِّ السماء، وتوصلت بها إلى إثبات عقيدة البعث: يقول الله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ). ثم ذكرت هذه الآيات براهينَ أخرى تؤكِّد عقيدة التوحيد؛ ودلالتها على أحقية البعث، ومنها: اختصاص الله بالخلق: (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا

تَشْكُرُونَ، قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

معاني المفردات:

غُرُورٍ: الغرور: ظنُّ النفس وقوع أمر نافع لها، وهو بخلاف ذلك.

يَرْزُقُكُم: يعطيكم منافع الدنيا.

لجُّوا: تمادوا وأصرُّوا.

عُتُوٍّ: العتو: التكبر والطغيان.

ونُفورٍ: النفور: الاشمئزاز من الشيء والهروب منه. والمراد: الإعراض عن الحق.

مُكِبّاً: المكبُّ: الساقط على وجهه، اسم فاعل من أكبَّ، إذا صار ذا كبٍّ، والهمزة فيه للدخول في الشيء، أو لإفادة المصير في الشيء، مثل همزة: أقشع السحاب: إذا دخل في القشع، وأرملوا: إذا فني زادهم. فالفعل المتعدي ممن غير همزة، والفعل القاصر بالهمزة بخلاف سائر الأفعال.

أَهْدَى: اسم تفضيل، مشتق من الهدى، وهو معرفة الطريق.

سَوِيًّا: السويُّ: المستقيم المستوي الشديد الاستواء، فهو فعيل بمعنى فاعل.

أَنْشَأَكُمْ: خلقكم وأوجدكم.

زُلْفَةً: مصدر (زَلِفَ) بمعنى: قَرُب. والمراد به اسم الفاعل مُزدلِفاً، أي: قريباً.

القراءات والإعراب:

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ: يجوز فيها وجهان من الإعراب:

الأول: (مَنْ) مبتدأ، و(هذا) خبره. و(الَّذِي هُوَ جُنْدٌ) صفة لاسم الإشارة، و(لكم) صفة لـ(جند) و(يَنْصُرُكُمْ) الجملة حال من (جند) أو صفة ثانية له.

الثاني: (مَنْ) مبتدأ، و(هذا) صفة لاسم الاستفهام مبيّنة له، و(الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ) صفة لاسم الإشارة. وجملة (يَنْصُرُكُمْ) خبر عن اسم الاستفهام.

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا: (أم) في قوله: (**أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً**) حرف عطف وهي (أم) المعادلة لهمزة الاستفهام. و(مَن) في قوله: (أَفَمَنْ

يَمْشِي مُكِبّاً)، وقوله: (أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً) اسم موصول في محل رفع مبتدأ، و(يمشي) صلته، و(مُكِبّاً)، (سَوِيًّا) حال من الضمير المستتر في (يمشي)، و(على وجهه) ظرف متعلق بـ(مكبّاً). و(أهدى) خبر (مَنْ) الأولى، و(مَنْ) الثانية عطف على الأولى وهو من عطف المفرد على المفرد، ويجوز إعراب: (مَنْ) الثانية مبتدأ، وخبره محذوف؛ لدلالة خبر (مَنْ) الأولى عليه، والأول أقوى؛ إذ لا حاجة إلى تقدير خبر؛ لأنَّه من باب عطف المفرد على المفرد؛ نحو أزيد أفضل أم عمرو؟

قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ: الجملة حال من ضمير (أنشأكم). (قَلِيلاً) نعت لمحذوف، و(ما) مزيدة لتأكيد القلَّة، أي: شكراً قليلاً، أو زماناً قليلاً تشكرون.

زُلْفَةً: حال من مفعول (رأوا) إما بتقدير مضاف، أي: ذا زُلفةٍ وقربٍ، أو أنَّه مصدر بمعنى الفاعل، أي: مزدلفاً، أو أنَّه مصدر نُعِتَ به؛ مبالغةً، أو ظرفٌ، أي: رأوه في مكان ذي زلفةٍ.

تَدَّعُونَ: قرأ الجمهور (تَدَّعُونَ) بفتح الدال المشددة من الادِّعاء، وقرأه يعقوب (تَدْعُونَ) بسكون الدال من الدعاء.(١)

الأساليب اللغوية:

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ

هذه الآية تأكيد للغرض الذي سيق له الوعيد في قوله تعالى: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ، أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) [سورة الملك: ١٦ –١٧]، فقد كان الغرض من تلك الآيات إثبات الإلهيَّة الحقِّ لله تعالى عن طريق دلائل التوحيد والقدرة.

وقد ورد الوعيد في تلك الآيات بأسلوب الاستفهام الإنكاري، ثم انتقلت هذه الآية إلى إبطال أن يكون أحدٌ غير الله قادراً على أن يدفع عن الكفَّار العذاب

---

(١) انظر: النشر، ج٢/٤٢٩.

الذي توعدهم الله به، وساق ذلك المعنى بأسلوب الاستفهام المقترن بـ (أم).

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ: (أم) هنا منقطعة بمعنى (بَلْ)؛ لأنَّ بعدها اسم استفهام، وهي للإضراب والإنتقال من غرض توبيخهم على ترك التأمل فيما يشاهدونه من أحوال الطير المنبئة عن عجيب قدرة الله إلى تبكيتهم بنفي أن يكون لهم ناصر غير الله تعالى.(١)

واسم الاستفهام (مَنْ) في موضع رفع مبتدأ، والغرض من الاستفهام إمَّا الإنكار والتعجيز، أو التحقير. واسم الإشارة وما بعده يحتملُ وجوهاً من الإعراب تتنوع بتنوُّع أغراض الاستفهام:

أ - فإن كان غرض الاستفهام الإنكار والتعجيز، فاسم (هذا) خبر عن المبتدأ. و(الَّذِي هُوَ جُنْدٌ) صفة لاسم الإشارة، و(لكم) صفة لـ(جند) و(يَنْصُرُكُمْ) جملة في موضع الحال من (جند) أو صفة ثانية له.

والمشار إليه: كائنٌ مفروض في الأذهان، وفائدة الإشارة استحضاره للمخاطبين، وجعله كأنَّه حاضر خارج الأذهان يشاهده المخاطبون، ويطلب منهم تعيينه، بأن يقولوا: بنو فلان. لكنَّ غرض التعجيز يجعل الجواب يؤول إلى الانتفاء، ويستلزم أن الجند المفروض غير موجود، فيكون الجواب: لا أحد قادر على دفع عذاب الله عنهم.

والاستفهام: لتبكيتهم بإظهار عجزهم عن تعيينه، وهو يشبه الاستفهام في قوله تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) [سورة البقرة: ٢٥٥].(٢)

ب _ وإذا كان غرض الاستفهام التحقير، فاسم الإشارة (هذا) صفة لاسم الاستفهام مبيِّنة له، و(الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ) صفة لاسم الإشارة. وجملة (يَنْصُرُكُمْ) خبر عن اسم الاستفهام.

---

(١) انظر: البحر المحيط، ج٢٩٧/٨، وتفسير أبي السعود، ج٨/٩.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، ج٨/٩، وتفسير القرطبي، ج٢١٨/١٨، وروح المعاني، ج١٨/٢٩، والتحرير والتنوير، ج٣٨/٢٩.

والمشار إليه: الأصنام المعروفة عندهم، ومعنى الآية: مَن هذا الجند الحقير الذي هو في زعمكم جند لكم ينصركم متجاوزاً نصر الله؟ إنه أحقر من أن يعرف، وأقل من أن ينصركم ويدفع عنكم عذاباً مقدَّراً من الله.(١)

وقد آثر النَّظم أن تكون جملة (الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ) اسمية، وجملة (يَنْصُرُكُمْ) فعليَّة؛ لأنَّ الجملة الاسميَّة تدلُّ على الدوام والثبوت، والأصل في وظيفة الجند أن يكونوا على استعداد دائمٍ للنصر إذا دعوا إليه، سواء أقاتلوا أم لم يقاتلوا؛ لأنَّ النصر يحتاج إلى استعداد وتهيؤ، كما قال النبي ﷺ: " مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ: رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَيْهِ"(٢) أي: هيعة جهاد.

أمَّا النَّصر حقيقةً فهو أمر طارئ، ويكون عند الاحتياج، ولذلك جُعلَت جملته فعليَّة. والمعنى: ينصركم عند احتياجكم إلى نصره.(٣)

مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ: (مِنْ) زائدة مؤكدة للظرف، و(دون) أصله ظرف للمكان، ومعناه: الأسفل ضد فوق، ويطلق على الحال المغاير، فيكون بمعنى (غير) على طريقة المجاز المرسل. والظرف في موضع الحال من الضمير المستتر في (يَنْصُرُكُمْ). أي: حال كون الناصر من جانب غير جانب الله. والمعنى: مَن يستطيع غير الله أن يدفع عنكم السوء، وهذا التركيب يشبه قوله تعالى: (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا) [سورة الانبياء: ٤٣].(٤)

إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ

الجملة اعتراضية مقررة لما قبلها؛ لبيان ما هم فيه من غاية الضلال. والمعنى: ما الكافرون في زعمهم أنهم محفوظون من بأس الله بحفظ آلهتهم لهم إلا

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، ج٨/٩، وروح المعاني، ج١٨/٢٩، والتحرير والتنوير، ج٣٩/٢٩.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضلِ الجهادِ والرباط، رقم ١٨٨٩، ج١٥٠٣/٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٣٩/٢٩.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج٣٩/٢٩.

في غرور عظيم وضلال فاحش.

والالتفات الى الغيبة بعد الخطاب؛ للايذان باقتضاء حالهم الإعراض عنهم، وبيان قبائحهم لغيرهم.

وفي الجملة إظهار في موضع الإضمار؛ إذ عدل عن الإتيان بضميرهم إلى إظهار وصفهم، ولم يقل: (إن هم إلا في غرور)؛ لأنَّ الوصف يؤذن بعلّة ثبوت الحكم، ويبيّنُ أنَّ الكفر سبب غرورهم.(١)

وتعريف (الْكَافِرُونَ) للاستغراق، والشمول. ومعنى الآية: شأن الكافرين كلِّهم، أهلِ الشركِ من المخاطبين وغيرِهم، أنَّهم إمَّا في غرور من غفلتهم عن توقع بأس الله، أو في غرورٍ من اعتمادهم على الأصنام، كما اغترَّت الأمم السالفة بأن الأوثان تنفعهم وتدفع عنهم العذاب فلم يجدوا ذلك منهم وقت الحاجة.

والظرفية مجازية مستعملة في شدة التلبُّس بالغرور، حتى كأنَّ الغرور محيط بهم إحاطة الظرف بالمظروف. والمعنى: ما الكافرون في كلِّ أحوالهم إلا في حال الغرور.(٢)

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ

مضمون هذه الآية متعلق بقول الله تعالى: (وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) [سورة الملك: ١٥] والكلام فيهما جارٍ على طريقة اللفِّ والنَّشر.(٣)

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ: أسلوب الاستفهام إمَّا للإنكار أو التحقير، ويختلف الإعراب وتعيين المشار إليه باختلاف غرض الاستفهام:

---

(١) نظر: تفسير أبي السعود، ج٨/٩،

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٤٠/٢٩.

(٣) اللّفُّ والنّشر: هو ذكر جملٍ متعددة على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين؛ ثقة بأن السامع يرده إليه. وهو من فنون البديع، وذلك بأن يذكر البليغ جملاً متعدّدات يتعلّق بكلّ واحِدةٍ منها أَمْرٌلاحق، فاللّف يُشار به إلى المتعدّد الذي يؤتى به أوّلاً، والنشر يُشار به إلى المتعدّد اللاحق الذي يتعلّق كلُّ واحد منه بواحد من السابق من غير تعيين، أما ذكر المتعددات مع تعيين ما يتعلّق بكلّ واحدة منها فهو التقسيم. انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٣٣٣.

أ _ فإن كان الاستفهام للإنكار والتعجيز يكون معنى الآية: لو أنَّ الله تعالى أمسك أسباب الرزق كالمطر، والنبات وغيرهما لما وجدوا رازقاً سواه.

ب _ وإن كان الاستفهام للتحقير يكون المعنى: لو أنَّ الله تعالى أمسك أسباب الرزق كالمطر، والنبات وغيرهما لما استطاعت أصنامهم أن ترزقهم؛ لأنَّها أحقر من أن ترسل رزقاً أمسكه الله عنهم.(١)

وجيء بالصلة فعلاً مضارعاً؛ لدلالة الفعل على التجدد؛ لأنَّ الرزق يقتضي التكرار، إذ حاجة البشر إليه مستمرة.

وضميرا (أمسك) و(رزقه) عائدان إلى اسم (الرحمن) الواقع في قوله تعالى: (مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ) [سورة الملك: ٢٠].(٢)

بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ: (بل) للإضراب وإبطال ما تضمنه الاستفهامان السابقان. والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً وقع جواباً عن سؤال مقدَّرٍ نشأ في ذهن السامع بعد سماع الدلائل والزواجر والعبر المتقدمة ابتداء من قوله: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) [سورة الملك: ٢] حتى هذه الآية، فسأل: ألم يتأثَّروا بذلك ويذعنوا للحق؟ فجاء الجواب في هذه الجملة: بل تمادوا في العناد والاستكبار عن اتباع الرسول ﷺ؛ حرصاً على بقاء سيادتهم، واشتدُّوا في الإعراض عن الحق؛ لأنَّه يخالف أهواءهم وما ألفوه من الباطل.(٣)

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الفاء للتفريع على ما ظهر من سوء حال المشركين وسقوطهم في مهاوي الغرور، وركوبهم متن العتو والنفور، والاستفهام تقريري.(٤)

---

(١) انظر: الكشاف، ج٤/٥٨٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ٤١.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود، ج٩/٩، والتحرير والتنوير، ج٢٩/ ٤١.

(٤) انظر: تفسير أبي السعود، ج٩/ ٩.

وقد اختلف المفسرون في حقيقة المشي، وتعيين زمنه، وتأويله على قولين:

الأول: المشي حقيقة، والآية تخبر عن حال الفريقين يوم القيامة، فالكفار يمشون على وجوههم يوم القيامة؛ لأنَّهم أكبوا على المعاصي في الدنيا. والمؤمنون يمشون على أقدامهم؛ لأنَّهم كانوا على الطريق المستقيم في الدنيا.

الثاني: المشي هنا مجاز، والمثل يحكي حال الكافر والمؤمن في الدنيا. ثم اختلفوا: فمنهم من قال: هو عام في حق جميع المؤمنين والكفار. ومنهم من قال: المراد شخص معين، واتفقوا على أن المراد بالمثل الأول: أبو جهل. واختلفوا في تعيين المراد بالمثل الثاني، فقيل: هو النبي ﷺ، وقيل: هو حمزة بن عبد المطلب. وقيل: عمار بن ياسر

ومعنى الآية: إن الكافر في اضطرابه وتعسفه في عقيدته وتشابه الأمر عليه، كالذي يمشي في مكان فيه ارتفاع وانخفاض، أو كالأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيتعثر، فيخر على وجهه. وأما المؤمن، فإنه لطمأنينة قلبه بالإيمان، ووضوح الحق له، يمشي سالماً من العثور والانحراف، كما يمشي الرجل السوي الصحيح البصير في الطريق المعلوم.(١)

واسم التفضيل (أهدى) مسلوب المفاضلة؛ لأنَّ الذي يمشي مكباً على وجهه لا شيء عنده من الاهتداء. ونظيره قولك: العسل أحلى أم الخل؟ فالمفاضلة للتهكُم والتوبيخ.

والاستفهام غرضه التقرير، ولا تراد حقيقته (الاستعلام عن أمر مجهول). والمراد: أنَّ كل سامع يجيب: بأنَّ الماشي سوياً على صراط مستقيم أهدى.(٢)

وفي هذه الآية إيجاز بالحذف؛ إذ استغنيَ في التمثيل الأول عن ذكر الطريق

---

(١) انظر: تفسير الطبري، ج٢٣/٥١٦، والكشاف، ج٤/٥٨٧، ومفاتيح الغيب، ج٣٠/ ٦٤، والبحر المحيط، ج٨/ ٢٩٧، وتفسير القرطبي، ج١٨/ ٢١٩.

(٢) انظر: البحر المحيط، ج٨/٢٩٨، والتحرير والتنوير، ج٢٩/٤٣.

الموصوف بالالتواء؛ لدلالة ما يقابله من ذكر الطريق الموصوف بالاستقامة.

والتقدير: أفمن يمشي في طريق وعرة، فيعثر في كل ساعة ويخرُّ على وجهه في كل خطوة أهدى إلى المقصد الذي يؤمُّه أم من يمشي على طريق مستوي الأجزاء لا عوج فيه ولا انحراف، فيمشي سالماً من التخبط والعثار ؟[1]

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ

مقصود هذه الآية تعريف المشركين بقبح شركهم عن طريق الحجج والدلائل والاستدلال بفروع المخلوقات بعد الاستدلال بأصولها.

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ: صُدِّرت الآية بـ(قل) وانتقلت من توجيه الخطاب المباشر إلى المشركين إلى مخاطبتهم على لسان الرسول ﷺ؛ لجعل الكلام كأنَّه قد صدر من قائِلَين؛ تفنناً في البيان، وتنشيطاً للأذهان، وترفيعاً لقدر نبيه ﷺ بإعطائه حظاً من التذكير معه، كما قال: (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ) [سورة الدخان: ٥٨].

وقد جاء الأمر بالقول في ست آيات بطريقة التكرير، من غير عاطف؛ اهتماماً بمضمون ما يُبلِّغه إليهم الرسول ﷺ في كلِّ مقالة.[2]

والضمير (هو) يعود إلى الرحمن في قوله: (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ) [سورة الملك: ٢٠]. والإنشاء الإيجاد.

وقد عقَّب ذكر خلق الإنسان بذكر خلق قوى الإدراك، فقال: جعل لكم السمع؛ لتسمعوا آيات الله وتمتثلوا بما فيها من الأوامر والنواهي، وتتعظوا بمواعظها، وجعل لكم الأبصار، لتنظروا بها إلى الآيات التكوينية الشاهدة بشؤون الله عز وجلَّ. وجعل لكم الأفئدة؛ لتتفكروا بها فيما تسمعونه

(١) انظر: تفسير أبي السعود، ج٩/٩، والتحرير والتنوير، ج٢٩/٤٣.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ٤٤.

وتشاهدونه من آيات التزيل والتكوين، وترتقوا في معارج الايمان والطاعة.[1]

وإفراد (السَّمع)؛ لأنَّه مصدر، أي: جعل لكم حال السمع، وأما (الأبصار) فهو جمع البصر بمعنى العين. و(الأفئدة) هي القلوب، والمراد هنا العقول.

والقصر المستفاد من تعريف المسند إليه والمسند في قوله: (هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ) قصر إفراد،[2] بتنزيل المخاطبين لشركهم منزلة من يعتقد أن الأصنام شاركت الله في الإنشاء وإعطاء الإحساس والإدراك.[3]

وقد خُصَّ السمع والبصر والفؤاد بالذكر؛ لأنَّ هذه الجوارح أداة العلم والفهم، وفائدة ذكرها: التنبيه على انتفاء الأعذار المانعة عن الإيمان، وكأنَّه تعالى يقول لهم: أعطيتكم قوى الإدراك الثلاثة، فضيعتموها، ولم تقبلوا ما سمعتموه، ولا اعتبرتم بما أبصرتموه، ولا تأملتم في عاقبة ما عقلتموه، فكأنَّكم ضيعتم هذه النِّعَم، وأفسدتم هذه المواهب، ولذلك قال: (قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ)، وذلك لأنَّ شكرَ نعم الله صرفُها في وجه مرضاته، فلما صرفتموها في غير مرضاته، فكأنَّكم ما شكرتم المنعم ألبتة.[4]

قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ: جملة (قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ) حال من ضمير المخاطبين، والمراد بالقلة هنا: العدم، أي: أنعم عليكم بهذه النعم حال إهمالكم شكرها.

وهذا الإطلاق من باب الاقتصاد في الحكم، ومنه قول العرب: هذه أرض قلّما تنبت كذا، أي: لا تنبته ألبتة.[5]

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، ج٩/٩.

(٢) الْقَصْر بحسب أحوال المخاطَب ثلاثة أنواع: ١_ قصر إفراد: أن يكون الكلام المشتمل على القصر موجّهاً لمن يُرادُ إعلامُه بخطأِ تصوُّرِهِ مُشَارَكةَ غيرِ المقصور عليه في المقصور. ٢_ قصر قلب: أن يكون الكلام المشتمل على القصر موجّهاً لمن يُرادُ إعلامه بخطأ تصوُّره نسْبَةَ المقصور إلى غَيْرِ المقصور عليه. ٣_ قصر التعيين: أن يكون الكلام المشتملُ على القصر موجَّهاً لمن يُرادُ إزالَةُ تردُّدِه وشكِّهِ، هل المقصورُ منسوبٌ إلى المقصور عليه أوْ إلى غَيْره. انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ١١٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ٤٤.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، ج٦٥/٣٠، والتفسير المنير، ج٣٤/٢٩.

(٥) انظر: البحر المحيط، ج٢٩٨/٨، وتفسير أبي السعود، ج٩/٩، وروح المعاني، ج٢٠/٢٩، والتحرير والتنوير، ج٢٩/ ٤٥.

قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

إعادة فعل (قُلْ)؛ للإشعار بأهميَّة الغرض المسوقة فيه تلك الأقوال.

والذرء: الإكثار من الموجود، والمعنى: نشركم فيها وكثَّركم على ظهرها.(١)

والغرض من ذكر الخلق في هذه الآية: إثبات عقيدة الحشر والجزاء؛ لتحذير المشركين من التمادي في الإعراض، ببيان أن غاية الخلق هي اختبار الإنسان (المكلَّف) ثم مجازاته بأعماله، كما تقدَّم في قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) [سورة الملك: ٢]. وبذلك أكَّدت السورة في خواتيمها ما تقدَّم ذكره في مطلعها، وتبيَّن أنَّ الغرض من ذكر دلائل القدرة في هذه السورة إثبات البعث الذي ينكرونه، ولذلك ختم تلك الدلائل بقوله: (قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الأرْضِ)؛ للتذكير بأنَّ القدرة على الخلق ابتداء توجب القدرة على الإعادة، ثمَّ قال بعده: (وَإِلَيْهِ تُحْشَرُون)؛ ليبيَّن أن جميع ما ذكره من الدلائل كان لإثبات هذا المطلوب.(٢)

وتقديم المعمول في قوله: (وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) للاهتمام بالمقدَّم، ورعاية الفاصلة، والتخصيص على سبيل الإعلام، لأنَّهم لم يكونوا يدَّعون الحشر أصلاً فضلاً عن أن يدعوه لغير الله.(٣)

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

كلُّ الدلائل التي تقدَّم ذكرها لم تكن موضع المعارضة لدى المشركين، فهم لا ينكرون الخلق، وما يحيط بأنفسهم وسائر المخلوقات من أعراض وأحوال، وإنما كانوا يجحدون البعث فقط، كما حكاه عنهم القرآن الكريم في مواضع كثيرة، منها: قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ٤٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج٦٥/٣٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ٤٥.

مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ) [سورة سبأ: ٧-٨]. ولذلك انحصر عنادهم في مضمون قوله تعالى: (وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) [سورة الملك: ٢٤] وطلبوا تعيين وقت ذلك اليوم الموعود، فقالوا: (مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ: حكى القرآن قولهم بصيغة الفعل المضارع (وَيَقُولُونَ) بدلاً من الماضي؛ لأنَّ صيغة الفعل المضارع تشمل الحاضر، وما يوجد من الكفار من هذا القول في المستقبل، وتحتمل الماضي بتقدير: (كانوا يقولون متى هذا الوعد)،[١] ولأنَّ صيغة المضارع تقتضي التكرير، فتتوافق مع ما ثبت في مواضع كثيرة في القرآن من تكرير مطالبهم في تعيين موعد الحشر كما في هذه الآية (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) التي وردت في سياق الحديث عن البعث ست مرات في سورٍ متعددة في [سورة يونس: ٤٨، وسورة الأنبياء: ٣٨، وسورة النمل: ٧١، وسورة سبأ: ٢٩، وسورة يس: ٤٨، وسورة الملك: ٢٥]، وقوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا) [سورة الأعراف: ١٨٧، وسورة النازعات: ٤٢].[٢]

و(الْوَعْدُ) مصدر بمعنى اسم المفعول، وآثروا لفظ (الْوَعْدُ)؛ استنجازا له، لأنَّ شأن الوعد الوفاء.[٣] (هذا) اسم إشارة، والمشار إليه إمَّا: الحشر الذي ينبئ عنه قوله: (وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) [سورة الملك: ٢٤] والمعنى: متى هذا الحشر الموعود.[٤] أو العذاب الذي دلَّ عليه قوله: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ ... أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا) [سورة الملك: ١٦، ١٧]. والمعنى متى يأتي الخسف والحاصب والعذاب الموعود.[٥]

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/ ٦٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ٤٦.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ٤٦.

(٤) انظر: تفسير الطبري، ج٢٣/ ٥١٧، وتفسير أبي السعود، ج٩/٩.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/ ٦٥، وتفسير البيضاوي، ج٥/ ٣٦٦، وتفسير الخازن، ج٧/ ١٢٧، وتفسير القرطبي، ج١٨/٢٢٠، والتفسير المنير، ج٢٩/٣٤.

والاستفهام في: (مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) غرضه التهكُّم واستبطاء إتيان الموعود بطريق السخرية والاستخفاف؛ لإيهام ضعاف الإيمان أنَّ البعث لا أصل له؛ لأنَّه لم يتعجَّل وقوعه.(١)

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ: الخطاب في قولهم: (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) للنبي ﷺ والمؤمنين؛ لأنَّهم يشاركون النبيَّ ﷺ في تلاوة الآيات المشتملة على الإنذار بالحشر.(٢) وجواب الشرط محذوف، والتقدير: إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به من مجيء الساعة والحشر فبيِّنوا وقته.(٣)

قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ

أمر الله تعالى رسوله ﷺ بإجابة سؤالهم بطريقة جرت على ظاهر الاستفهام عن وقت اليوم الموعود، وبيان أنَّ وقت هذا الوعد لا يعلمه إلا الله.

قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ: فُصِلت الجملة عمَّا قبلها ولم تُعطَف؛ لأنَّ المقول جرى في سياق المجاوبة والمحاورة، ولذلك لم يعطف فعل (قُلِ) بالفاء.

ولام التعريف في (الْعِلْمُ) للعهد، أي: العلم بهذا الوعد.(٤)

وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ: أي: ما أنا إلا نذير بوقوع هذا الوعد، مبيِّنٌ لما أمرت بتبليغه، ولا أتجاوز ذلك إلى كوني عالماً بوقت اليوم أو العذاب الموعود.

فمضمون القول الإخبار أن لا أحد يعلم وقت الساعة أو العذاب على التعيين إلا اللّه عز وجل، وبيان أنَّ واجب النبيِّ ﷺ أن يبلِّغ الناس أن هذا الموعود كائن وواقع لا محالة؛ ليحذروه.(٥)

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/ ٦٥، واللباب، ج١٩/ ٢٥٧.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، ج٩/ ٩ – ١٠، والتحرير والتنوير، ج٢٩/ ٤٦.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود، ج٩/ ١٠.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ٤٦.

(٥) انظر: التفسير المنير، ج٢٩/ ٣٤.

وعدم العلم بوقت العذاب أو الساعة لا يضرُّ وظيفة التبليغ؛ لأنَّ العلم بالوقوع غير العلم بوقت الوقوع، فالعلم الأول حاصلٌ، وهو كاف في الإنذار والتحذير، أمَّا العلم الثاني فقد استأثر به الله، وذلك لا يمنع النبي ﷺ من التبليغ بوقوعه.(١)

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً: الفاء فصيحة، وتقتضي تقدير جملتين، وترتيب الجملة الشرطية عليهما، والتقدير: حلَّ موعد الحشر أو العذاب الموعود، فرأوه، فلما رأوا الموعود به، سيئت وجوههم.(٢)

(لما) حرف توقيت، أي: سيئت وجوههم في وقت رؤيتهم الموعود به.(٣)

وفعل (رَأَوْهُ) ماضٍ والمراد به المستقبل، والضمير عائد إلى (الْوَعْدُ)، والمعنى: عندما يرون الموعود به تساء وجوه الذين كفروا.

وقد عدل عن صيغة الاستقبال إلى صوغ الوعيد بصورة الإخبار عن أمر وقع وانقضى؛ لتنزيل وعيد الله المحقَّق منزلة الذي تحقَّق فعلاً؛ لكونه صادر عمن لا خُلف في أخباره.(٤)

والزُّلفة: مصدر بمعنى اسم الفاعل (مزدلِفاً) أي: قريباً. أو هو من باب الإخبار بالمصدر؛ للمبالغة.(٥)

سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا: بني الفعل (سِيئَتْ) للمفعول، والفاعل معلوم من المقام، والتقدير: يسوء وجوهَهم رؤيةُ الموعود به.

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/ ٦٦.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، ج١٠/٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٤٧/٢٩.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج٤٧/٢٩.

(٥) انظر: اللباب، ج٢٥٧/١٩ ، وتفسير أبي السعود، ج١٠/٩.

وقد آثر النَّظم وضع الموصول موضع ضميرهم، فلم يقل: (سيئت وجوههم)؛ توبيخاً لهم، وتقبيحاً لوصف الكفر، للإيذان بأنَّه علَّة ما يحصل لهم من المساءة بالموعود.(١)

وقد تعددت عبارات المفسرين في بيان معنى الآية: فقيل: قبحت وجوههم وكلحت، وعلاها الكآبة، وغشيها الكسوفُ والقترة. وقيل: ظهر على وجوههم سمة تدل على كفرهم، نحو: (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) [سورة آل عمران: ١٠٦].

وحاصل تلك العبارات: أنَّهم عندما يرون العذاب ينالهم سوء شديد تظهر آثار الانفعال منه على الوجوه، حتى تصير وجوههم كوجه من يُقاد إلى القتل، أو يُعرَض على العذاب.(٢)

وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ: (وَقِيلَ) فعل مبني للمفعول، والقائل: هم الزبانية، أو يقول بعضهم لبعض ذلك. وعدل عن تعيين القائل؛ للاهتمام بالمقول بدلاً من القائل؛ إذ لا يتعلَّق بتعيينه غرضٌ مقصود.(٣)

(هذا) اسم إشارة، والمشار إليه الموعود الذي تقدَّم ذكره.

(تَدَّعُونَ) يترتب على تنوُّع قراءات هذه الكلمة اختلاف في المعنى:(٤)

أ_ فقراءة الجمهور (تَدَّعُونَ) بمعنى: تزعمون، وهذا الفعل يتعدى إلى مفعوله بنفسه، ولمَّا تعدى بالباء (بِهِ) تبيَّن أنَّ الفعل قد ضُمِّن معنى فعلٍ آخر يتعدى إلى معموله بالباء، وتقديره هنا (تُكذِّبون).(٥)

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، ج١٠/٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/ ٦٦، والبحر المحيط، ٨/ ٢٩٨، وتفسير القرطبي، ج١٨/ ٢٢٠، والتحرير والتنوير، ج٤٨/٢٩.

(٣) انظر: الكشَّاف، ج٥٨٧/٤، ومفاتيح الغيب، ج٣٠/ ٦٦، والتحرير والتنوير، ج٤٨/٢٩.

(٤) انظر: الكشَّاف، ج٥٨٧/٤، ومفاتيح الغيب، ج٣٠/ ٦٦، والبحر المحيط، ٨/ ٢٩٨، وتفسير البيضاوي، ج٣٦٦/٥، والتحرير والتنوير، ج٤٨/٢٩.

(٥) التّضمين: هو اشتمال الكلمة على معنى كلمة أُخْرى، مع الإتيان بما يدلُّ عليها. وهو أسلوب من أساليب الإيجاز، غرضه جعل الجملة الواحدة بقوَّة جملتين، وذلك بأن يذكر البليغ أحدَ الفعلَيْنِ بلفْظِه، ويحذف معموله، ثمّ يأتي بما يتعدّى إليه الفعلُ الآخر، فَيَذْكُرُه، ليدل المذكور على المحذوف. انظر: البلاغة العربية، ج٢/ ٤٩ – ٥٠.

ومفعول (تَدَّعُونَ) محذوف؛ لظهوره من دلالة قوله تعالى: (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) [سورة الملك: ٢٥]، والمعنى: قِيلَ لهم هذا هو الحشر الموعود، أو العذاب الموعود الذي كنتم تكذِّبون به، وتزعمون أنَّه أمرٌ باطلٌ لا أصل له.

ب _ وقراءة يعقوب (تَدْعون) من الدعاء، والمعنى: هذا هو العذاب الموعود الذي كنتم تستعجلونه وتدعون الله أن يصيبكم به تهكُّماً وعناداً، على نحو قولهم: (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) [سورة الأنفال: ٣٢]

وتقديم المعمول (به) على عامله؛ للاهتمام بالمقدَّم، ورعاية الفاصلة.(١)

ولا يخفى أنَّ (هَذَا الَّذِي) مبتدأ وخبر، وكلاهما معرفة، والغرض من تعريف طرفي الجملة الاسميَّة إفادة القصر؛ للتعريض بجحود المشركين الذين إذا رأوا البعث أو العذاب الموعود حسبوه شيئاً آخر من شدَّة إنكارهم له. نحو قوله تعالى: (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) [سورة الأحقاف: ٢٤].(٢)

الأساليب البلاغية:

١_ **أسلوب الالتفات:** تكرَّر في الآيات وتنوعَّت طرقه، حيث جاء في مطلع الآيات الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ) فبعد أن كان الكلام قبله جارياً على أسلوب الغيبة: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ) التفت إلى الكفَّار مخاطباً إياهم؛ لإحضارهم إلى مقام التبكيت والتعجيز والإنكار؛ للتشديد عليهم.

ثم التفت مرة أخرى من الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى: (إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ) بعد أن كان الكلام قبله جارياً على أسلوب الخطاب: (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/٤٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/٤٨.

هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ) والالتفات الى الغيبة هنا؛ للايذان باقتضاء حالهم الإعراض عنهم، وبيان قبائحهم لغيرهم.

ثم التفت مرَّة أخرى إلى الخطاب في قوله تعالى: (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ) بعد الحديث عن الكفار بأسلوب الغائب في قوله: (إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ) وفائدة الالتفات إلى الخطاب: إحضار الكفَّار مرةً أخرى إلى مقام التبكيت والتعجيز والإنكار؛ للتشديد عليهم.

ثم جاء بعده الالتفات إلى الغيبة بعد الخطاب، فقال: (بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) بأسلوب الغائب بعد أن كان الكلام جارياً بأسلوب الخطاب في قوله: (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ) والالتفات الى الغيبة هنا؛ للايذان أيضاً باقتضاء حالهم الإعراض عنهم، وبيان قبائحهم لغيرهم.

٢ – **أسلوب القصر:** في قوله تعالى: (إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ) بطريق النفي والاستثناء، والقصر هنا إضافي، فائدته: قلب اعتقاد الكفَّار الذين ظنُّوا أنَّهم في مأمن من بأس الله بحماية آلهتهم لهم.

وفي قوله: (هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ)، وقوله: (هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ) وطريق القصر هنا تعريف المسند إليه والمسند، والقصر حقيقي وهو قصر إفراد، بتنزيل المخاطبين لشركهم منزلة من يعتقد أن الأصنام شاركت الله في الخلق.

وفي قوله: (قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ) القصر بـ (إنَّما) وهو قصر حقيقي، وقوله: (وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ) وهو قصر إضافي.

وفي قوله: (هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ) قصر بطريق تعريف طرفي الجملة الاسميَّة؛ للتعريض بجحود المشركين.

٣ _ **الإظهار في موضع الإضمار:** في قوله تعالى: (إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ)؛ إذ الأصل أن يقال: (إن هم إلا في غرور)، لكنه عدل عن الإتيان بضميرهم، إلى

التعبير عنهم بوصف الكفر، لأنَّ الوصف يؤذن بعلَّة الحكم، ففيه بيانٌ أن الكفر هو علَّة غرورهم.(١)

٤ _ **أسلوب المجاز:** في قوله تعالى: (إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِى غُرُورٍ)، وقوله: (بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ)، فالظرفية في الجملتين مجازية مستعملة في شدة التلبس بالغرور والعناد، وكأنَّهما يحيطان بهم إحاطة الظرف بالمظروف.

٥ _ **أسلوب اللفِّ والنشر:** في قوله تعالى: (أَمَّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِى غُرُورٍ، أَمَّنْ هَذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) بعد قوله: (وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ، أَءَمِنتُمْ مَّن فِى السَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ، أَمْ أَمِنتُمْ مِّن فِى السَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ)

فمضمون الآية الأولى ناشء عن قول الله تعالى: (أَءَمِنتُمْ مَّن فِى السَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ، أَمْ أَمِنتُمْ مِّن فِى السَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) ومضمون الآية الثانية متعلقٌ بقوله تعالى: (وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ). والكلام في الآيتين يتعلَّق بما تقدَّم قبلهما في آيات سابقة من غير تعيين ما تتعلَّق به كل واحدة منهما؛ ثقة بأن السامع يردُّ كل واحدة منهما إلى ما يتعلَّق به؛ اعتماداً على القرائن والدلائل.

٦ – **الاستعارة التمثيليَّة:** في قوله تعالى: (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وفيه استعارتان تمثيليتان:

أ _ في قوله: (يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ) تشبيه لحال المشرك في تقسُّم أمره بين الآلهة؛ طلباً للذي ينفعه منها، بحال القاصد أرضاً معينة ليس لها طريق واضحة، فهو يتتبع الطرق الملتوية وتلتبس عليه، ولا يوقن بالطريق التي تبلغ

(١) نظر: تفسير أبي السعود، ج٨/٩.

إلى مقصده، فيبقى حائراً يتعرف آثار أقدام الناس وأخفاف الإبل؛ ليعلم بها أنَّ الطريق مسلوكة أو متروكة. فهذه الآية تمثِّل حال المتحير المتطلب للآثار في الأرض بحال المكبِّ على وجهه في شدة اقترابه من الأرض.

ب _ وقوله: (أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) تشبيه لحال الذي آمن بربٍ واحد، ووثق بنصره وتأييده، وعلم أنه قد سلك طريق الحقِّ، بحال الماشي في طريق واضحةٍ، لا ينظر إلا إلى اتجاه وجهه فهو مستو في سيره.

٧ – **الإيجاز بالحذف:** في قوله تعالى: (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)؛ استغنى في التمثيل الأول عن ذكر الطريق الموصوف بالالتواء؛ لدلالة ما يقابله من الطريق المستقيم. وفي قوله تعالى: (هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ) على قراءة الجمهور بتضمين (تَدَّعُونَ) معنى الفعل (تُكذِّبون)

المعنى الإجمالي:

ما زالت الآيات تسوق الأدلة الدالَّة على وحدانية الله وقدرته، الداحضة لكلِّ المزاعم التي تزيّن للمشركين كفرهم، فمن تلك الأدلة أن الله سأل المشركين تعيين نصيرٍ لهم يقدر على دفع عذاب الله عنهم إن أراد الرحمن إنزاله عليهم، وإيقاعه بهم. ولمَّا كان معلوماً لكلِّ أحدٍ أنْ لا أحد يقدر على دفع عذاب الله، ثبت أنَّ الكافرين ضالُّون في اعتقادهم أنَّ الأصنام التي يعبدونها من دون الله قادرة على حفظهم من المصائب، فقد أغواهم الشيطان وغرَّهم بالأماني الباطلة، فإنَّ الله وحده هو الذي يحفظهم بعنايته. ثم سألهم الله تعيين رازقٍ غير الله يستطيع أن يرزقهم إن منع الله عنهم أسباب الرزق. ولمَّا كان معلوماً لكلِّ إنسانٍ أن لا أحد يملك رزق العباد غير الله تعالى، تبيَّن أن الكافرين الذين يعبدون غير الله متمادون في إصرارهم على العناد والاستكبار، والإعراض عن الحقِّ. ثم ضرب الله مثلاً للكافر والمؤمن؛ تبياناً لاختلاف حاليهما، فقال: هل يستوي حال من يمشي واقعاً على وجهه، لا يعرف طريقه، وحال من يمشي على طريق واضح لا اعوجاج

فيه؟ فالكافر في اضطرابه وتعسفه في عقيدته وتشابه الأمر عليه، كالذي يمشي في مكان فيه ارتفاع وانخفاض، أو كالأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيتعثَّر، فيخرُّ على وجهه. وأما المؤمن، فإنه لطمأنينة قلبه بالإيمان، ووضوح الحقِّ له، يمشي سالماً من العثور والانحراف، كما يمشي الرجل السوي الصحيح البصير في الطريق المعلوم. قل أيُّها النبيُّ لأولئك الذين عطلوا عقولهم عن دلائل الهداية: إنَّ الله هو الذي أوجدكم من العدم، وجعل لكم السمع؛ لتسمعوا آيات الله وتتعظوا بها، وجعل لكم الأبصار، لتنظروا بها إلى الآيات الشاهدة بقدرة الله، وجعل لكم العقول؛ لتتفكروا فيما تسمعونه وتشاهدونه من آيات الله، وإنَّكم ما أديتم شكر هذه النعم لله الذي أنعم بها عليكم. إنَّ في دلالة الخلق برهان واضح أنَ الله الذي خلقكم ونشركم في الأرض أول مرة قادر على بعثكم بعد الموت وجمعكم لديه، لأجل الحساب والجزاء. ولمَّا ساقت الآيات البراهين الدالَّة على صحة البعث وحقيقة وقوعه سأل المشركون النبيَّ ﷺ والمؤمنين بتهكّم واستهزاء: متى يكون موعد هذا الحشر الموعود؟ أخبرونا بزمانه إن كنتم مؤمنين بتحقُّق وقوعه. فأمر الله نبيه ﷺ أن يخبرهم أنَّ العلم بوقت الساعة يختصُّ الله به، وأنَّ مهمته ﷺ تقتصر على التبليغ بحقيقة وقوعه، والتحذير من عاقبة الكفر. وعندما يأتي الحشر الموعود ويرى الكفار العذاب قريباً منهم، يستاؤون وتظهر في وجوههم مذلَّة الانكسار، ويقال توبيخاً لهم: هذا هو اليوم الموعود الذي كنتم تكذِّبون به.

الفوائد والأحكام:

أولاً: إنَّ الله سبحانه إذا قضى إيقاعَ العذاب بالكافر، فلا يملك أحدٌ دفعَ العذاب عنه، ولذلك لا أحدَ يستحقُّ العبادة إلا الله الذي يحفظ حياة الناس.

ثانياً: يعدُّ الخلق والإنشاء من العدم دليلاً ساطعاً على حقيقة البعث بعد الموت، وحشر الناس للجزاء؛ لأن القادر على البدء أقدر على الإعادة.

ثالثاً: يجب على المؤمن أداء حقِّ نعمة السمع والبصر والعقل، بشكر الله تعالى عليها، واستعمالها فيما خُلِقت لأجله.

هلاك الدُّعاة إلى الحقِّ لا يدفعُ العذابَ المُحقَّقَ عن أنصارِ الباطل

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)

[سورة الملك: ٢٨ – ٣٠]

مناسبة الآيات لما قبلها:

هذه الآية تكشف عن جانب من طبائع أهل الشرِّ الذين يبغضون من ينهاهم عن هواهم ويتمنون هلاكه، خاصَّة إذا أرفق نهيه بالإنذار والتخويف.

ولما كان النبيُّ ﷺ والمؤمنون يحذِّرون الكفَّار من عاقبة كفرهم، ومصيرهم يوم الحشر بيَّنت الآيات أن الكفَّار كان يقابلون نهيهم بتمني الهلاك لهم؛ لأنَّهم كانوا يظنون أنَّ في هلاك النذير نجاة لهم من هول العذاب الذي كان ينذرهم به، ونبَّهتهم على ضرورة الحذر من مكر الله، وعدم الاغترار بأوهامهم الفاسدة، فإنَّ هلاك المؤمنين أو نجاتهم لن ينجيهم من نيل جزاء كفرهم.(١)

سبب النزول:

الأرجح أنَّ الآيات نزلت ابتداءً، من غير سبب؛ إذ لم يثبت في السنة ما يربط نزول هذه الآيات بواقعة أو حادثة.

معاني المفردات:

غَوْراً: أصل الغور: ذهاب الماء في الأرض، وهو مصدر غار الماء: إذا نضب وذهب في الأرض، وغارت البئر، إذا نزح ماؤها فلم تنله الدلاء.

بِماءٍ مَعينٍ: ظاهر على وجه الأرض تراه العيون، أو جارٍ قريب تناله الأيدي.

---

(١) انظر: نظم الدُّرر، ج٨/ ٨٦.

القراءات والإعراب:

أَرَأَيْتُمْ: الرؤيا علمية، وفعلها معلق عن العمل، ولذلك لم يرد بعده مفعولاه، وهو معلق بالاستفهام في الموضعين.

أَهْلَكَنِيَ: قرأ الجمهور بفتح الياء، وقرأها حمزة بإسكان الياء.

مَعِيَ: قرأ الجمهور بفتح الياء، وقرأها أبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي بسكون الياء.

فَسَتَعْلَمُونَ: قرأ الجمهور (فَسَتَعْلَمُونَ) بتاء الخطاب، وقرأ الكسائي (فَسَيَعْلَمُونَ) بياء الغائب.(١)

الأساليب اللغويَّة:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ

كان من بذاءة لسان المشركين أنَّهم كانوا يجهرون بتمني الهلاك لرسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، كما ورد في القرآن في مواضع كثيرة، منها: قوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ) [سورة الطور:٣٠] وقوله: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ) [سورة الأنفال: ٣٠].

وقد أمر الله نبيَّه ﷺ أن يخبر الكفَّار حقيقةً تدحض أمانيهم، وهي أن موت أحد أو حياته لا يغني عن غيره ما جرَّه إليه عمله. وقد جرَّت إليهم أعمالهم غضب الله ووعيده، فهو نائلهم في حياة النبي ﷺ أو بعد وفاته. وقد أكدَّ الله هذا المعنى بقوله: (فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ، أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ) [سورة الزخرف:٤١ - ٤٢](٢)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا: كرَّر الأمر بالقول؛ اهتماماً

(١) النشر، ج٤٢٩/٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٤٨/٢٩.

بمضمون ما يُبلِّغه إليهم الرسول ﷺ؛ لما فيه من حجج أخرى تدلُّ على ظهور قدرة الله وكمال سلطانه، (وهو المحور العام الذي عنيت السورة بإظهاره)

أَرَأَيْتُمْ: الرؤيا علمية، وليست بصرية، والمعنى: أخبروني خبراً تثقون بصدقه، كما تثقون بما ترونه رؤية العين.(١)

والاستفهام في (أَرَأَيْتُمْ) إنكاري؛ لإنكار اندفاعهم إلى رغائب لا يجنون منها نفعاً؛ ولكنَّها مما تمليه عليهم نفوسهم الخبيثة من الحقد والحسد.(٢)

إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ: أي: أماتني، وعبر عن الإماتة بالإهلاك؛ لأنَّهم كانوا يدعون على النبيِّ ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك.(٣)

وإسناد الإهلاك إلى الله؛ للإعلام بأنَّ الأمر كلَّه بيد الله على القطع، وأنَّه لا شيء في أيديهم، فهو لا يخافهم، ولا يخشى دعواتهم عليه.(٤)

وَمَنْ مَعِيَ: المعيَّة مجازيَّة، وهي الموافقة والمشاركة في الاعتقاد والدين، كما في قوله تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ) [سورة الفتح: ٢٩]، أي: الذين آمنوا معه.(٥)

أَوْ رَحِمَنَا: أي: رحمنا بالحياة وتأخير الأجل، أو بالنصر عليكم.(٦)

فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ: الفاء رابطة لجواب الشرط، والاستفهام إنكاري، أي: لا مُجيرَ يُجيرُهم منه، ولذلك لن ينفعكم هلاكنا.

والتعريف في (الْكَافِرِينَ) لإفادة العموم، فيشمل المخاطبين وغيرهم.

---

(١) انظر: نظم الدرر، ج٨/٨٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ٤٩.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود، ج٩/١٠.

(٤) انظر: نظم الدرر، ج٨/٨٦.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ٤٩.

(٦) اكتفى جمهور المفسرين بالتفسير الأول، وذكر الوجه الثاني بعض المفسرين. انظر: الكشاف، ج٤/٥٨٧، والبحر المحيط، ج٨/٢٩٨، وروح المعاني، ج٢٩/٢١.

وذكر وصف (الْكَافِرِينَ) موضع ضميرهم؛ للتسجيل عليهم بالكفر، وتعليل نفي الإنجاء به بالإيماء إلى علة الحكم، لأنَّه وصف إذا علق به حكم أفاد تعليل ما منه اشتقاق الوصف.(١)

وتنكير (عَذَابٍ) للتهويل، أي عذاب عظيم هائل. والمراد به العذاب الموعود المذكور في قوله تعالى: (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ).(٢)

قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ

قُلْ: تكرار الأمر بالقول؛ للاهتمام بمضمون ما اشتملت عليه جملة القول.

هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا: الضمير (هُوَ) عائد إلى اسم الله في قوله: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ).

وإيثار اسم (الرَّحْمَنُ)، لمناسبة قوله: (أَوْ رَحِمَنَا)، فإنَّه بعد أن سوى بين فرض إهلاك المسلمين وإحيائهم، بيَّن أنَّ كلا الحالين لا ينفع في دفع العذاب عن الكافرين، ثم أعقب بأنَّ المسلمين آمنوا بالرحمن، فهم مظنَّة أن تتعلق بهم صفة الرحمة، فيرحمهم الله في الدنيا والآخرة، فيعلم المشركون أنَّهم هم الفريق الضال حين يرون أثر الرحمة على المسلمين.

وبهذه التوطئة يقع الإيماء إلى جانب المهتدي والجانب الضال من قوله: (فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)؛ لأنَّه يظهر بأدنى تأمُّلٍ أنَّ الذين هم في ضلال مبين هم الذين جحدوا وصف (الرَّحْمَنُ) وتوكلوا على الأوثان، فهم أحرياء بأن يُحرموا رحمة الله. وأمَّا المؤمنون فهم أحرياء بأن يظفروا برحمته سبحانه؛ لأنَّهم آمنوا بالرحمن وتوكَّلوا عليه دون غيره.(٣)

ويُلحظ في هذه الآية تأخير متعلق الإيمان، وتقديم متعلَّق التوكل، وغرضه:

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، ج٩/١٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ٥٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ٥١.

صرف الفكر إلى الاهتمام أو الاختصاص:

فتقديم معمول (تَوَكَّلْنَا)؛ لإفادة الاختصاص، أي: توكلنا عليه دون غيره، وفي ذلك تعريضٌ بمخالفة المشركين الذين تركُوا التوكل على الله؛ بسبب اشتغال فكرهم بالتوجه إلى الأصنام.

وتأخير معمول (آمَنَّا)، للتعريض بالكافرين، لوقوع هذه الجملة عقب ذكر الكافرين في قوله: (فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)، وتوجيه الاهتمام إلى الإخبار عن إيمان المؤمنين، وبيان أنه سبب نجاتهم.(١)

فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ: (مَنْ) اسم موصول، وما صدق (مَنْ) فريق مُبهَمٌ متردِّدٌ بين فريقين أشار إليهما قوله تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ). فأحد الفريقين فريق النبي ﷺ ومن معه، والآخر فريق الكافرين. والمعنى: سيتضح لكم أيُّ الفريقين هو في ضلال مبين. أي: نحن أم أنتم وهذا تهديد لهم.(٢)

وجملة (فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) في قراءة الجمهور التفات من الغيبة إلى الخطاب، للتهديد، وهي مما أُمِر الرسول ﷺ بقوله للكفار.

وقراءة الكسائي (فَسَيَعْلَمُونَ) إخبارٌ من الله لرسوله ﷺ بأنه سيعاقبهم عقاب الضالين، وهي تجري على ظاهر الغيبة في الجملة السابقة (فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ).(٣)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ

في هذه الآية تذكير ببعض نعم الله عليهم على طريق الاحتجاج؛ إذ يقول الله تعالى: أخبروني إخباراً لا لبس فيه ولا خفاء: إن جعل الله ماء الينابيع، الذي

---

(١) انظر: الكشاف، ج٤/ ٥٨٨، والتحرير والتنوير، ج٢٩/ ٥١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ٥١.

(٣) انظر: اللباب، ج٢٥٩/١٩، والتحرير والتنوير، ج٢٩/ ٥٢.

تعدونه في أيديكم كماء زمزم، وغيره غائراً ذاهباً في الأرض لا تناله الدلاء بسبب نزوحه، فمن يقدر على أن يأتيكم بماء معين جارٍ ظاهر تراه العيون، وتناله الأيدي والدلاء.

ومقصود الآية: أن يجعلهم مُقرّين ببعض نعم الله عليهم، ويريهم قبح ما هم عليه من الكفر. لأنَّهم لا بدَّ بعد هذه الحجَّة أن يقولوا الله تعالى وحده يأتينا به، ولا أحد غيره. فيقال لهم حينئذ: فلم تجعلون من لا يقدر على فعل شيءٍ أصلاً شريكاً لله في العبودية؟[1]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً: آثر النظم الإتيان بحرف الشكِّ (إنْ)؛ رفقاً في وعيدهم، وعنايةً بقلب النبي ﷺ.[2]

غَوْراً: الغور: الغائر الذي لا تناله الدلاء، والوصف بالمصدر؛ للمبالغة.[3]

فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ: الاستفهام إنكاري، أي: لا يأتيكم أحد غير الله به. والماء المعين: هو الماء الجاري، أو الظاهرا للأعين، السهل المأخذ.

واستغنى عن ذكر الجواب في الآيات جميعاً، لظهوره من سياق الكلام.[4]

الأساليب البلاغية:

١_ **القصر:** في قوله: (وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا) بتقديم ماحقه التأخير؛ لإفادة الاختصاص.

٢ – **وضع الظاهر موضع الضمير:** في قوله تعالى: (فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ)؛ لإظهار علة الحكم.

٣ _ **مطابقة اختتام السورة لمقصود افتتاحها،** حيث افتتح سبحانه السورة ببيان عظيم بركته وتفرُّده في مملكته، وختم بذكر إحدى النعم التي تغافل

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/ ٦٧.

(٢) انظر: نظم الدرر، ج٨/٨٨.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ج٣٠/٦٧.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٩/ ٥٣.

الناس عن عظمتها بحكم الإلف والاعتياد، فالماء الذي هو سبب الحياة إن إراد الله الذهاب به، فلن يقدر أحد غيره على الإتيان به، ولن يقدر أحد أن يدفع الموت عن الأنفس والزروع التي ستتلف؛ بسبب غياب الماء. فكان في ختام السورة تلويح بما في افتتاحها من الإجمال.

المعنى الإجمالي للآيات:

ما زالت الآيات تقيم الحجج الدالة على كمال سلطان الله وتفرُّده بالألوهيَّة، وفي هذه الآيات يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخبر المشركين: أنه لو تحقَّقت أمنيات المشركين، فمات النبي ﷺ وجميع المؤمنين، أو لم تتحقَّق رغباتهم، فرحم الله نبيَّه ﷺ والمؤمنين فطال أجلهم، وتحقق نصرهم؛ فإنَّ كلا الحالين لن ينفع الكفار، ولن يدفع عنهم العذاب الذي تسبَّب به كفرهم. لأجل ذلك يجب أن يعلموا أنَّ الإيمان بالرحمن، والتوكُّل عليه وحده في جميع الأمور سبب النجاة من العذاب، فإذا نزل العذاب عندها سيعلم الكفَّار أيُّ الفريقين كان في بُعْدٍ عن صراط الله المستقيم. ثم أمر الله نبيه أن يقول للمشركين: أخبروني إن أصبح ماؤكم الذي تشربون منه غائراً في الأرض، فمَن غير الله يجيئكم بماء جارٍ ظاهر للعيون؟ والجواب لا أحد غير الله قادرٌ على ذلك.

الفوائد والأحكام:

أولاً: يدلُّ مقابلة (أَهْلَكَنِيَ) ب (رَحِمَنَا) على أنَّ تأخير أجل المؤمن رحمة؛ لأنَّ استطالة حياة المؤمن سببٌ في زيادة بركة الإيمان والأعمال الصالحة.

ثانياً: يستحبُّ أن يقول القارئ عقب قوله تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ) يستحب أن يقول: اللّه رب العالمين.[1]

(١) انظر: السِّراج المنير، ج٤/٣٨٠.

خاتمة الكتاب

الحمد لله الذي أنعم عليَّ بإتمام هذا الكتاب ووفقني إلى دراسة سورٍ من القرآن الكريم، وتحليل ما فيها من الأساليب اللغوية والبلاغيَّة، والكشف عن بعض ما اشتملت عليه من الفوائد العلميَّة والفقهيَّة والدلاليَّة، وتوضيح منهج التفسير التحليلي بدراسة علميَّة عمليَّة تُظهر عظمة القرآن الكريم، وتكشف عن جمال نظمه، ودقَّة اختيار كلماته، وإعجاز تراكيبه وجمله.

إنَّ هذه الدراسة الماتعة تؤكِّد أنَّ حقَّ القرآن على المؤمنين أن يتذوقوا جمال بلاغته، وإعجاز بيانه، ويعتبروا بما فيه من المواعظ والأحكام، ويشغلوا أوقاتهم بتلاوته وتطبيقه، لأنَّه الدستور الأعظم الذي من تمسَّك به سلِمَ من الركون إلى الآراء القاصرة عن فهم المقصد الأسمى في هذه الحياة وما ينبغي أن يكون عليه حال الإنسان في جميع أموره التي تتعلَّق بسلامة عقيدته وسلوكه، ونجا من كلِّ صارفٍ يصرفه عن وسطيَّة الإسلام.

وإنَّ أول أمرٍ يحمل المسلم على التمسُّك بتعاليم القرآن في مختلف النواحي العقديَّة والاجتماعية والسلوكيَّة هو تعظيم قدر القرآن الكريم؛ تعظيماً لمنزِّل القرآن، وتعظيماً لما جاء في القرآن من دلائل الحقِّ وفنون الإعجاز، وعِرفاناً بفضل القرآن الذي هدى بتعاليمه السَّامية إلى نور العلم والفهم، وسمى بأتباعه إلى أرقى درجات الإنسانيَّة.

وهذا الكتاب يشتمل على تلك المقاصد التي أشرت إليها، ففيه موضوعات تعتني بتقويم الجوانب العقديَّة والسلوكيَّة استناداً إلى دِلالات الآيات القرآنيَّة. أسأل الله أن يوفق الطلبة إلى الانتفاع بما جاء فيه على الوجه الأكمل الذي يرتقي بهم إلى مرضاة الله سبحانه. إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله ربِّ العالمين.

جامعة
حلب
١٩٥٨
UNIVERSITY
OF
ALEPPO

فهرس المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د. ط./١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.
- أثر تعدد القراءات في بلاغة النظم القرآني، د. انشراح سويد، دار العترة النبويَّة، حلب، ط١/ ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م.
- أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١/ ١٤٠٥هـ
- أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي (٥٤٣هـ)، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (٤٦٨هـ)، دار الاتحاد العربي ومؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، د.ط./١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.
- أسرار ترتيب القرآن، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩٨١١هـ)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة.
- إعلام الأنام شرح بلوغ المرام، تحرير وشرح واستنباط الأستاذ الدكتور نور الدين عتر، العقوبات والمجتمع، دار اليمامة، ط٧/ ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.
- الأم، للإمام أبي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي (٢٠٤هـ) مع مختصر المزني، دار الفكر، دمشق، ط٢/١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للإمام القاضي أبي بكر محمد بن الطيِّب الباقلاني (٤٠٣هـ)، تحقيق: العلامَّة محمد زاهد الكوثري، دار نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، د.ط. ١٣٦٩هـ – ١٩٥٠م.

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للإمام ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي البيضاوي، (٦٨٥هـ)، دار الفكر، بيروت، د.ط.، د.ت.
- الإيضاح في علوم البلاغة، لجلال الدين أبي عبد الله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني (٧٣٩هـ)، تح: الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٤/١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
- البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين ابن نجيم الحنفي (٩٧٠هـ)، دار المعرفة، بيروت، د.ط.، د.ت.
- البحر المحيط، للعلَّامة محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، (٧٤٥هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، للعلَّامة علاء الدين الكاساني (٥٨٧هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط، ١٩٨٢م.
- البيان في عدِّ آي القرآن، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث/ الكويت، ط١/ ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (٦١٦هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، د.ط.، د.ت.
- التحرير والتنوير، للشيخ الطاهر ابن عاشور (١٣٩٣هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١/١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبي (٧٤١هـ)، تحقيق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- تفسير أبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي (٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي،

بيروت، د.ط.، د.ت.

- تفسير السراج المنير، للعلَّامة شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني (٩٧٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط.، د.ت.
- التفسير العام، تأليف الأستاذ الدكتور، مصطفى الخنّ رحمه الله، منشورات جامعة دمشق، ط/١٤٣٦هـ. ٢٠١٥م.
- تفسير القرآن العظيم مسندًا عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، للحافظ عبد الرحمن بن محمَّد ابن إدريس الرازي ابن أبي حاتم (٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرَّمة والرياض، ط١/١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٧٤هـ)، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر، دمشق، ط٢/ ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١/١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
- تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١/ ٢٠٠١.
- التهذيب في اختصار المدوَّنة، لأبي سعيد خلف بن أبي القاسم القيرواني البراذعي، تحقيق: أبو الحسن أحمد فريد المزيد.
- جامع البيان في تأويل القرآن، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الآملي الطبري (٣١٠ هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١/١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، لأبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ)، دار المعرفة، بيروت، ط١/ ١٤٠٨هـ

- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (٦٧١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١/١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
- حاشية الانتصاف من الكشاف، للعلامَّة أحمد بن محمد، المعروف بابن المنير، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط، ١٤٠٧هـ
- حاشية رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار في فقه مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، للمحقق محمد أمين الشهير بابن عابدين (١٢٥٢هـ)، طبعة بولاق، سنة ١٢٧٢هـ.
- حجة القراءات، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبي زرعة (٤٠٣هـ)، تح: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٥/١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- الحجة في القراءات السبع، لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه (٣٧٠هـ)، تح: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، ط٤/١٤٠١هـ
- حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء، للعلامة سيف الدين أبي بكر بن محمد بن أحمد الشاشي القفَّال (٥٠٧هـ)، تحقيق: د. ياسين أحمد إبراهيم درادكة، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- حول تفسير سورة الحجرات، للشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى، دار الفلاح، حلب، ط١/ ١٣١٣هـ –١٩٩٢م.
- حول تفسير سورة الفاتحة، الشيخ عبد الله سراج الدِّين، مكتبة دار الفلاح، حلب، ط١/ ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأبي العباس أحمد بن يوسف بن عبد الدايم السمين الحلبي (٧٥٦هـ)، تحقيق: أحمد محمد الخرَّاط، دار القلم، دمشق، د.ط.، د.ت.
- دلائل الإعجاز، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (٤٧١هـ)، تح: د.محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١/١٩٩٥م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب

الدين السيد محمود الآلوسي (١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط.، د.ت.

- سنن أبي داود، للحافظ سليمان بن الأشعث أبي داود السجستاني الأزدي (٢٧٥ هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.
- سنن الترمذي، للإمام الحافظ محمد بن عيسى أبي عيسى الترمذي السلمي، (٢٧٩ هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط.، د.ت.
- سنن الدارمي، للحافظ أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١/ ١٤٠٧هـ.
- السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، نشر مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، ط١: ١٣٤٤هـ.
- السنن الكبرى، للإمام أحمد بن شعيب أبي عبد الرحمن النسائي (٣٠٣هـ)، تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري, سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١١هـ-١٩٩١م.
- السيرة النبويَّة، لابن هشام عبد الملك بن هشام الحميري المعافري (٢١٣ هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ط١/ ١٤١١هـ.
- السيرة النبويَّة، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير (٧٤٧هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ط١/ ١٣٩٦هـ - ١٩٧١م.
- الشرح الكبير على متن المقنع، لابن قدامة المقدسي، (٦٨٢هـ) على مذهب الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، دار الكتاب العربي، بيروت.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لأبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي (٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢/١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

- صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي (٢٥٦ هـ)، تح: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، واليمامة، بيروت، ط٣/١٤٠٧هـ. ١٩٨٧م.
- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج أبي الحسين القشيري النيسابوري (٢٦١ هـ)، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط.، د.ت.
- علوم الحديث المعروف بمقدمة ابن الصلاح، للإمام أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري المعروف بابن الصلاح (٦٤٣هـ)، تح: د. نور الدين عتر، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١/١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
- في تفسير القرآن وأسلوبه المعجز علمياً وبيانيًّاً، الأستاذ الدكتور نور الدين عتر رحمه الله، مطبعة الصباح، دمشق، ط١٢/ ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم الزمخشري (٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- لباب النقول في أسباب النزول، للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ)، دار إحياء العلوم، بيروت، د.ط. د.ت.
- اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي (٨٨٠هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- المبسوط في القراءات العشر، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران الأصبهاني (٣٨١هـ)، تحقيق: سبيع حمزة حاكمي، نشر مجمع اللغة العربية بدمشق، د.ط./١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للعلَّامة المفسر أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي

محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

- المستدرك على الصحيحين، للإمام محمد بن عبد الله أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، (٤٠٥هـ)، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١١هـ-١٩٩٠م.
- مشكل إعراب القرآن، مكيّ بن أبي طالب القيسي (٤٣٧هـ)، تح: ياسين محمد السوَّاس، دار المأمون للتراث.
- المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط٢/ ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م.
- مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير، للإمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي (٦٠٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
- مفردات ألفاظ القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ)، دار القلم، دمشق.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ عبد العظيم الزرقاني (١٣٦٧هـ)، تح: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، ط١/١٩٩٦م.
- النشر في القراءات العشر، للإمام محمد بن محمد بن محمد بن الجزري (٨٣٣هـ)، تحقيق: الشيخ علي محمد الضباع المصري، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط.، د.ت.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لأبي الحسن برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (٨٨٥هـ)، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط./١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- النكت والعيون، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية.

التدقيق العلمي

أ.د. علي محمود عكَّام د. علي محمد أسعد د. راوية نور الدِّين عتر

التدقيق اللغوي

أ.د. أحمد زكريا ياسوف

حقوق الطبع والترجمة والنشر

محفوظة لمديريَّة الكتب والمطبوعات الجامعيَّة

جامعة حلب